
أجندة سيِّد الأهل
رواية
أحمد صبري أبو الفتوح
مدونة أبو عبدو
دار العين للنشر

أجنـدة
سيِّد الأَهل

أجنـدة سـيِّد الأهل

(روايــة)

أحمد صبري أبو الفتوح

الطبعة الأولى / ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م



دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥

www.elainpublishing.com

الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٥٧٦/ ٢٠١١

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 129 - 2

أجنـدة

سـيِّد الأَهل

روايـــة

أحمد صبري أبو الفتوح

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو الفتوح، أحمد صبري.

أجندة سيد الأهل: رواية/ أحمد صبري أبو الفتوح.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص؛ سم.

تدمك: ٢ ١٢٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٥٥٧٦/ ٢٠١١

الإهــداء

إلى شهداء ثورة 25 يناير المجيدة،

وإلى الشهيد المبتسم الذي لا نعرف اسمه

الخميس 27 يناير 2011

وقع الأقدام فوق درجات السلم الحجري يدق في قلوبهم، مع اقترابها تلتمع عينا عمار النجدي الشهير بـ"تايسون"، موقنون هم أن فتوة القبو يعرف الكثير عما يجري، لذا فهو يضطجع في ركن بعيد راسمًا ابتسامة غامضة فوق ملامحه الحادة، مستمتعًا بتدخين سيجارة ملغومة بعامود الحشيش المقدس، ومكتفيًا بالتفرس في ملامحهم التي يجللها الرعب، فيما يده تعبث بمطواته، وكذلك يفعل صبيه تامر العبد، الشهير بـ"تيمور الناعم".

أنهى إليهم أحد الحراس خبر المظاهرات، قال إنها تعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، لا يعرفون ما إذا كان الرجل يجيبهم على سؤالٍ لم يسألوه، أم أنه يقصد شيئًا آخر، فلقد تركوهم دون أن يفتحوا عليهم القبو يومين كاملين، بلا طعام أو ماء، حتى اضطروا إلى تناول بقايا الطعام، وأوشك البعض على أن يشرب من جردل البول.

بعضهم يرجح أن ما أخبرهم به الحارس هو إجابة على السؤال الذي لم يطرحوه، وآخرون يرجعونه إلى مجرد الرغبة في البوح، ومن باب التميز قال سليمان الحكيم الشهير بـ"سليمان اللنش" إنها رسالة من أحدهم، ربما تكون من رئيس مباحث القسم الرائد مجدي الحسيني، ونظر إلى تايسون وتيمور يستمد منهما يقين نظرة العارف.

من ساعة أن أنهى إليهم الحارس الخبر أدركوا أن اتهامهم لأسماعهم بالخداع كان خطأً، فما ظنوه صدى صيحات بعيدة قادمة من أوهامهم كان في الحقيقة هتافات جموع حية، قادمة من مكان ما، ومن باب

الفكاهة سأل رفاعة الحارس عن الهتافات التي يرددها المتظاهرون، والتي اجتهد طوال اليوم ليخمن كلماتها و لم يوفق، وجاءتهم ضحكات الرجل من وراء الباب الحديدي الضخم الذي ينغلق عليهم، قهقهات صاخبة ثم أجاب:

– قال إيه!!، الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.

قالها مُقَطَّعة ومنغمة، وضجوا بالضحك، باستثناء تايسون وتيمور، وكان الأخير قد فكر في مشاركتهم الضحك، ثم لما رأى الفتوة مبتئسًا اعتصم بالحذر.

لأول مرة منذ أنزلوه إلى سراديب الغياب يغرق رفاعة في الضحك، طريقة الحارس في تنغيم الهتاف تنبئ عن أن روحًا جديدة تدب في الناس، هو الذي ظن لفترة طالت كثيرًا أنه يعرف الناس، وأنهم في الحقيقة أموات، لا تُرجى لهم حياة، فإذا كان ما يقوله الحارس صحيحًا فإنه أمام أناس آخرين، أناس قرروا أن ينفجروا بعد طول سكون.

لم يدرِ على وجه اليقين سر الغضب الممزوج بالخوف الذي سحب الدماء من وجه تايسون والحارس ينغم الهتاف، فهو على العكس منه، شعر مع الكلمات برحابة دفعت جدران القبو بعيدًا فاتسع حتى صار كأنه ساحة، في ركن بعيد منها تجلس أمه على أريكتها المتواضعة، وبين يديها بضاعتها، وأمامها زبونة مألوفة الوجه تساوم في قيمة القسط الذي تتعهد بسداده أول كل شهر.

وكانوا قد تركوهم يومين كاملين دون أن يفتحوا عليهم الباب، وها هي كلمات الحارس تفصح عن السبب، فلقد انشغلوا عنهم بثورة الناس، ومع الفرحة الممزوجة بالقلق نسي رفاعة الجوع والعطش، وانتهت نوبة الضحك فإذا بحواسه قد شحذت، صار يسمع دبيب الأقدام في الشوارع البعيدة، وهتافات موزونة يحملها الهواء الشحيح الذي ينجح في التسلل إليهم مع الأتربة عبر شراعة علوية ضيقة، متمترسة بقضبان حديدية كثيفة بمستوى أرضية الشارع المجاور، ويشم روائح مثل تلك التي كان يشمها في حياة الحرية، تخللت الأثير لتصل إلى خياشيمه.

على مدى ستة أشهر هي عمر رحلته بين حبوس الشرطة لم يراوده هذا الإحساس من قبل، ومنذ قدم إلى هذا القبو بالذات لم يشعر ببادرة واحدة للتفاؤل، كلمات الحارس هي التي فعلت في نفسه فعل السحر، استشرف دون سبب مفهوم انفراجة قريبة، وسمع لأول مرة منذ دفنوه في سراديبهم زقزقة عصفور بعيد يتقافز فوق غصن نَضِر، كذّب أذنيه، لكنه بتأثير الفرح صدق إحساسه.

أن ينساهم كل رجال القسم من أول المأمور وحتى أصغر جندي فهذا يعني أن شيئًا خطيرًا يجري، ما شأن قوة القسم بمظاهرات تجري هنا أو هناك؟!!، تساءل وهو يجلس مفرود القدمين، كان كمن قطع مشوارًا مهلكًا، وعند خط النهاية جلس ليستريح، ويريح أعضاءه كلها، حتى أصابع القدمين.

تساءل: ألم يجندوا أعدادًا غفيرة في الأمن المركزي؟!!، ألم يخرجوا

دفعات كاملة من الضباط ليعملوا في ألوية وكتائب وفصائل وسرايا هذا الأمن؟!!، فإذا اضطر رجال القسم إلى نسيانهم ليومين كاملين فهذا يعني أن الأحداث بلغت من القوة ما يفوق طاقة قوات الأمن المليونية، بمدرعاتها ومدافعها، وأسلحتها وقنابل دخانها، وخراطيم مياهها، وهراواتها ودروعها.

حدثه أبوه ذات مرة عن ثورة ضاعت في ثنايا العجز، اندلعت قبل مولده بسنوات، في بداية العام 1977، فيما صار يُعرف بـ"انتفاضة 18 و 19 يناير"، عندما ثار الناس احتجاجًا على رفع أسعار كل شيء، قال إن أنور السادات فر مع أركان حكمه في اتجاه الجنوب، وجهزوا طائراتهم في مطار الأقصر استعدادًا للهرب، لكن الثوار كانوا قليلي الوعي، هكذا قال، لم يدركوا أن ما يجري في كل المدن والشوارع والميادين ثورة حقيقية، وانتفاضة جسد امتلأ على مدى سنوات بقيم أرستها ثورة يوليو، قيم الدولة المنحازة للبسطاء والفقراء وملح الأرض، ثورة لم يكن فيها من عيب إلا النخبة، بتطرفهم وقدراتهم المحدودة وتشرذمهم، واستخفافهم بقيم الدولة التي اعتادوا الهجوم عليها حتى أسهموا في سقوطها، لم ينتبهوا للثورة الجديدة، لأنهم كانوا منعدمي الجسارة، وعندما ألغيت قرارات رفع الأسعار عاد كلٌ إلى موقعه، كأن لم تغن بالأمس، وعادوا ليمارسوا هواياتهم في التشتت، كل في طريق.

وحدثه عن ثورة أخرى قادمة، يخرج فيها الفقراء من الشقوق والجحور والعشوائيات، يملؤون الفضاءات فلا يجد النظام مكانًا ليحرك

قدميه، شرطته وجيشه، ولا فضاءً لاستعمال أدواته، فيسقط في موضعه كبناية منهارة... أتكون هذه هي تلك الثورة؟!!.

يتعجب رفاعة، كيف يمتنع عقله عن إعادة إنتاج حفلات التعذيب التي اجتازها في ليل السراديب الطويل؟!!، كيف تجد أعضاؤه ضالتها في استراحة يجلس فيها مرتكنًا إلى جدار القبو كأنه جدار دارهم؟!!، كيف يسرى خدر التمطع في جسده كله، كأنه يحتشد لمهمات خطيرة قادمة؟!!، علامات غريبة تنتابه منذ استمع إلى كلمات الحارس، تدفعه لأن يحلم من جديد، وأن يسارع بمراجعة أجندته التي قضى الأشهر الطويلة في إعدادها.

حتى إلى ما قبل إبلاغهم بالخبر كانوا مجرد عشرة أشخاص، محبوسين في قبو ضيق، واقع تحت جدران قسم قديم، يقودهم تايسون بمطواته، وموهبته في التلاعب بضحاياه، وتفاخره باكتشاف مواضع جديدة للقتل، يقول إن الذبح والطعن في الصدر والبطن وتهشيم الرأس، كلها مواضع قديمة وطرق بالية، يسلكها قليلو الخبرة، الذين يفتقرون إلى الخيال والمهارة، هناك أوردة الورك وشرايينها في صفحة الفخذ الداخلية، وشرايين الذراع وأوردتها عند المرفقين، وأوردة وشرايين جانبي قاعدة الرقبة، بطعنة مُحكمة تصفي دم ضحيتك، ينسكب الدم انسكابًا لا يجدي معه شيء، ولأنها مجرد طعنة واحدة، بعيدة عن المقاتل التقليدية يكون الاتهام هو الضرب المفضي إلى الموت، حتى ولو بالغت النيابة وقدمت المتهم بتهمة القتل العمد، والضرب المفضي إلى الموت - ينظر في عيونهم ويؤكد -

لا تزيد مدة السجن فيه على سبع سنوات، السنة منها ستة أشهر، وهكذا تقضي في السجن فترة أقلها أشهر قليلة، وأقصاها ثلاث سنوات ونصف، ثم تخرج إلى الحياة سيد أيامك.

بعد همس الحارس الأمر في نظر رفاعة صار مختلفًا، فأولئك الذين يتمردون ويرفضون العودة إلى منازلهم يغيرون قواعد اللعبة، يسلبون الفتوات سيطرتهم، ليس فقط في المدن والشوارع وما فوق الأرض، ولكن في الأقبية أيضًا، فـ"تايسون" لا تترسخ فتونته إلا لكونه مرشدًا للشرطة، فإذا كانت الشرطة تواجه إعصارًا قد يعصف بها، أفتظل حامية لحشراتها المنبثة في الأركان؟!!، هكذا قال لنفسه وهو يثبت النظر في عيني تايسون، يريد أن يسبر غورهما، رأى في عمق العينين الماكرتين هلعًا، يعجز عن التوارى خلْف جدارٍ من الصلابة، قال في نفسه إن الوقت حان ليجرده من فتوته وسلطاته شبه الإلهية.

دق الأقدام الهابطة يتوقف، ينفتح الباب عن واحد من المخبرين، ينادي على تايسون، وكان حتى لحظة النداء يواصل نفث دخان سيجارته، وينادي أيضًا على تيمور، هذه أول مرة يفتح فيها القبو في غير حضور واحد من ضباط المباحث، ويدرك رفاعة أن في الأمر شيئًا أكبر مما يظن، ويعتصم بالصمت.

يميل سيد القشاش على أذن رفاعة، يبشره بقرب إطلاق سراحهم، يعرف رفاعة أن تجليات تيمور الناعم مع القشاش نادرًا ما تخيب، فما بينهما من عاطفة مشبوبة تجعل تيمور يختصه بالأخبار الطازجة، إذ هو

لا يتكلم إلا عن معلومات تجيئه مباشرة من تايسون، وتايسون هو الوحيد في القبو الذي لديه هاتف، يهمس فيه لمجهولين، ويطمئنه القشاش، فقبل أن يبلغه تيمور بما قال كان تايسون يهمس في التليفون لأحدهم، فإذا استدعوا الاثنين معًا فهذا يعنى أن قرارًا يتعلق بمصائرهم يتخذ هناك.

لا يعرف أحد بأمر الاتفاق الذي أبرمه رفاعة مع القشاش، مستعينًا بخبرات السراديب وليالي التوحد والقهر، يمده القشاش بمعلومات عن تايسون مقابل مبلغ يتسلمه عند صعودهما إلى سطح الأرض، اتفاق اختبر جدية القشاش فيه وتيقن منها، فعلى مدى الأيام أمده بمعلومات هامة حصل عليها من تيمور.

ما الذي سيكون إذن؟!!، وكيف؟!!، سؤال يطرحه رفاعة على نفسه، وتكاد عيناه تطرحه على الجميع، إنهم طوال الوقت يتجنبون غضب تايسون، ويأتمرون بأمره، يخشون سطوته وانتقامه، لكن القلق الذي يدب في نفوسهم مما أبلغهم به الحارس عن هجوم على القسم وشيك يجعلهم يتجاوزون خوفهم وتحسبهم ويتصارحون، ماذا لو هاجم المتظاهرون القسم؟، وماذا إذا لاذت قوة القسم بالفرار؟، ما مصيرهم؟، ويقترح منصور الأعور بعد طول تردد:

- نتكلم معاهم بسراحة.

يقصد عمار وتيمور، ويتململ قليلاً ثم يردف:

- كلنا في مركب واحدة.

ويؤكد:

– وهمه قبلنا.

يعلق سليمان اللنش:

– دا إذا رجعوا.

يعترض أكثر من صوت، يرفضون تصديق الفرضية، ويهدئ رفاعة من روعهم:

– ليه نتوقع البلا قبل وقوعه؟!!

ينظر في وجوههم، يخفي فرحته بخوفهم، فعما قريب سيتحول الخوف إلى حالة رعب حقيقية، يردف:

– كلها دقايق ونعرف.

يطول بهم الوقت فيظنون أنه بلا نهاية، ينتقلون إلى نوعٍ آخر من الحديث، يقول اللنش:

– افرضوا صدرولنا الطارشة، ولًا تايسون غز واحد فينا؟!!

ويلوذ رفاعة بالصمت، يتركهم يتجادلون، يقول الأعور:

– إحنا نسألهم عن الليلة، وإذا نَفَّدُوا نهجم عليهم وناخد المتوة.

ثم وهو ينظر إليهم بعينه الواحدة:

– ونقررهم.

ويقفون عند هذا الحد، ويضطر رفاعة للتدخل:

– من ناحية هينفضوا يا منصور، هما فعلا هينفضوا.

فيندفع الأعور:

– يبقى من أولها نهجم عليهم، وناخد المتوة.

ويعود لينظر في أعينهم:

– وبعدين نقررهم.

ويتوافقون على ما قال، وحتى لا يتراجع منهم أحد يطلب اللنش قراءة الفاتحة!

ترفع مكبرات الصوت آذان العصر، لا يدري رفاعة لماذا يرى في خياله المساجد خالية؟!!، رُوَّادها يدورون مع المتظاهرين، تصمت المكبرات فتأخذ الهتافات طريقها إليهم، لا يعوقها شيء هذه المرة، حتى طبقات الأرض التي يرزحون تحتها.

تايسون وتيمور لم يعودا بعد، واليأس يأخذ في التسرب إلى نفوسهم، لا بد أن الرائد الحسيني أطلق سراحهما، فهما مرشداه، ولا يريد لهما المصير الذي سيلاقيه الباقون، هكذا يقولون في أنفسهم، وتتوافق أعينهم على النظر إلى باب القبو، المصفح بالحديد والكوالين الضخمة، ويغلقه من الخارج قفل أسود بحجم الرأس، والمزلاج الرهيب الذي يدخل في الجدار مسافة تزيد على النصف متر، وينمو في داخل كل منهم سؤال صعب، كيف سيتغلبون على هذا الباب؟!!.

لكن الباب يعود فينفتح، يدخل تايسون يتبعه تيمور، على وجهيهما ظفر، وفي عينيهما تتراقص فرحة ويتماوج قلق، لا يقلل هذا من عزمهم، يقتربون منهما في ود، يسألونهما عن سر الفرحة، وقبل أن يستكملا دورة تمنعهما يطبقون عليهما، اثنان أحدهما القشاش يختصان بـ"تيمور"، فيما يجتمع الباقون على تايسون، يمسكون به يكبلون يديه الطليقتين، ويتولى رفاعة تفتيشه، ينتزع المطواة من جيب بنطاله، والتليفون من الجيب الآخر، ويستكمل التفتيش فيعثر على طبنجة في جيب سري في سرواله، بين فخذيه، خزنتها محشوة بالطلقات!!

كلهم يعرفون بأمر المطواة، فلطالما أشهرها في وجوههم، وطعن بها أحدهم ذات مرة، يعرفون أيضًا بأمر التليفون، لكن العثور على طبنجة بحوزته يصيبهم بالهلع، يتحدثون كلهم في وقتٍ واحد، يؤكدون كل لنفسه وللآخرين أنها لم تكن بحوزته من قبل، يتساءلون في نَفَسٍ واحد، إذا كان الرائد مجدي الحسيني رئيس المباحث هو من أمده بها فلمَ؟!!، أتُراه أمره بالتخلص منهم؟، ويجيبون في نَفَسٍ واحد أيضًا، ولم لا؟!!، ويهمون بالفتك بـ"تايسون" لولا صيحة رفاعة:

– سيبوا الراجل يقولنا إيه الحكاية.

من طرف خفي يغمز بعينه فيبدأ القشاش في تفتيش تيمور، ينظر الناعم في وجه القشاش بخوفٍ ممزوج بالحب، ويصرخ القشاش ظافرًا، بين فخذي الناعم عثر في جيبٍ سري على طبنجة مماثلة، وتليفون محمول، يأخذونهما منه، ويلح عليهم رفاعة فيتراجعون بـ"تيمور"، فيما يصير

وحده في مواجهة تايسون، يصوب الطبنجة إلى رأسه وهو يحدثه:

– على حسب يا فتوتنا.

ويرد على نظرة مستطلعة في عينيه:

– إحنا عيال جدعان برضه.

ويطرق تايسون إلى الأرض، ربما لشعور دافق بالندم، فهو الآن يشعر بخطر رفاعة، رفاعة الذي اصطفاه صديقًا رغم تحذيرات الرائد مجدي الحسيني وبثه كل أسراره، وبعقله الآسف يأخذ في التفكير في طريقة للتخلص مما هو فيه، لكن القبو الخانق المكدس بعشرة من الرجال يجعل من أية محاولة انتحارًا حقيقيًا، هو يدرك هذا، وكذلك رفاعة وكل المحتجزين، ويسحب رفاعة طلقة في ماسورة السلاح فتندفع طلقة أخرى، هذا يعنى أن تايسون جهزه للإطلاق، يُحكم وضع الماسورة في رأس تايسون ويأمره:

– من طأطأ لسلامو عليكو.

ويحذره بضغط فوهة السلاح في صدغه:

– صبيانك ما يستاهلوش تخبي عليهم ولا كلمة.

رفاعة سيّد الأهل

ليس في أسرة سيد الأهل المنحدرة من قرية نَوَسَا البحر القريبة من المنصورة من سُمِّي من قبل بهذا الاسم، رفاعة، لكن الأستاذ صابر سيد الأهل مشرف الإنتاج بشركة المراجل البخارية أطلقه على أول أبنائه؛ تيمنًا باسم الرائد العظيم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، وظل الاسم لسنوات محل تندر، حتى أن المدرسين في المدرسة الابتدائية التي التحق بها رفاعة كانوا يتندرون هم أيضًا، وكان الاسم إلى جانب اعتبارات أخرى كثيرة سببًا في شهرة الولد على مستوى المدرسة، وكذا في المدرسة الإعدادية، ثم على مستوى المدرسة الثانوية وشارع سليم الأول في حلمية الزيتون، حيث قضى رفاعة فترة تلمذته في المدرسة الثانوية، قبل أن تنتقل الأسرة إلى عزبة النخل لتسكن المنزل الذي أنفق الأستاذ صابر سنين عمره في بنائه، فوق قطعة أرض اشتراها بشق الأنفس من أحد أصحاب التقسيمات العشوائية التي أقيمت فوق أجود أنواع الأرض الزراعية.

لا تسير الدنيا في خط مستقيم وطريق صاعد، إنها تشرق هنا وتغرب هناك، هكذا قال الأستاذ صابر سيد الأهل معلمًا ابنه الأكبر، لم يكن يدري أن حكمته ستنطبق عليه أول ما تنطبق، فما إن انتقل بأسرته – زوجته الحاجة نوال السروي الممرضة القديمة، وولديه رفاعة وشهدي، وابنته الصغيرة درية – إلى منزله الجديد حتى ظهرت عليه علامات المرض، واكتشف الأطباء أنه مصاب بورم في الكبد، سرعان ما تبين أنه من النوع القاتل، ومع نفقات العلاج التي انفتحت على المصراعين تقلص دخل الأسرة بشدة، صار مجرد مرتبه من الشركة، مخصومًا منه الحوافز

والإضافات والمكافآت، كما فقد دخله الإضافي من العمل ليلاً في ورشة لأعمال الخزف.

الأطباء قرروا أنه في حاجة إلى زراعة كبد جديد، توهمت الأسرة أنها قادرة على تكلفة الجراحة، فانطلقوا يجرون التحاليل لمعرفة مَن مِن الأبناء هو المناسب لإعطاء أبيه فصًا من كبده، ووقع الاختيار على رفاعة، لكنهم سرعان ما أدركوا أن المشكلة ليست في توفر المتبرع، ولكن في تكلفة الجراحة، فثمن المنزل الجديد الذي لم يهنؤوا بالاستقرار فيه لا يغطي نصف التكاليف، وظلوا يُقلِّبون الأمر على أوجهه وهم يراوحون مكانهم حتى تفاقمت الحالة، وأعلن الأطباء أن زراعة الكبد لم تعد ممكنة، فلقد انتشر الورم في باقي الأعضاء، وفي ليلة صيفية خانقة سقط الرجل المتألم بشدة في أعماق غيبوبة كبدية، و لم يخرج منها أبدًا، وبعد أربعة أيام صعبة صعدت روحه إلى بارئها.

يعرف رفاعة أن والده الحاصل على دبلوم الصنايع القديم كان ينتمي إلى تنظيم ما، انعقدت بعض اجتماعاته في شقتهم بحلمية الزيتون، وأثناء مرض أبيّه تردد عليه الرفاق، أمدوه بين الحين والحين بالمساعدات، وعندما عرفوا بإمكانية زراعة كبد جديد له نشطوا في جمع المال لمساعدته، وأبلغه بعضهم أنهم تمكنوا من تدبير عشرين ألف جنيه، ولما توفي الرجل سلموا المبلغ لأرملته في حضور أبنائه، ونعوه في نشرة صغيرة قرنوا فيها اسمه بوصف المناضل العمالي الكبير، وسعوا ليحصلوا لأسرته على حقوقه في صندوق الزمالة والمعاش والنقابة، وعلى فترات متباعدة كانوا يتصلون بـ"رفاعة" باعتباره أكبر الأبناء، يسألون عنه وعن إخوته وأمه، ويؤكدون

أنهم يسعون لإلحاقه بالعمل في الشركة، لكنه لم يحصل على الوظيفة الموعودة، فلقد تمت خصخصة الشركة وبيعت بأبخس الأثمان.

رفاعة ظل طول الوقت على هامش السياسة، العمل السياسي الوحيد الذي اشترك فيه عندما سار في المظاهرات التي انطلقت في الجامعة، احتجاجًا على اجتياح أمريكا للعراق.

ظروف الحال بعد رحيل والده لم تدع مجالاً للشك في أنه وليس أحدًا غيره المنوط به مشاركة والدته في الجري على معاش الأسرة، رأى أحلامه تتساقط أمامه على الأرض وهو غير قادر على أن يستنقذ منها حلمًا واحدًا، شهادته الجامعية الوشيكة، والمكتبة المقهى التي لطالما حلم بها، وأشرك معه في الحلم أصدقاء من الجامعة، وقضوا الليالي يقترحون أسماء الكتب التي ستوفرها المكتبة لراغبي القراءة، وأخيرًا حلمه بالسفر إلى إحدى البلاد البعيدة؛ للتزود بالمال اللازم لتنفيذ المشروع.

كف عن الذهاب إلى الجامعة، معللاً النفس بالعودة إليها عندما تستقر الأحوال، وكان بعد المأتم بأيام قد بدأ رحلة البحث عن عمل.

النشاط التجاري الصغير الذي تمارسه الحاجة نوال السروي الحاصلة على هذا الوصف بفضل عمرة رمضانية قديمة ساعد إلى حد كبير في وقوف الأسرة على قدميها، أثناء مرض صابر وبعد رحيله، فهي تسافر إلى المحلة الكبيرة، وكفر الدوار، وسلمون القماش، وكرداسة؛ لتحصل على مفروشات وملابس بأسعار مخفضة، ثم تعيد بيعها بالتقسيط مقابل هامش ربح معقول، فالكوفرتة التي تشتريها في الجملة بثلاثين جنيهًا مثلاً تبيعها

بالتقسيط على ستة أشهر بأربعين، لكنها مع مرور الوقت واحتياج الأسرة إلى المزيد من المصروفات، وخاصة عندما نجح شهدي في الالتحاق بكلية الهندسة التي لطالما حلم أبوه بإلحاقه بها، سحبت من أموال تجارتها فتقلص نشاطها حتى كاد يتوقف، وأصبحت تستدين لتحصل على البضائع، ثم تعيد بيعها بالأجل فتحتاج إلى الاستدانة من جديد.

أعمال كثيرة عمل بها رفاعة، جرب حظه أول ما جرب في ورشة الخزف التي كان والده يعمل بها، قبل به أصحاب الورشة مجرد عامل ينقل الأشياء وينظف المكان، فهو ليس مُدربًا للعمل كخزاف، ودونه وتعلم الحرفة سنوات، وبسبب ضعف الأجر ترك الورشة وعمل بمقهى إنترنت في مدينة نصر، وأعفوه أصحاب المقهى من العمل لاتهامه بالغفلة.

من مقهى الإنترنت إلى سائق تروسيكل لنقل البضائع، ومنه إلى عامل في مصنع خراطيم في الخانكة، ثم عمل في مجال المعمار فاعلاً ينقل أكياس الرمل ورصات الطوب إلى الأدوار المرتفعة، ولما سقط أحد زملائه من فوق السقالة ولفظ أنفاسه ترك العمل ولزم البيت، بعدها جرب العمل كصبي ديليفري في أحد محال الأكل الشهيرة، وتعلم قيادة الدراجات النارية، وبعد تردد عاد للعمل في مقهى الإنترنت، ولكن بعينين مفتوحتين على آخر اتساعهما هذه المرة.

عرف التدخين في مرحلة مبكرة، وهو تلميذ في المدرسة الإعدادية، وصار مدخنًا شرهًا ابتداءً من مرحلة مرض أبيه، واستمتع به إبان عمله كفاعل، إذ كان تدخين سيجارة فيما بين نوبات العمل يهون عليه الكثير

من الصعاب، لكنه لم يعرف تدخين الحشيش إلا في فترة عمله الثاني بمقهى الإنترنت، فعن طريق بعض الشبان المترددين على المقهى حصل على أول سيجارة ملغومة، لم يشأ أن يدخنها في أوقات العمل، انتهز فرصة الاستراحة ودخنها، وقتها شعر بالخدر، وعمت السكينة أعضاءه، وعرفت روحه القلقة معنى قلة الاكتراث.

تلك كانت الفترة التي انفتح فيها على مكتبة أبيه، انكبَّ على القراءة وذاب في عوالم مدهشة، جعلته تلك العوالم يقدر على المضي في الحياة برغم سوءاتها، لكم تمنى أن يغوص داخل نفسه، ويرى بعينيه المناطق المعتمة التي تحتل أجزاءً من روحه، أجزاء لا تنفك تتسع وتتسع، حتى لكأنها ستعم الكون.

برغم كل شيء نجح في العودة إلى دراسته الجامعية، وتعرف على صفية طالبة الألسن، مطربة فرقة الفجر، يعرفها الوسط الجامعي باسم صافي، أحبها وأحبته، وفوق الدراجة البخارية التي تمكن من شرائها جابا أحياء القاهرة، وتخومها، حتى سكك الغيطان المنتشرة من حولها، والجزر التي يحيطها النيل من كل جانب، ونجح في الحصول على الليسانس.

مقابل بقشيش محترم كان يذهب إلى أماكن سرية ليحصل لزبائن الكافيه على الحشيش، قطع متفاوتة الأحجام والأثمان، ملفوفة بعناية فائقة، بسلوفان أصفر وأحمر وعديم اللون.

دخله من هذا السعي فاق أجره من العمل في الكافيه، لذا فإنه لم يتردد في استخدام عامل يساعده في الإشراف على العمل ومراقبة الأجهزة،

يعطيه أجره من جيبه، فأوقات ابتعاده عن العمل تطول، وشيئًا فشيئًا صار الشباب من غير زبائن الكافيه يقصدونه؛ ليذهب نيابة عنهم إلى أماكن الحصول على الصنف المطلوب، ومع الوقت انبثقت في رأسه فكرة، طردها في البداية، استنكر مجرد ورودها على ذهنه، لكنها ظلت تلح عليه إلى أن جلس مع نفسه يناقشها، فهو إن حصل على بعض قطع الحشيش ليعيد بيعها للراغبين سيكون أجدى، له ولهم، بدلاً من المشاوير الطويلة التي يقوم بها كل يوم، ولما فاتح الشخص الذي يبتاع منه قال الرجل إنه مجرد بائع صغير، وأمر كهذا يتطلب السعي إلى من بيده الأمر، وبعد يومين اصطحبه ليقابل الشخص المعني.

رجل غامض يعمل في جاليري فاشون المملوك للحاج صفوت بيومي رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب، الجاليرى منزو في ممر جانبي متفرع من شارع مكرم عبيد، سأله الرجل إن كان يمكن أن يحتفظ له ببعض الأشياء في منزلهم في عزبة النخل مقابل مبلغ محترم يحصل عليه شهريًا، بدلاً من تعريض نفسه للخطر، الدهشة عقدت لسانه، الرجل يعرف عنه كل شيء، تطورات أحوالهم وتجارة والدته، دراسة شهدي ودروس درية، كأنه يضعه تحت منظاره منذ وقت طويل، بالكاد استطاع أن ينحي عنه أستار الدهشة ليعود لفكرته الأصلية، يريد إبعاد أسرته عن أمور النشاط المرتقب، وانتهى الموقف برفض الرجل إمداده بالمطلوب.

البائع الصغير أرسله إلى مكان آخر، هناك حصل على مراده، بضاعة في حدود ألفي جنيه، يكسب من وراء توزيعها ألفًا إذا هو أتقن عمله،

وابتعد عن عيون الرقباء، وعلى مدار أسبوع تمكن من توزيع الكمية فسدد ثمن البضاعة ودفع مقدم الصفقة التالية.

صار يعطى أمه ما يساوي مرتبه من الكافيه، وشيئًا معقولاً من الربح، وحتى لا يثير شكها أخبرها أنه حصيلة البقشيش الذي يحصل عليه من الزبائن.

عرفت درية الصغيرة زيادة المصروف، يمدها به في مطلع كل أسبوع، وعرفت كيف تداري الأمر عن أمها، وعرف شهدي الملابس التي يشتريها من شارع عباس العقاد، بدلاً من فرشات وكالة البلح، وعرف الجلوس على كافيتيريا الكلية، إذ وكانت بالنسبة له من المحرمات.

نشاطه توسع بصورة أزعجته هو نفسه، فاضطر إلى استعمال صبي يسلم المطلوب نيابة عنه، على نطاق مكرم عبيد ومصطفى النحاس وعباس العقاد، زبائن جنينة مول وسيتي ستارز، بالإضافة إلى زبائن الكافيه الذين ظلوا على عهدهم معه، يحصلون على مطلوبهم ويجزلون العطاء.

استُدعي أول ما استُدعي لمقابلة اللواء عاصم الإمام، مفتش أمن الدولة، أصابه الرعب والعجب، يفهم أن يتم استدعاؤه لمكتب مكافحة المخدرات، أو حتى لمباحث القسم، وليس لمباحث أمن الدولة!!، هناك عرف أن الرجل الغامض في جاليري الحاج صفوت بيومي هو من دس له عندهم.

عصبوا عينيه وأدخلوه ليقابل اللواء الإمام، وكان الرجل عمليًا، ففي مقابل تركه يباشر نشاطه طلب منه العمل مرشدًا، في الجامعة، وفي الكافيه

الذي يشرف عليه، ينقل إليه أخبار الشبان، الناصريين والماركسيين، ونشطاء 6 إبريل وشباب التغيير، وحملة دعم البرادعي.

لم تكن لديه خبرة تذكر في هذا الشأن، في البدء تردد، ثم تذكر أباه والذكريات الطويلة عن الخائنين الذين يوشون بزملائهم فاعتذر، اجتهد قدر استطاعته ليكون الرفض هينًا، طلب تكليفه بأي شيء آخر، إلا أن يكون مرشدًا وواشيًا، وران صمت، وسمع صوت الجرس، والصوت الممطوط يأمرهم فيأخذونه، نزلوا به إلى سرداب قضى فيه أيامًا هي الأسوأ في حياته كلها.

في فترات سكونه لا يقوى على تذكر التفصيلات، عندما تتضح معالم الوحش الذي جثم فوقه، وفعل به ما فعل يأخذ في هز رأسه بعنف، صرخة داخلية تقتلعه من جذوره، كانوا يضربونه بقسوة غريبة، وهم يأمرونه بالتأوه كامرأة، ويطلبون منه اختيار اسم أنثوي لينادوه به، ولما لم يستجب صعقوه في خصيتيه، وفي عضوه، يغيبه الألم عن الوعي ساعات ويعود الوحش ليعتليه، ويفعل به من جديد.

إلى حلق الباب علقوه عاريًا، تركوه مُعلقًا كالذبيحة، وكان قد فقد وعيه، وأفاق وهم يحملونه في سيارة، ويتجهون به إلى مكانٍ مجهول، وأماطوا العصابة من فوق عينيه فوجد نفسه أمام وكيل النيابة.

عبد العزيز القاياتي وكيل النائب العام، اسمه محفور في قطعة خشبية موضوعة أمامه، من خلال جفنين منطبقين بالورم استطاع قراءته بالكاد، كان يفهم ما يُوجَّه إليه من أسئلة، لكنه يجيب باضطراب، وبغير تركيز،

فأعضاؤه تؤلمه بصورةٍ لا يعرف كيف يعبر عنها، تمنى لو يصرخ صرخة تهدم مبنى النيابة فوق الرؤوس، أو يطلق آهة ألم بعمق الإهانة التي يشعر بها، وعلى مسمع وكيل النيابة اتهم اللواء عاصم الإمام بتعذيبه وهتك عرضه، وتلفيق اتهام له، وواجهه وكيل النيابة بالمضبوطات، وكانت عبارة عن طربتين كاملتين لمخدر الحشيش، وأنكر صلته بهما وطلب عرضه على الطب الشرعي؛ لإثبات ما به من إصابات بالغة من جراء التعذيب.

كل ما قال ذهب أدراج الرياح، إذ لما تمكن من الاستعانة بمحام أبلغه بعد أيام بخلو التحقيقات من كل ما قال، بل وبأنه أقر في التحقيقاتَ في وجود محام معه بوقوع إصاباته جراء مقاومته لرجال الضبط، واضطرارهم لاستعمال قدرٍ مناسب من العنف معه، ليتمكنوا منه، وانفجر غاضبًا، سب الجميع، عاصم الإمام وعبد العزيز القاياتي وصفوت بيومي، وفي نهاية اليوم هذى، تلبسته حُمَّى جعلت رفاق الحجز يشفقون عليه، صرخوا في السجان ليستنقذوه، ولما لم يُعِرهم أحد التفاتًا خلعوا ملابسهم وبللوها بالماء، وألقوها عليه لتهدئ من ثورة الحمى.

أربعة أيام عرضوه بعدها على القاضي، رأته أمه فسقطت مغشيًا عليها، كان أشبه بمعتوه، يقودونه فينقاد في دهشة، وعتب، أو بمسلوب لا يدري من أمره أو من أمر ما يحيط به شيئًا، رآه القاضي منكس الرأس فسأله عن صلته بالجريمة، واكتفى بالنظر في عينيه، لا يريد أن يفقد الثقة فيه هو الآخر، بعد أن زور عليه وكيل النيابة سبب إصاباته، وقبل أن يخرج من لدن القاضي كانت اليد المدربة تأمر بامتداد حبسه خمسة عشر يومًا.

أربعة أشهر قضاها رهين محبسه، ثم قضت المحكمة ببراءته، لم يحقق أحد في واقعة إلقاء القبض عليه قبل صدور الإذن من النيابة بذلك، ولا في واقعة تعذيبه وهتك عرضه، وتزوير أقواله أمام النيابة، كل هذا ذهب أدراج الرياح، وبقيت في حلقه المرارة، لا تُمحى، وحُمّسى لحظية تأتيه مع الذكرى، وخرس موقت ينعقد منه لسانه لحظة يهم بالحديث.

حكم البراءة كان له فعل السحر، فلقد توقف عن ممارسة النشاط، وصارت تجارة الحشيش بالنسبة له من الماضي، ففي لحظات ألمه وهو معلق إلى حلق باب السرداب نذر إن هو خرج من محنته ألا يعود إلى الحشيش أبدًا، لكنهم لم يتركوه لحاله، لفقوا له العديد من القضايا، وفي كل مرة كان يخرج من الاتهام كما تخرج الشعرة من العجين، فقط يقدم للمحققين وللقضاة أدلة التقصد والتلفيق، أوراق الخصومة بينه وبين الشرطة.

كل ما ادخره من مال كان يخفيه لدى صفية، لتبحث لهما عن شقة، يتزوجان فيها، وامتلك مع الوقت ناصية البيان في كيفية الخروج من الاتهام، أي اتهام، والتعامل مع الضباط ووكلاء النيابة الذين يضطرهم إلى إثبات ما يريد، و لم يعد لديهم من وسيلة للتغلب عليه إلا خطفه وإنزاله إلى بطن الأرض، وقد فعلوا.

من كثرة ما قبضوا عليه، ولفقوا له الاتهامات صار مسجلاً بمكاتب مكافحة المخدرات، وسجلات الإدارة العامة، صاروا يفحصونه دوريًا، ومع مرور الوقت صار يتحدث كما يفعل المسجلون، ويسلك كما يسلكون، وعرفت يده استخدام مختلف الأسلحة، تعلم كيف ينام فلا يغمض إلا عينًا واحدة.

لكن كل ذلك لم يمنعهم من اصطياده، فأعداؤه لا يكفون عن مطاردته، صفوت بيومي ورجاله الغامضون، الذين ناصبوه العداء من أول وهلة، واستخدم كل ما تعلمه في كلية الحقوق لشكاية النائب لكل الجهات، وشكاية عاصم الإمام الذي لم يقبل أبدًا استيعاب كيف يمكن لشاب ملوث بالجريمة أن يرفض العمل مرشدًا، وضباط المكافحة الذين لا ينسون نجاحه في الإفلات من الاتهامات التي لفقوها له.

آخر مشهد له فوق الأرض كان في عصر يوم قائظ من أيام شهر يوليو، الدنيا بعد أن أشعلت النار في كل شيء جاهدتْ لتبعث نسمة هنا وأخرى هناك، لكن الناس كانوا مقتولين من الحر، ووقف رفاعة أمام محل بقالة صغير في ميدان النعام؛ ليشتري زجاجة ماء باردة، كان مستقلاً دراجته النارية، أوقفها أمام المحل وألقى التحية على صاحبه، وترك الدراجة وتوجه إلى الثلاجة، وفجأة وجد نفسه يرفس الهواء بقدميه، كانوا يحملونه كما يحمل الإنسان جوالاً، ألقوه في صندوق سيارة ربع نقل وانطلقوا به، وصرخاته تنجح بالكاد في التسرب من أكفهم التي تكمم فمه.

في الطريق أدرك أنهم يتجهون به إلى مقر أمن الدولة، شيء ما يدله على الطريق، فبرغم العصابة التي وضعوها فوق عينيه استطاع أن يشم روائح الأماكن، ثم صعدوا به سلمات قدر أنها خمس، وكانت خمسًا، ومضوا به خطوات أحصاها من قبل، ثلاثين خطوة، وكانت كما سبق وأحصاها، ولما دفعوه ليسقط على الأرض عرف أنه يقبع من جديد في سرداب أمن الدولة، السرداب الذي اعتدوا عليه فيه، وعلقوه إلى حلق بابه

حتى انخلعت مفاصله، يشم ذات الروائح التي اشتمها من قبل، وتأتيه في الظلام أصوات كتلك التي عاش معها من قبل.

صرخ بكل قوته، نادى كل من يعرفهم، أباه، أمه، أخاه شهدي، أخته درية، حتى عاصم الإمام، استعطفهم كلهم، فالأوهام التي يخلقها الظلام تصور له الوحش متربصًا به، وبطنه تموج بآلام مغص غريب، يعرف أنه من أثر شرخ شرجي سببه اعتداء الوحش عليه.

تركوه يومين بلا طعام أو شراب، وبلا أحد يتحدث إليه، وعندما أيقنوا أنه كف عن النداء على من يعرفهم، أو حتى من لا يعرفهم اقتربوا في حذر، كان قد بدأ في الهذيان، وبدأ في الحديث مباشرة إلى الله، كأنه واقف أمامه، كان يعاتبه، ويبكي بين يديه، ويغلظ القول، ويهدد بعدم الإيمان به ما لم ينقذه من محنة النزول إلى باطن الأرض فلا يعود منها، التهديد الذي سمعه مرات من رجال عاصم الإمام، وأتباع صفوت بيومي الغامضين، كان يتساءل عن علاقة صفوت بيومي بـ"عاصم الإمام"، وتجارة المخدرات بأمن الدولة، وفي كل مرة يطرح فيها سؤالاً كان يضج بالضحك، ثم تأتيه الإجابة في صورة قشعريرة تسري في جسده فيواصل السب.

جزء منه كان مستهلكًا بشدة، تخفت أضواؤه كأن الظلام سيعم، وجزء ينمو، في صورة وعي بالمكان والزمان، وخوف من السقوط في براثن يعرفها، براثن الجنون الذي لا يبقي لصاحبه شيئًا، ولما رأوه يتحدث إلى الله ويغلظ القول أمروا بنقله، وبدأت رحلة الغياب التي استغرقت ستة أشهر، كاملة باليوم والليلة.

مع الوقت تعلم دروس الحبس:

(1) الأحداث التي تقع في الخارج لا تأخذ لدى السجين صورتها أو حجمها الحقيقيين، بعضها يكون تافهًا، لكنه وهو يتدحرج ليصل إليه داخل سجنه يأخذ في التضخم ككرة الثلج، فيظن السجين أن مصيبة لا قِبل له بها حلت، وبعضها يكون خطيرًا، لكنه وهو في الطريق ينفض الَكثير من غباره، حتى ليظن السجين أنه هين، ولا يدرك إلا متأخرًا جدًّا حجم البلوى.

(2) المحبوس كائنًا ما كان قدره، وكائنة ما كانت ثقافته، ما إن ينغلق عليه باب السجن يصيبه هاجس الانقطاع، يأخذ في التصرف بغرابة، ويندفع إلى الشكوى، وبخاصة عند زيارة أهله له، قد يأخذ في استعطافهم؛ ليعملوا على إخراجه من محبسه في أسرع وقت، يقول إنه يموت في كل لحظة، وإذا انقلب الأهل عائدين يعاني اكتئاب ما بعد الزيارة، لكن ذلك يكون لبعض الوقت، يعود بعدها للانخراط في حياة السجن، يحكي ويلعب، ويحلم ويمارس حرفة الأمل.

(3) مع مرور الوقت يكتشف المحبوس أن بداخله طاقة جبارة، وقوة هائلة، لا يصدق أنها لديه، لولا تجربة السجن، تجعله يتأقلم على العيش في محبسه بصورةٍ لا يصدقها هو نفسه، إنه يأكل ويشرب، وينام على البرش أو فوق الأرض، ويبول في الدلو، في البدء يأنف من كل شيء، ومع مرور الوقت يجد في نفسه القدرة على فعل أي شيء، يبدأ في التعامل بيسرٍ ليس فقط مع البشر ولكن مع الحشرات، وبمنطقٍ مختلف.

رفاعة ليس أولِ من تعلم هذه الدروس، إذ هو ليس مجرد محام -كما راحوا يطلقون عليه في الحبوس المختلفة، بل وفي القبو أيضًا، على أي حال هو لم يمارس المهنة، ترك أمر ممارستها إلى حين، وسرقته الأيام فلم يأتِ ذلك الحين أبدًا، إنه قبل أي شيء ابن مناضل قديم، قضى شطرًا كبيرًا منَ حياته متنقلاً بين السجون والحبوس وأقبية أمن الدولة.

منذ نعومة أظافره اعتادت أذناه سماع عبارات ضخمة عن اتهام والده بالانضمام إلى تنظيمات شيوعية تهدف إلى قلب نظام الحكم، وتغيير الدستور بالقوة وتكدير الصفو العام، وتهديد الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي، في كل مرة يلقون فيها القبض على أبيه كانت تواجهه هذه الاتهامات.

تجربة الحبس ليست جديدة عليه، خبرها وهو طفل، ثم وهو صبي، وكذلك وهو شاب، وتعلم على مدار الأيام كيف يمكن تتبع آثار المحبوس حتى يصل إليه، حتى ولو خبؤوه في جُبٍّ سحيق، لكن شهدي لم يتعلم كيفية تعقب المحبوسين، كان صغيرًا، ولم يمارس فعل تتبع آثار أبيه أبدًا، وعلى مدى تجربة أبيه لم تعتد أمه الجري وراءه، تركت ذلك للرفاق، ولـ"رفاعة" لما شبَّ عن الطوق، إن فكرة أن يضيع في السراديب دون أن يتمكن أخوه من الوصول إليه تقتله، وتجعله يصب المزيد من جام الغضب على نفسه، وعلى كل شيء.

علمته تجربته درسًا رابعًا، هو الفارق بين أن تكون سجين رأي، وأن تكون جنائيًا، فبرغم التعذيب الذي لقيه أبوه كان يحظى بشيء من

التقدير، لدى سجّانيه، وحتى لدى من يقومون على تعذيبه، أما السجين الجنائي فهو محتقر، حشرة، لدى الضباط والأمناء وضباط الصف، وحتى جنود الدرجة الأولى وعساكر الأمن، لا يصير معتبرًا إلا بالمال، وهو في الحبوس التي تنقّل بينها لم يستطع أن يمتلك مليمًا واحدًا، كان طوال الوقت يأكل الخشاش أو ما يُلقى إليه، لم يدخن إلا ما يجودون به من أعقاب، عطنة وممضوغة، فأجبر نفسه على الكف عن التدخين، ولا ينام إلا بجوار الجردل، يبولون فيناله من بولهم نصيب.

مع مرور الأيام صار غاضبًا بشدة، ولا يعرف إلى من يوجه غضبه، ولا كيف يوجهه، ومع الصمت انبثقت في دماغه أفكار رائعة، عاش معها أسابيع طويلة، اهتدى إلى صورة عقلية بعثت الارتياح في نفسه، ورطبت أوصاله، وجعلته يتحمل آلام الدفن في السراديب، يغتنم لحظات السكون ويقوم بجمع أعدائه، يضعهم في بوتقة ضخمة، ويشعل النار فيهم، في كل مرة يضيف اسمًا جديدًا، ويشعر براحة مضافة والنار تمسك بأطرافه، وتصهر لحمه، ومع مرور الوقت صار يحتفظ بوجه غريمه حتى آخر لحظة، ويستمتع برؤية سطور الآلام الرهيبة فوق ملامحه قبل أن تفتك النيران بها.

ذات مرة تساءل، لماذا لا يُعد قائمته؟!!، وقف السؤال أمامه منتصبًا كرمح، يطلب إجابة، يشيح بوجهه فيلاحقه، ويلح عليه، وابتسم لنفسه، سيضع قائمته، ولكن على مهل، سينضجها فوق نار غضبه، وليالي صمته في الحبوس والسراديب، وإذا قُدِّرَ له الصعود إلى سطح الأرض من جديد سينفذها أيضًا على مهل.

منذ شرع في وضع قائمته صارت أيامه طريقًا طويلاً من التمعن، وتحول هو نفسه إلى إنسانٍ جديد، هادئ وصامت ومتدبر.

وجدها مع الوقت تطول إلى ما لا نهاية، واهتدى إلى ضرورة ترشيدها، فهي لا تبدأ بأولئك الذين تسببوا في هزيمة أبيه وإصابته بالسرطان، ولا تنتهي بـ"تايسون"، فتوة القبو الذي لا يكف عن شرع نصل مطواته وطيها بأصبع واحدة، في الصحو والنوم، الليل والنهار، الغضب والغبطة، والذي أصر في أول يوم جمعهما فيه القبو على قهره وإخضاعه لسلطته، ولما رآه يسجل فوق الجدار علامة لبدء إحصاء أيامه حتى لا يضيع وقع الزمن لديه أصر على محوها، إنه إذا لم يُرشِّد قائمته لن يكفيه عشرة أعمار فوق عمره لإنجازها.

يقلقه أنه مجرد تائه في سراديب مجهولة، فكيف يعرف مصيره؟!!، وكيف يضع قائمته النهائية ومحاولات أهله للاستدلال عليه باءت بالفشل؟، الأوقع هو تأجيل وضع القائمة النهائية حتى تجييء اللحظة المناسبة، لكن عقله الفائر كقدر من الزيت يغلي لم يكف أبدًا عن التفكير فيمن ستضمهم، وضبط نفسه ذات مرة يرتب أولويات أسماء بعينها.

على مدى أشهر طويلة، ممطوطة ومريرة، احتل اسم اللواء عاصم الإمام مفتش أمن الدولة رأس القائمة، يليه غريمه الذي استغل صلاته الجبارة ليزج به في الجحور العطنة، الحاج صفوت بيومي، فيما تراوحت أسماء كثيرة بين الحضور والغياب، ورأى أنه أقرب إلى الاحتفاظ باسم عبد العزيز القاياتي وكيل النيابة في مكانٍ مناسب منها، ويوم أن وضعه

الرائد مجدي الحسيني تحت قدميه وفعل به ما فعل أدرك أن اسمه سيكون له في قائمته شأن، وظل اسم تايسون يراوح مكانه، لا يتقدم ليسكن دفتي الأجندة، ولا يتأخر فيبتعد عنها.

إشكالية علاقته بـ"تايسون" جعلته يمعن النظر في تاريخها، فعند قدومه إلى القبو استقبله تايسون بجفاء، وحتى يخضعه مارس عليه القهر من أول لحظة.

خبرته بأحوال السراديب جعلته يتفادى هزيمة ساحقة، تايسون يضع سن المطواة في جانبه، تخترق هلاهيله، ويصرخ فيه:

– قول انا مرة ياله.

برودة النصل الذي يكاد يخترق جسده لا تمنعه من الابتسام، ولا النشوة التي تطل من عيني الفتوة، وتفضح رغبته في دفع المطواة لتمزق أحشاءه، شعور يعرفه جيدًا، فَلَكم رآه في عيون خصومه، ينطلق كشعاع من بؤبؤ العين، وفرحة تصيب صاحبها بجنون الروح الظافرة بغريمها.

كيف استطاع أن يمعن النظر في ملامح تايسون، ويظل محافظًا على رسم الابتسامة فوق وجهه؟!!، كيف واتته الجرأة ليوجه إليه حديثًا مهادنًا؟!!، مستسلمًا ومرضيًا لغروره؟!!، وفيه من طرف خفي قدر من الثقة بالنفس؟!!، هو نفسه تعجب مما فعل، أهي شخصيته؟!!، قراءاته وأحلامه المجهضة؟!!، شقاوته وآثامه، وجولاته في مراتع الفوضى والجريمة؟!!، أم هي خبرات الأشهر الطويلة بين جدران الحبوس في الأقسام التي تقاذفته سراديبها؟!!، في كل واحد منها تايسون، وكلهم يتشابهون، وحّدتهم

عوالم الجريمة، وخنقة السراديب، خباياها وظلمتها، ووحشية الأرواح المستكينة لغواياتها، وكان عليه أن يتعامل معهم، وأن يخرج من النزال مع كل منهم سالمًا، وانتهى إلى معرفة القانون الذي ينظم حركتها، لا ينازع الفتوات سطوتهم، لا يقاوم سيطرتهم، شيئًا فشيئًا يكسب ثقتهم، أو رضاءهم، فإما يأنسون إليه، أو يقبلون به كواحدٍ ممن يستأهلون شيئًا من الخصوصية.

النظرة المتحسبة، الواثقة المستسلمة، التي صوبها إلى عيني تايسون كان لها فعل السحر، جعلته يعد سن المطواة، وبعد برهة سمع صوت انغلاق النصل في تجويف قرن الغزال، وظل على حاله لحظات.

اجتهد ليبدو متمالكًا، وآخذًا وقته الكافي للعودة إلى السكينة، ولما استجابت أعضاؤه للفعل استدار، اتجه إلى ركن القبو ثم جلس القرفصاء.

اجتاحته رغبة في الموت، كان غاضبًا إلى حد البكاء، وقادرًا في الوقت نفسه على التعامل مع مطواة تايسون والفتك به، لكنه تماسك، لا يريد أن يتصرف بتهور، وفي نفس الوقت لا يقبل أن يتهموه بالجبن، هو الذي رد على جنون اللحظة التي تغري بالدماء بابتسامة باهرة، وكلمات خالية إلا من معنى نجح أن يملأ به كيان غريمه، الامتثالُ والاستسلام، وتسارعت أنفاسه فقاوم الرغبة في البكاء، وفي الفتك بخصمه، و لم يدرِ إلا ويد الفتوة تمتد بسيجارة ينساب من حبل دخانها عبق الحشيش.

لا يعرف لماذا نقلوه إلى هذا المكان بالذات، في الأيام الأولى لوجوده في القبو ظن أنه أمر عابر، وسرعان ما سيعود إلى حجز القسم الذي قدم

منه، يوم أو يومان على الأكثر، كان يتعامل مع الرفاق على هذا الأساس، ولما أخضعه تايسون لسلطته، وامتدت أيام مكوثه أدرك أنه كان يعرف أنهم جاؤوا به ليقيم، وليس ليعود من حيث أتى.

الأنفاس المزوجة بسحر المخدر أطلقت عقال لسان الفتوة، أفصح عن معلومات هامة، عن مجدي الحسيني رئيس المباحث، الطاووس ضئيل الحجم، علاقته به - كما قال- بدأت منذ كان ملازمًا أول يخطو أولى خطواته في المباحث، وكان هو مجرد حدث تتقاذفه بؤر الإجرام والإصلاحيات ودور الرعاية.

ربما يعرف تايسون الكثير من تفصيلات ما جرى له في مكتب رئيس المباحث، هكذا قال لنفسه، وربما يعرف الكثير عن سيرته في مختلف السراديب والحبوس التي تنقل بينها، لكنه بالتأكيد لا يعرف شيئًا عن أجندته، التي ينسجها على مهل، على مدى الشهور والأسابيع والأيام، الساعات والدقائق والثواني، التي تجري ببطء قاتل، ولا يدرك كم كان في حاجة إلى المعلومات التي أمده بها عن الضابط الذي صار يحتل في قائمته مكانة لائقة.

مع توالي الأيام أمعن في خَفْضَ جناحه لـ"تايسون"، اكتسب ثقته، ومع أنفاس الحشيش واصلا حديثهما، حديث رجلٍ إلى رجل، طاقة الحكي عند الفتوة انطلقت، حكى عن كل شيء: حياتهُ، أبيه وأمه وإخوته، فتياته ونسائه، وحتى نزوته اليتيمة مع تيمور، فهو الذي بدل اسمه من تامر إلى تيمور، وأضاف إليه صفة الناعم، حكايات استغرقت أوقاتًا طويلة، وليالٍ خانقة، أمضياها معًا.

اكتشف أن تايسون الذي تتنازعه الأهواء والأطماع هو في النهاية مجرد إنسان، تؤلمه ذكريات رحلته من طفلٍ فائر الجسد إلى مجرم تعبث الأقدار به، تشقيه فرص الحياة التي فرت من بين يديه، وتقتله حشرجات لما تزل تنطلق في أذنيه، في صحوه والمنام، حشرجات أمه وعشيقها.

اقتربا إلى حد أن المعلومات التي كان ينقلها الفتوة عنه لرئيس المباحث صارت تأخذ منحىً إيجابيًا، فـ"تايسون" هو عينُ رئيس المباحث في القبو، ينقل إليه دبة النملة، وحتى هذيان المحجوزين أثناء النوم، يعاونه تيمور الناعم، صبيه المأفون، وبطل النزوة المتفردة، الذي لا يكاد يخرج إلى حياة الحرية حتى يسارع بالعودة إلى الحبوس، ففيها ما لا يجده بيسر هناك.

هل يمد يده، ويضع اسم تايسون بين دفتي أجندته؟!!، أم يتركه سابحا في فراغ الشك وانعدام اليقين؟!!، سؤال وقف أمامه مليًا، وعندما جاءت اللحظة التي أمكنه فيها بمعاونة الرفاق السيطرة على الفتوة وصبيه كان أقرب ما يكون إلى إطلاق سراحه، وإغلاق دفتي الأجندة دونه.

الثلاثاء 25 يناير

الذين يرتادون الشوارع في صباح ذلك اليوم قالوا إن كل شيء كان يجري كالمعتاد، الناس ينحشرون في الحافلات المتهالكة، والميكروباصات الخطرة، وسيارات التاكسي القديمة التي تعمل بالنفر، يتدافعون فوق ما تبقى من الأرصفة، ويفيضون في أنهار الشوارع، برد يناير يستجمع قواته ليهاجم في الليل، والسحب الرمادية القليلة المنذرة بشيء من المطر تخيم في السماء كعادتها، تتشبع بالغبار والدخان والأنفاس اللاهثة لملايين البشر، ملايين وقفت منذ عقود أمام أسئلة ضخمة، و لم تعرف أبدًا إجاباتها.

شهدي سيد الأهل شقيق رفاعة الأصغر قال إن كل شيء في القاهرة المختنقة يلتزم مداره، يعرف أن بكالوريوس الهندسة الذي يجاهد للحصول عليه ليس إلا أملاً خادعًا، ودينًا يسدده لذكرى أبيه، وأن يومه الذي بدأ تقليديًا خانقًا هو المتمم لستة أشهر كاملة غابت فيها شمس أخيه الأكبر، رفاعة، ويعترف بأنه أعطى صوته لصالح النزول إلى الشارع؛ لإعلان الغضب في اليوم الذي يوافق عيد الشرطة انتقامًا مما فعلته الشرطة بأخيه، وبهم.

لقد خُطِفَ أخوه في وضح النهار، وحرق الخاطفون قلب أمه، الحاجة نوال السروي ملاك الرحمة القديم، وفي غيابه سقطت درية ابنة الأربعة عشر ربيعا في براثن الشيخ "أبو" داوود الجهيني إمام مسجد التوبة، لتكون وهي في عمر أحفاده واحدةً من حريمه، بل إنه هو نفسه في غياب أخيه الأكبر وُضِعَ في مواجهة حقائق دنيوية ثقيلة الوطء، وحاجات اضطرته للعمل حمّالاً في مستودع قريب لمواد البناء، ليتمكن من كسب عيشه هو

وأمه، وليواصل القدرة على رفض المعونات التي دأبت صفية صديقة أخيه على عرضها عليهم مع مطلع كل شهر.

نعم، كل شيء في القاهرة المختنقة بآلامها كان مع مطلع الصبح يلتزم مداره، ويلتزم أيضًا قدرًا لا بأس به من الحذر والتحسب والشك، لا أحد ممن سمعوا بأمر الدعوة إلى التظاهر أو حتى ممن صوتوا لصالحها كان على يقين من أن عشرات الآلاف الذين أعطوا أصواتهم بالموافقة على النزول إلى الشارع سينزلون بالفعل، وأنهم لن يكونوا – كما في كل مرة – بضع مئات يتجمعون هنا أو هناك، يهتفون قليلاً ثم ينصرفون، أو يواصلون الصمود حتى تداهمهم الشرطة، فتعمل فيهم هراواتها وقنابل دخانها، وخراطيم مياهها الجبارة.

في الصباح أيقظه ميسرة من النوم، صديقه اللدود أبلغه أن التجمع سيكون في ميدان عبده باشا، اختيار المكان تم بطريقة سرية، حتى لا تتنبه الشرطة، من هناك سيخترقون الشوارع في اتجاه ميدان العتبة، ومنه إلى ميدان التحرير.

نقله المترو إلى محطة غمرة، من هناك قطع الشوارع العرضية ليتمكن من الوصول إلى مكان التجمع، رأى وهو في الطريق عشرات الشبان يغذون السير في نفس الاتجاه، يرتدون ملابس تسمح بمرونة الحركة، وينتعلون أحذية خفيفة تساعد في الكر والفر.

شيء ما يجعله يغير نظرته، لو أن رفاعة ينظر إليه من فرجات أبواب غيابه لأقره على ما يفعل، ولكفكف دمعه الذي سال فوق وجنتيه عندما

وقفت الحاجة نوال أمامه، تستعطفه حتى لا يخرج، فهي لا تتحمَّل فقدان ابنها الثاني، يكفيها فقدان الأكبر.

تركها تجهش في البكاء، تمنى لو يستطيع أن يمسح على رأسها المضطرب، وعلى صدرها الذي يحمل قلبًا محترقًا حتى أدق شرايينه، وعلى جفنيها المتورمين بسهد الليالي الطويلة التي قضتها في انتظار الغائب، أو خبر يدل عليه، تمنى لو يستطيع القبض على يديها المرتعشتين، ليبث فيهما الثبات الذي كان لهما ذات يوم، وتمنى لو يغمض عينيه ويمسح من أحداث الدنيا السنوات القليلة التي مضت، والتي تغيرت فيها حياتهم جذريًا، فيها رحل أبوه مريضًا ومهزومًا، واضطر رفاعة لأن يمارس أعمالاً خطرة، ليحتفظ لهم بأسباب معقولة للعيش، وكان من نتيجة ذلك أن غابت شمسه في سراديب لم يستطع أن يهتدي إليها أبدًا، ثم وضعت طفلتهم الأثيرة درية وجهها خلف نقاب أسود، انتقامًا من الحياة والأحياء، تمنى لو أنه بعد أن ترك أمه وهي تجهش في البكاء عاد إلى حضنها ليرد لهفتها، حتى ولو كان الثمن هو ألا ينزل إلى الشارع في اليوم الذي اختاروه ليعلنوا أنهم ضجوا، ولم يعد في قوس صبرهم منزع.

نهنهات أمه تملأ أذنيه، فيما يواصل النظر في أرجاء الميدان بحثًا عن أحد يعرفه، لا أحد هناك، قرر أن يقف نصف ساعة، وإذا لم يأت أحد ينقلب عائدًا إلى البيت، وإن كان يفضل أن يقصد إلى ميدان التحرير؛ لينضم إلى من قد يوجدون هناك.

ليس ثمة أثر للشرطة، الناس يروحون ويجيؤون في كسلهم المعتاد،

المحلات الفقيرة تفتح أبوابها لزبائن لا يأتون، والشمس الشتوية تطل من بين السحب، تتلصص على الميدان وتمارس لعبة الاختباء، وهناك في الطرف البعيد من ناحية الشارع الموصل للعتبة يقف بضعة أفراد في شبه دائرة.

في دقائق انبث العشرات في الميدان، سرعان ما صاروا مئات، تقاربوا والتحموا، وهتف أحدهم:

– عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

الناس ينظرون إليه كأنه قادم من كوكب بعيد، وأعاد النداء، وانطلقت الحناجر هذه المرة تهتف من ورائه، وتنبه الناس في الميدان، كأنهم لم يلحظوا تزايد الأعداد في ميدانهم الذي خبروه عشرات السنين، ولا اكتظاظه بالمئات الذين صاروا آلافًا في نصف ساعة لا تزيد، وانطلقت الهتافات من كل صوب:

– يا أهالينا انضموا لينا.

الناس خرجوا من المحلات، وأطلوا من الشرفات، هبطوا من الحافلات المكدسة، وقفوا برهة لا يصدقون أعينهم ثم تحركوا صوب الجموع، في دقائق انخرطوا في حركتها وصاروا في قلبها، وتأتي اللحظة الحرجة، اللحظة التي لا بد فيها من التحرك، واستدار أحدهم وأشار في اتجاه العتبة، وهتف:

– للتحرير للتحرير

يد واحدة للتغيير

الفساد الفساد

حسني مبارك والولاد.

وجاوبته الجموع المندهشة من كثرتها وحسن تنظيمها، وقبل أن تنخرط الحركة في الاتجاه المقصود، وتدب الأقدام بانتظام صعد أحدهم على الأكتاف يهتف:

- آااااااااااه.

و لم تتمالك الجموع فهتفت من ورائه:

- آااااااااااه

- يا بلدنا

يا وسية،

يا تكية،

سرقوكِ الحرامية.

ورأى شهدي بأم عينيه الدموع تجري في عيون الناس، وهم يرددون الآهة العجيبة التي فجرتها.

ميسرة زحف للحاق به، وأصابته الدهشة، فها هي صفية صديقة رفاعة تتقدم الجموع هي أيضًا، معها أعضاء فرقة الفجر، الفرقة التي عن طريقها عرفت أخاه، وقت أن كان طالبًا في كلية الحقوق بجامعة عين شمس.

طوال الطريق لم تظهر قوات الأمن، والقوات القليلة التي تتمركز في محيط مديرية الأمن ومحكمة مصر في باب الخلق لا تقدر على القدوم إليهم وترك المديرية والمحكمة بغير حراسة، ثم إنهم تفادوا الاقتراب من المديرية، وقصدوا ميدان العتبة من أقصر طريق، وقبل أن تصل الجموع إلى الميدان لاحت قوات الأمن، بتشكيلاتها، بدروعها وهراواتها، ومن الخلف بدت المدرعات متأهبة للانقضاض، والعربات المزودة بخراطيم المياه، والمزودة بمزاغل متعددة لإطلاق قنابل الدخان، وفتحات علوية يخرج منها أشخاص يطلقون الأعيرة النارية.

ويتطور الهتاف:

- شرطة وأمن دولة ليه

هيَّ وسية ولا إيه؟!!

صاروا محاصرين بقوات الأمن المركزي من الأمام ومن الخلف، وقبل أن تفكر الشرطة في الهجوم صدرت الأوامر بالتفرق، والاجتهاد في الوصول إلى ميدان التحرير من أي طريق، ودخل شهدي شارعًا جانبيًا، تبعته صفية وأفراد الفرقة، تنتابه وهو يشق طريقه عبر شوارع ودروب لم تطأها قدماه من قبل حيرة تشبه تلك التي أخذته في سراديبها طوال ستة أشهر من البحث عن أخيه، وما من مجيب.

ستة أشهر لم يهتدِ فيها إلا إلى شيء واحد، أبلغه أحد الأصدقاء أن مخبرًا في مباحث أمن الدولة هو من ألقى القبض عليه، وكان ذلك أمام أعين كثيرين، وأنه يعرف الرجل جيدًا، فهو يتردد على المنطقة لمتابعة بعض أفراد

الجماعات الدينية، وكذلك بعض نشطاء الأقباط الذين يقطنون في الجوار، قال إن المخبر التقط رفاعة وهو في طريقه إلى ثلاجة البقالة، ولوهلة فكر رفاعة في المقاومة، هكذا رجح الصديق، لكن أربعة رجال لا يعرف من أين قدموا أحاطوا به، وحملوه حملاً ومضوا به، أبلغه أنه تعقبهم حتى أول الشارع فلم يجدهم هناك، وشعر كما لو أن سيارة انطلقت بهم دون إبطاء.

ليالي بطولها قضاها يسأل هنا ويستفسر هناك، مكاتب انتظر فيها ساعات وساعات، وما من مجيب، وأخيرًا لجأ إلى الشكاية في مكتب النائب العام، وفي الجمعيات الحقوقية المختلفة، وأوكل إلى محامين مهمة المساعدة في البحث، فقدموا الطلبات تلو الطلبات، والشكاوى تلو الشكاوى، وما من مجيب، كل هذا وأمه تسوء حالتها، وتنهار مقاومتها، ويستعصي عليها النوم، ولما فاجأتهم درية بنقابها وهي عائدة من المدرسة ظن أنها حالة متعلقة بالحزن، سرعان ما تنقشع عندما يهتدون إلى رفاعة، لكن الشيخ "أبو داوود" فاجأهم بالزيارة، طلب يد ابنتهم، الطفلة التي لم تتعلم بعد كيف تدبر أمر شئونها الخاصة، وكانت الصاعقة عندما دخلت عليهم طالبة السنة الثالثة الإعدادية، وأعلنت بلا مواربة أنها هي من طلبت من الشيخ القدوم، وأنهما إذا لم يوافقا على زواجها منه ستبحث عن ولي يزوجها.

كل ما سبق يجري أمام عينيه كأنه يحدث من جديد، يراه بكل تفصيلاته، وهو يقطع الشوارع المتشابكة بحثًا عن طريقٍ يوصله إلى أقرب مكان من ميدان التحرير، وأخيرًا وجد نفسه عند مكانٍ يعرفه، يمكنه أن

ينحرف يسارًا ليدخل الحارات الخلفية لمنطقة عابدين القديمة، ويلتف ليصل إلى ميدان باب اللوق، ومنه إلى الميدان الكبير، وعند مشارف ميدان باب اللوق وجد تجمعًا عاتيًا من قوات الأمن، متأهبًا للاشتباك مع من يحاولون النفاذ إلى الميدان الكبير.

لم يستطيعوا النفاذ إلى ميدان التحرير إلا بعد العصر، فوق أنهار من الدم جرت في ميدان باب اللوق وشارع البستان، والشوارع والأزقة الجانبية المتشابكة، شهداء بالعشرات دهستهم سيارات الأمن المركزي المصفحة، والرصاص المطاطي الذي بمرور الوقت صار ذخيرة حية، وفقد المئات عيونهم من جراء زخات الخرطوش التي انطلقت من أماكن مجهولة.

قرب الميدان شعر ببعض البرودة في جانبه الأيمن، أرجعها إلى إصابته بخراطيم الماء التي قاومتهم، مع الوقت شعر ببعض الألم، واكتشفت صافي أن البلوفر الذي يرتديه مشبع بالدم، وكشفت عن جرحه الذي كان يواصل النزف من ثقب صغير في جانبه الأيمن، ثقب لا يعرف سببه، ولا إلى أين يؤدى، وما إذا كان الشيء الغامض الذي أحدثه قد استقر فيه أم لم يستقر؟، وما الذي فعله وهو يقصد إلى مستقره؟!!

إن خروج الدم من الثقب ينبئ عن شيء خطير يحدث في الداخل، أجلسته صفية بالقرب من أحد محلات الأنتيكات والهدايا الأثرية المقلدة ريثما تبحث عن أحد يسعفه، الميدان الذي يبتلع في جوفه موجات البشر، القادمين من كل اتجاه يعجُّ بالمصابين، عشرات القتلى ينطرحون بجوار الجدران القريبة، وسيارات الإسعاف ترفض القدوم، فشارع القصر العيني وطريق الكورنيش المؤدي إلى المستشفى تحتله قوات غفيرة من الأمن

المركزي، وتشكيلات قتالية غريبة، وقوات من جنود الأمن يرتدون الملابس المدنية، ينقضون على أطراف التجمعات ويقتنصون المتظاهرين، وفي لمح البصر يكسرون أطرافهم بقضبانهم الحديدية السميكة، يضربون بها السواعد وقصب الأرجل، وقد يوجهونها إلى الرؤوس مباشرة فيسقط المضروب مضرجًا في دمائه.

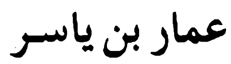
من حول شهدي كان العشرات من المصابين يرقدون، ويعانون في صمت، جميعهم يخشى التوجه إلى المستشفى، لأنهم إن فعلوا سيقعون في قبضة الشرطة، وقد يختفون، أو يقتلون، فالذي رآه شهدي وخبرته صفية طوال اليوم يقطع بأن الأمر بالقتل صدر، دهسًا وهرسًا، أو بالأعيرة النارية، أو تحت ضربات القضبان الحديدية، واقتربت صفية متأسفة، لم تهتدِ إلى أحدٍ يسعفه، قالت في حرج:

– أنا شايفة انهم مش هايسيبونا نبات هنا في الميدان، هايطلعونا هايطلعونا.

وتلفتت يمنة ويسرة، ثم قالت:

– يالاّ أروحك، ونشوف دكتور يكشف عليك.

النزيف قل كثيرًا عن ذي قبل، لكن الألم لا ينفك يزداد بأكثر مما يطيق، ومع ضربات الألم ينصرف بصحبتها والليل مشرف على انتهاء ثلثه الأول، وما إن وصلا إلى ميدان باب اللوق حتى سمعا صوت إطلاق قنابل الغاز، وطلقات الرش الحية، والتفتا، الميدان كان يختفي خلف دخان كثيف، وصلت إلى أنفيهما رائحته الحارقة.


عمار بن ياسر

شاب في نهاية عشرينات العمر، يكبر رفاعة بسنة أو اثنتين، أبوه الشيخ ياسر النجدي إمام مسجد الغفران في العمرانية، لذا فهو كما أثبتوه في سجلات الحكومة عمار بن ياسر، على اسم الصحابي ذائع الصيت، أما أمه فهي وردة ابنة الشيخ السعدني حجاب أشهر محفظي القرآن في بر الجيزة، لا أحد في العمرانية كلها أو في أم المصريين وبين السرايات وعزبة دلاور وعزبة شنودة يجهل حكاية الشيخ ياسر النجدي مع زوجته وردة السعدني وولدهما عمار.

فالشيخ الذي يحتفظ بأربع زوجات له مع وردة التي صنعت شهرته لما أمدته بكتب أبيها بعد وفاته حكاية لا تُنسى، بطلها ابنهما عمار الذي كان مجرد طفل لا يعرف عن شرور الدنيا الشيء الكثير.

كانت الثانية في ترتيب زوجاته، وفي صباح أحد الأيام خرج الشيخ عليهم بحكاية عجيبة، قال إنه سمع في منامه صوتًا يناديه، وأصاخ السمع فأدرك أنه صوت فتاة صغيرة، ورأى غديرًا ينساب بين أشجار كثيفة، ولما نزل على ركبتيه وانحنى لِينْهلَ منه رأى في صفحة الماء وجهها، وجدائل شعرها الذي يحيط به كأنه الليل، وعندما راودته فكرة الفرار منها غمره نور أغشى بصره، وسمع صوتًا يأمره بالتأدب، وبالتزام الرؤيا الشرعية، إذ هو في حضرة النبي.

لم تكن الفتاة إلا طفلة لم تشب بعد عن الطوق، أبوها حوذي عجوز يسكن مع زوجته وأبنائه في حجرة صغيرة مجاورة، وكانت حتى قبل أيام تلعب مع أبنائه، لكنه لم يكن ليخالف الرؤيا الشرعية، و لم يكن ليخالف

الأوامر النبوية، وحتى لا يتهم بالانحياز إلى واحدة من نسائه دون غيرها قرر أن يقترع على اسم من يطلقها، فوجود أربعتهن في عصمته يمنعه من تحقيق حلمه.

كتب أسماءهن كلاً في وُريقة، وطبق الوريقات مرات ومرات حتى صارت متماثلة، ثم خلطها بحيث لا يقدر أحد على تمييز إحداها عن الأخرى، وجاء بابنه عمار وكان طفلاً في الرابعة، وطلب منه سحب واحدة منها، وسحبت يد الطفل وريقة أمه، وردة السعدني حجاب، وهكذا أوقع الشيخ عليها الطلاق.

لم يطردها من الدار، تركها تعيش في حجرتها مع أبنائها، لكنها لم تطق الحياة في بيت المجانين -كما أسمت دار طليقها-، البيت الذي لا يربطه بالعالم خارجه إلا باب لا يخرج منه ولا يدخل إلا الشيخ والأبناء الذكور، وفي أروقة البيت تتبارى نساؤه في إرضائه، وتتقاتلن عليه، ضاقت ببيت السنة المشرفة والمسلمين الأوائل -كما يطلق الشيخ عليه-، وحتى تتوقَّى غمز الضرائر ولمزهنّ فتحت الباب الذي لم يُفتح لها من قبل إلا مرة واحدة، وهي تلج منه ليلة عرسها، فتحته وكان الشيخ غائبًا، وخرجت بأبنائها الخمسة إلى قلعة الكبش، وهناك عرف عمار معنى للحياة جديدًا.

في حجرة صغيرة، خانقة ومتهدمة، ودورة مياه خربة بلا باب يرتادها عشرات البشر، داخل حارة متربة مليئة بالقوارض والحشرات والذباب والبراز ورائحة الصنان في كل ركن عاشت وردة بأبنائها، عمار أكبرهم،

ومنذ اللحظة التي خرجت فيها لم ير عمار أباه، فلا رق قلب الشيخ للمرأة التي تزوجها لسنوات، وأنجبت له البنين والبنات، وسلمته كنوز أبيها من كتب السلف والتراث، ولا فكر مرة في رؤية أبنائه منها، ولا أرسل إليهم شيئًا من المال يستعينون به على حياة الضيم التي يحيونها، طردها من جنته للأبد، ذلك أنها - كما قال - قبّحت فعله الحلال، وسخرت من حلمه النبوى.

عملت خادمة في البيوت، في مدينة نصر ومصر الجديدة والمعادي، وأحيانًا في المدن الجديدة، الرحاب والشروق والقاهرة الجديدة، شهرتها كسيدة قوية البنيان ساعدتها على توفير فرص العمل، فكانت تعمل طوال أيام الأسبوع عدا الجمعة، وتأتي في نهاية كل يوم محملة ببواقي طعام ينكب عليه أطفالها، وملابس تضيقها على مقاساتهم فيجرون بها في الحارة وهيئاتهم تبعث على الضحك، وقبل أن يبلغ عمار السادسة أرسلته ليعمل في ورشة حدادة.

كل من رأى عمار وهو طفل أعطاه عمرًا أكبر من عمره، ومع الوقت اكتشف الطفل أنه قادر على هزيمة من يتحدونه، فرادى وجماعات، يقبض على رقابهم ويطرحهم أرضًا، أو يوجه إلى وجوههم وبطونهم لكمات تسقطهم وهم يتلوون من الألم، وفي إحدى المرات سقط أحدهم ولم ينهض، أصابته الضربة في فم معدته فقضت عليه، وقتها كان مجرد صبي في الحادية عشرة، ولما قبضوا عليه وأودعوه الإصلاحية ذهبت أمه إلى الشيخ، لكنه أَصَمَّ أذنيه، فالمرأة التي طُرِدَت لا ينبغي أن تقترب حتى من تخوم جنته، لا هي ولا أحد من أبنائها.

حياة صاخبة ملؤها الخوف والعنف والإثارة عاشها عمار، في إحدى مراحلها حاز لقب الملاكم العالمي تايسون، لما ذاعت شهرته في جنبات الإصلاحيات وأفنية الملاجئ كمقاتل لا يقدر على هزيمته أحد، ولما شب قليلاً عرفوه كحارس للاجتماعات والمؤتمرات التي يُراد إبعاد المتطفلين عنها، أو كهادم لها إذا كان المراد هو إفشالها، وراجت بضاعته، عرفه كل السياسيين ورجال الأعمال، والضباط المسئولين عن الانتخابات، وصاروا يستعملونه في مواسم الانتخابات، لحراسة المواكب أو فضها، وإفشال التصويت أو حمايته، وفي المقابل يحصل على ما يكفيه من المال للإنفاق على ملذاته.

تلك كانت الفترة التي تعرف فيها على الملازم أول مجدي الحسيني، وكان يخطو أولى خطواته في سلك المباحث، كان موكلاً باستعماله، يدل الناس عليه ليستأجروه في مواسم الانتخابات، وقد يستأجره لحساب الشرطة نفسها، وإلى جانب هذا كان يستعين به في مهام شديدة السرية للشرطة نفسها.

مع ذيوع شهرته كشخص خطر وبلطجي لا يُقاوم يقبض أجرًا لا بأس به عرفت أمه معنى وجود القرش في يدها، انتقلت بأفراخها إلى حجرة نظيفة في شقة مشتركة ذات حمام حقيقي، اشترت سريرًا كبيرًا يتسع للجميع وصوانًا تضع فيه ملابسهم، ومقاعد يجلسون عليها بدلاً من الحصيرة البلاستيكية المهترئة، وكليمًا كبيرًا تفرشه على الأرض ليقيهم غائلة البرد، وتليفزيونًا ملونًا باتساع عشرين بوصة، ثم تحصلت على رسيفر وصحن هوائي لاقط ووصلة مسروقة لباقة الإيه آر تي.

لكنها أمام عرض عمار بالكف عن الخدمة في البيوت أصمَّتْ أذنيها، حجتها أن عمله ليس مأمونًا، وليست له صفة الدوام، فقد يلقون القبض عليه في أية لحظة، ولأي سبب، وهي إذا هجرت عملها ستفقد زبائنها، ولن تستطيع تعويضهم إذا احتاجت إلى العمل من جديد.

أبناء الحرام خاضوا في سيرتها، قالوا إنها ترفض عرض ابنها لعلَّة دفينة، إذ هي لو فعلت لوضعت نفسها مختارة تحت عينيه، يلاحظها أينما تتحرك، لذا فهي تتعلل بالعمل لتبرر غيابها، خروجها ودخولها، ومن ثم تقابل من تعاشرهم من وراء ظهره.

لما عرفت الأقاويل طريقها إلى أذني عمار اضطرب بشدة، وقرر أن يراقب أمه، وجدها تخرج من الدار مع شروق الشمس وتتجه في كل مرة إلى مكان مختلف، في العمارات التي تدخلها سأل البوابين والحراس، أخبروه أنها تخدم لدى أناس يعرفونهم بالاسم، أسر مكتملة، زوج وزوجة وأبناء وخدم وحشم.

وحتى يتيقن من مسلكها انقطع عن مراقبتها أيامًا، ثم عاد ليفعل، ووجدها تذهب في نفس المواعيد إلى نفس الأماكن، ويوم أن قرر الكف عن مراقبتها أفلتت كلمة من فم حارس إحدى العمارات في مدينة نصر جعلته يمعن النظر، فما يقوله الحارس يعني أن صاحب الشقة التي تعمل فيها رجل أعزب.

وكان قد لاحظ مؤخرًا وجود مفتاحين جديدين مع مفاتيحها، يعرف مفاتيحها واحدًا واحدًا، مفتاح قفل باب الحجرة، ومفتاح كالون باب

الشقة، وثالث لقفل الحقيبة التي تحتفظ فيها ببعض حاجياتها، ورابع لقفل مدفن أبيها، ولقد اختلسها وصنع نسخًا منها لنفسه، عن طريقها يعرف كل صغيرة وكبيرة، حتى ما تحرص أمه على إخفائه، أما أن يكون هناك خامس وسادس، فهما إذن وافدان، لم يرهما من قبل، وكعادته أخذهما وصنع من كلٍ منهما نسخة، ثم ردهما.

أرَّقت كلمات الحارس ليله، خشي الاستمرار في مراقبة أمه فَهَمَّ بمفاتحتها بشكوكه، لكنه في كل مرة كان يحجم، وتتوقف الأحرف عند طرف لسانه، إلى أن كان يوم خرجت فيه مبكرة عن موعدها، استيقظت مع صلاة الفجر وتوجهت إلى الحمام، غابت كثيرًا قبل أن تعود ورائحة صابون الاستحمام المعطر تفوح منها، ثم ارتدت ملابسها وغادرت.

اليوم كان يوافق موعد عملها الأسبوعي في شقة الرجل الأعزب، من المعلومات التي جمعها عرف أنه في حوالي الخمسين، مطلق، وله أبناء يعيشون في كنف أمهم في مكانٍ ما، ضابط شرطة سابق، كان حتى قبل أشهر يخرج إلى عمله بصفةٍ يومية في مديرية أمن القاهرة، ولما ترقى إلى رتبة عميد خرج على المعاش.

اطمأن إلى ابتعادها فقام وأطل من شق النافذة، كانت هناك عند نهاية الحارة، تغذ السير وفيها شيء مختلف، كأنها عادت صبية، أو أنها تزينت أكثر من عادتها، فإذا كان المفتاحان الجديدان لشقة الرجل الأعزب وبوابة العمارة التي يسكن فيها كما يخمن فبإمكانه إذن أن يفاجئهما، ويرى ما يكون هناك، وكان دمه لا يكف عن الغليان كلما تصورهما معًا، وحدهما ودون رقيب.

العمارة تبدو من بعيد، تلون الشمس الوليدة طوابقها العلوية، ويقترب فيرى آثار النوم تخيم عليها، بوابة المدخل الحديدية مغلقة، يحاول أن يفتحها بواحدٍ من المفتاحين، ويقع قلبه في قدميه، فالمفتاح ينفذ في الكالون بكامل هيئته، ويفتح البوابة في يسر.

لا أثر للبواب، ولا للحارس الليلي الذي ربما يكون قد مضى إلى حال سبيله، فدوريته تنتهي مع مطلع الصبح. خطا بهدوء في اتجاه المصعد، ومد يده فانفتح الباب دون ضجة، وكذلك انغلق، وفي الصعود لم يصدر عنه صوت، فقط، احتكاكات مكتومة واكبت صعوده، موسيقى خشنة تجلل إيقاعات قلبه المضطرب. في الطابق المطلوب توقف المصعد، وأعلنت عن الوصول إليه دقات مزعجة.

أنفاسه تتلاحق، تعلو فوق أفكاره الرافضة، أخرج المطواة من جيبه وفتحها، واقشعرَّ بدنه، ضوء السلم الشحيح ينعكس فوق النصل المسنون، باليد الأخرى مد المفتاح في الكالون، وأداره، وانفتح الباب في يسر، دفعه قليلاً فجاءه من الداخل صمت ونعاس، ودفء أنفاس محبوسة طيلة الليل، وعتمة لم تغادر... ورائحة صابون أمه.

في خطوتين صار داخل الشقة، وراحت يده مع الباب فأعادته إلى وضع الانغلاق دون ضجة، النعاس ينساب في الاستقبال البسيط الذي تتناثر فيه بعض المنقولات، وعلى اليمين قادته طرقة ضيقة إلى داخل الشقة، بإمكانه إن هو أحسن التصرف أن يهتدى إلى غرفة النوم، فإذا وجد الرجل نائمًا وحده سيتركه ويمضي، حتى لو كانت أمه تنام في حجرة أخرى، أما إذا وجدها في سريره فسيقتلهما معًا، و لم يهتد إلى حلٍ آخر.

الدماء تنفجر في عقله، وقلبه يزداد اضطرابًا، لا ينكر أنه خائف، خائف بشدة، لكنَّ نارًا مضطرمة تلهبه، وقف أمام حجرة تقع على يمين طرقة التوزيع الضيقة، وبعد تردد أدار الأكرة، ودارت معه، دفع الباب برفق ومد رأسه، صدمته الوهلة الأولى، عاد برأسه للخلف ثم دفعها من جديد، أمه بقميص نوم أسود قصير تنام في حضن رجلٍ ذي شعر رمادي مجعد، يتقابلان، رجلهَا تعتليه، تكشف عن فخذ أبيضَ ممتلئ، فيما يد الرجل تلتف حول خصرها، وكانا مستغرقين في النوم.

وقف يتأملهما، من فرط الغضب كان يرتجفٍ، ومن فرط الخوف، لكن عقله يواصل العمل، فهو إن بادر بقتلها سيُمكّن الرجل من الاستيقاظ، وقد يكون في متناوله سلاح ناري فيطلقه عليه، أو يفر منه، أما إذا بدأ بقتله فسيسهل عليه التعامل معها، واقترب من الرجل، ورفع يده بالمطواة، وفجأة استيقظ الرجل، ورأى المطواة مصوبة إليه، لم يسعفه الوقت ليذهب بعيدًا فمد ذراعه يتّقي الضربة، فشقته المطواة، وانفجر شلال دم، وارتفعت اليد من جديد، هوت إلى الصدر هذه المرة، وسمع بأذنيه صوت الهواء يخرج من الجرح.

أمه انبعثت صارخة، هبت هاربة في اتجاه الباب، لكنه لحق بها، عند الباب بالضبط أمسكها، قبل أن تتمكن من فتحه، ظهرها كان له، وجرت يده بالمطواة على زورها فذبحتها، ذبحًا غائرًا، من الوريد إلى الوريد، وانفجر الدم، وسقطت بجوار الباب وصوت حشرجاتها يصب في بركة الدم الآخذة في الاتساع.

الرجل لا يزال يتخبط في الجدران، ناثرًا دمه في كل مكان، يبحث عن طريق للفرار، وهجم عليه عمار، وبضربة واحدة استقرت في صدره من جديد أسقطه في موضعه، لم تصدر عنه حتى آهة ألم، فقط تعبير غريب كأنه الدهشة، وبهاتة انسحبت فوق الملامح المتقلصة.

في قلب الحجرة التي تختنق برائحة الدم وقف مسلوبًا، عند الباب ترقد أمه سابحة في بركة دمها، وبين التسريحة والشوفونيرة يتكوم الرجل ذو الشعر الرمادى، عاريًا تمامًا، فوق بحيرة تكونت على مهلٍ، المطواة في يده تقطر دمًا، وقدماه لا تقويان على حمله، كان ذاهلاً إلى حدٍ لا يمكنه معه التفكير في المغادرة، ولو إلى خارج الغرفة، وهناك صوت بعيد، قادم من خارج الشقة، كأنه يسأل، أو كأنه يجيب، لا يعرف، ومشاجرات قطط في مكانٍ ما، تعبث في صناديق القمامة التي أخرجتها الشقق في الليل حتى لا تتعفن في الداخل.

بالكاد خرج إلى الطرقة، تخيل أن القتيلين سيفاجئانه ويخرجان من الحجرة، أغلق الباب بمفتاح وجده في الكالون، وسارع بدخول الحمام، خلف الباب عثر على ملابسها، نفس الملابس التي خرجت بها بعد الفجر، سروال قطنى أخضر ابيضَّ حجره واهترأ، نزع الملابس وأخفاها في صندوق جانبي، كأنها ستخرج منها وتفاجئه، ونظر في المرآة فرأى انعكاس الطرقة من خلفه، توهم قدوم أحدهما فالتفت إلى الخلف، وأغلق باب الحمام بترباسه الداخلي، نحى عنه ملابسه وألقى بها في البانيو، وفتح صنبور الخلاط، وجرى الماء حاملاً آثار الدم إلى البالوعة. وعصر الملابس مرة بعد مرة، حتى انقطع نزول الدم منها.

كم من الوقت مكثه هناك، في شقة الرجل الذي دنس شرفه، هو حتى اليوم لا يعرف، كل ما يذكره أنه ارتدى ملابسه المبتلة، وشعر ببرودة قاتلة تجمد جسده، لكن ذلك لم يمنعه من النظر في كل شيء، والمرور على كل شيء لمحو آثاره، وعندما اكتمل مشوار بحثه وضع أذنه على الباب، حتى إذا ما تيقن من عدم وجود أحد خرج، واتجه إلى المصعد مباشرة، وما إن انغلق الباب حتى اتجه فكره إلى الصعود إلى سطح العمارة، فصوت البواب يأتي من المدخل، يتحدث إلى أحدهم، وقبل أن تكتمل فكرته وقف المصعد، وخرج ليجد نفسه فوق السطح.

سيظل شاكرًا أنه لم يرَ ملامح وجه أمه وهو يذبحها، ففي نومه لا يسمع إلا حشرجاتها، تأتيه متقلصة ومنتفضة، لكنها لا تحرمه النوم، وشاكرًا أيضًا تلك القفزة الهائلة التي تمكن بها من الوصول إلى سطح العمارة الخلفية، والطوابق العشرة التي مر بها وهو ينحدر فوق السلم، ووجد نفسه في الشارع.

مع الأيام اكتشف أن هذه العملية أماتت في داخله كثيرًا من الأحاسيس، أقلها أنه لم يعد يأبه لأي إنسان، حتى لنفسه، و لم يعد يشعر بالألم، فبإمكانه طوال الوقت أن يمد يده ويقطع بمطواته المسنونة أي جزء من جسده هو، فما البال لو كان هذا الجزء من جسد إنسانٍ آخر.

الأربعاء 26 يناير

الوقت يمر على الحاجة نوال بأسوأ مما كان يمر من قبل، حتى في أحلك الظروف، نظرت حولها بعد خروج شهدي فوجدت البيت وقد خلا من الجميع، رفاعة الغائب بلا أمل في العودة، ودرية المختبئة خلف أستار لا نهائية في حريم رجلٍ متجهم، لا تزورهم ولا تتواصل معهم بأي طريق، فهم على ما يقول زوجها من أهل النار، وحتى عندما يسمح لها بالتحدث إليهم في التليفون يكون حديثها على مرأى ومسمع منه، حتى لا يتطرق حديثها إلى شيء لا يريدها أن تتحدث عنه، فقط الأمور العامة والأسئلة التقليدية، عن الصحة والحال، وها هو شهدي يرفض أن يبقى معها، وخرج ليلقى مصيره هو الآخر.

بقيت في انتظار عودته حتى انتصف الليل، ظلت تتابعه بالاتصال بهاتفه المحمول حتى انقطع الاتصال به، على أعتاب الليل كانت وحيدة تمامًا، بكت بدموع حارقة، ظلت تغالب وحدتها ودموعها حتى انتصف الليل، تنتصر مرة وتنهزم مرات، إلى أن أعلنت الساعة ميلاد يوم جديد، يوم لم يعد فيه في دارها أحد ممن تحب، وشعرت بالنار تخرج من رأسها، كأنها تنور، الأسى يُغلفها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

من قديم تعلمت كيف تستنبت الأمل من صحاري اليأس، علمها حبيبها صابر سيد الأهل، كانوا يفاجؤونهم في قلب الليل ويأخذونه ويمضون، يغيبونه في غياهبهم، وكانت تمارس لعبة الأمل، تمامًا كما علمها، لعبة طبيعة الإنسان، وهي الليلة تمارس لعبتها، لعبة الأمل، كما ظلت تمارسها ستة أشهر من وقت أن غاب رفاعة، وستظل تمارسها إلى آخر يوم.

لم تلتقِ مرة واحدة بالفتاة التي يقول شهدي إنها صديقة رفاعة، فقط تصلهما منها مبالغ شهرية، لكنهما يردانها، ويتعجبان من إصرارها على إعادة العرض مع مطلع كل شهر، ليتها أخذت رقم هاتفها، إذن لاتصلت بها لتساعدها في عبور محنتها الجديدة، محنة الانقطاع الذي يأكل ما تبقى في نفسها من دخان لعبة الأمل.

لا تعرف كيف ومتى سقطت في نوم أشبه ببئرٍ قديم، لكنها وهي تعبر قسوة النوم رأت رفاعة، تقسم بأنها سمعَت صوتَه، كأنه صادر منها هي، وشمت رائحته التي اعتادت أن تشمها، في ملابسه وسرير نومه، خليط من رائحة كولونيا الليمون التي كان أبوه يحبها وعرق رجالي، ورأت عينيه ترمشان على طريقته عندما يخفي شيئًا، ما الذي قاله لها؟!!، وما الذي يخفيه عنها؟!!، لم تعثر على إجابة لأي سؤال يطرح نفسه على ساحة وحدتها وانقطاعها، إلى أن رأته قادمًا عند بداية الشارع الصغير.

معه شخص ما، وعندما اقترب رأتها، فتاة كانت تمسك به، كأنه يتساند عليها، ولما اقتربا انسدلت أيديهما وصار كل منهما بمفرده، لن يستطيعا أن يراهنا أبدًا على ضعف بصرها، فبصيرتها تكمل ما يغمض عليها، هي تثق فيها إلى أقصى حد، فلطالما أمدتها بتفصيلات تعجز عيناها عن الإحاطة بها، الآن هي على يقينٍ من أن شيئًا خطيرًا واقع هنا، فالفتاة التي ترافق ابنها كانت في الحقيقة تسنده، وابنها يسير منكفئًا على نفسه، يتظاهر بالتماسك، كأنما ليطمئنها، فهو على يقين من أنها تقف في النافذة منذ رحل بالأمس، ولن تفارقها حتى يعود.

هي صفية إذن، هي صديقة الغائب، هي من ترسل لها في مطلع كل شهر مبلغًا من المال لم تقبله أبدًا، ولكن كيف ومتى التقت شهدي؟!!، كلها أسئلة فضَّلت إرجاءها إلى حين، وعندما صارا داخل البيت رأت أن تفحص ابنها، حتى من قبل أن ترحب بـ"صفية"، فهو شاحب إلى حد يثير الخوف، لكنه كان يتظاهر بالمرح، وأخذها في طريق الحكايات، عن كل ما مر به في يومه، دون أن يتطرق إلى أنهار الدم التي جرت غزيرة وساخنة.

لم يستيقظ إلا مع اقتراب العصر، كانت قلقة إلى حد أنها ظلت تدخل عليه لتوقظه، وعندما تراه غارقًا في النوم ترفق به، وتتركه ليكمل نومه، فهي على يقين من أنه يسترد بنومه العميق شيئًا ما فقده طوال اليوم، و لم تعرف أبدًا أن ذلك الشيء المفقود كان دمه.

صفية كانت في الشارع منذ الظهر، التجمع في هذا اليوم كان في ميدان رمسيس، تعطيل رحلات المترو لم يحد من تدفق الناس، كانوا يتوافدون على كل الميادين، ويناوشون لمواجهة الشرطة في كل مكان، لكن كل المحاولات للوصول إلى ميدان التحرير باءت بالفشل، وصفية تندفع بتهور للانخراط في قلب التظاهرات، حتى باتت لا تخشى على نفسها، شيء ما يدفعها لأن تمارس التهور، واكتشفت مع الوقت أنها تتمنى لو تسقط في بئر النهاية، فهي أيضًا ضلت الطريق في مشوار بحثها عن رفاعة، وبسبب علاقتها بـ"رفاعة" انقطعت خطوط الاتصال التي كانت تربطها بأمها، وبدت غير قابلة للعودة.

الشوارع الغاصة بالثائرين لا تأخذها من المستنقع القديم، فأخوها الذي اصطفاه أبوه ليخبره بسره، طامعًا في أن يضطلع بكفالتها اصطدم بجشع باقي إخوتها من أبيها، وفضل الانسحاب من الحرب، تخلى عنها، خرجت هي وأمها من المولد بلا حمص، اللهمَّ إلا الشقة التي تؤجرها أمها مفروشة لتعيشا من إيجارها، والمبلغ المودع في البنك الذي قامت أمها بنقله إلى حسابها بعد أن بلغت سن الرشد.

عندما بدأت القوات في قذف كرات النار، وأتبعتها بطلقات الخرطوش لم تستطع أن تغمض عينيها، فالدنيا التي عوضتها عن الأهل بـ"رفاعة" سرعان ما استردته، أخفته في سراديبها، لطالما استشعرت في فمها طعمًا لاذعًا ومالحًا، كلما مرت بها ذكرى تلك الصالة الفسيحة المليئة بالموبيليا والأشياء اللامعة، والنساء المشرعات الأعين كأنها سهام مسقية بالسم، نفس الطعم الذي تستشعره وهي تستعيد ذكرى الكلمات التي خرجت ذات مساء من فم شهدي، عندما أخبرها بأن الشرطة اختطفت رفاعة.

سيجيء الوقت الذي يعرف فيه الناس أن القتلى الذين سقطوا يوم الأربعاء 26 يناير كانوا من الكثرة بحيث يصعب حصرهم، هم في هذا اليوم بالتحديد كانوا من البسطاء، في الأحياء والحارات، الذين ثاروا في مواقعهم بعيدًا عن الميادين الكبيرة والشوارع الرئيسة المؤدية إليها، حوذية وحمالون، صانعو أحذية وعمال مطاعم صغيرة، نجارون وحدادون، وحراس أمن فقراء، لا يعرفون إلا ارتداء يونيفورم زائف، ووضع أجسادهم في مقدمة الخطر، دون أدنى معرفة بشيء، حتى بقواعد الأمان

الشخصي، ربات بيوت يشقين وراء كفالة لقمة لأبنائهنَّ مغموسة في مر الشقاء، وفتيات في عمر الورود يَحْلُمن برغم البؤس بفتيان يأخذونهنَّ إلى تضاعيف النشوة، أطفال لم يعرفوا طعم الحلم بمستقبل أفضل، وفضوليون يكتفون بمجرد النظر إلى السباق الدائر بين القوات المعتدية، وأناس نزلوا إلى الشارع، لينعموا بلحظاتٍ خالية من القهر.

منهم من سقط صريعًا في الحال، لم تؤلمه الطلقة، أو تثقبه الحسرة، ومنهم من اكتوى بنار رؤية دمه يسيل وروحه تفيض وهو شاهد عليها، وصفية تعيش بؤس الذكريات على خلفية تلك المشاهد المروعة.

هي على موعد مع شهدي، ستعود إليه في نهاية اليوم، محملة بالأخبار، ستعود إليه بأحلام قديمة، رأتها في كل الوجوه التي عانت التجاهل والإنكار طوال حياتها، أبوها كان رجلاً رائعًا، هكذا تخبرها أمها، ورفاعة كان هو أيضًا رجلاً رائعًا، ربما يتهمه البعض بالخروج على القانون، لكنهم لن يكونوا في حقه أقسى من هؤلاء الذين اتهموا أباها بالخطل، وبأنه وقع في أسر فتاةٍ لعوب، أخذته من زوجته وأبنائه وأسرته العريقة.

لن تنكر إذا ما سألها أحد أنها دخنت الحشيش مع رفاعة، وأنها سلمته نفسها طائعة، حتى من قبل أن يعدها بالزواج، كانت في تلك الليلة التي بدت قريبة جدًا لا تفكر إلا في شيء واحد، هو الاندماج في رجل أعاد إليها ذكريات حلوة، عن أب كان يغني لأمها أغنيات رائعة، يا لروعة ما كان يفعله ذلك الرجل القديم!!، الأستاذ محمد شمس الدين الغمريني المحامي، ذو الصوت الذي يمنح من طبقاته الخفيضة مزيجًا من الحب والأسى.

لن يؤلمها تذكر مشاويرها الصغيرة إلى إخوتها، وملامحهم التي تستنكف حتى مجرد تذكر أنها موجودة على ظهر الأرض، ولكنها لجأت إليهم ليساعدوها في البحث عن حبيبها، قالت إنه خطيبها، وإنه محام شاب، لكنهم عادوا بعد أيام ليخبروها بأن من تدَّعي أنه خطيبها هو في الحقيقة تاجر مخدرات صغير، وأنها أساءت إليهم عندما طلبت معونتهم في البحث عنه.

أجمل ما سيحدث عندما تتوجه لزيارة شهدي هذه الليلة هو لقاؤها الثاني بالحاجة نوال السروي، أم رفاعة، التي رأت في عينيها ظلا لنظرة رأتها ذات يوم في عيني الرجل الذي غزا قلبها وسلمته مقاديره، نظرة لا تنبئ عن انكسار، ولا تتوارى خلف سواتر، نظرة المحب، القريب، الذي لا يداهن أو يستسلم أو يلعن الظروف.

صفية الغمريني

كلما نظرت إلى الخلف ترى الطفلة القديمة التي كانت تبكي في مكانٍ تراه لأول مرة وتعصر أنفها في منديل أعطاه لها أحدهم، ترى نساءً يرتدين السواد، ينظرن إليها من خلال رموش مبللة بالدموع، ولا تدري لماذا لم تصدق دموعهنّ، كُنَّ يتفرسن في ملامح طفولتها ويمصمصن الشفاة، كأنهن لا يصدقن أنها ابنة ذلك الرجل المسجى في الحجرة المجاورة، الرجل الذي أخبر عنها في اللحظات الأخيرة من حياته المزدحمة.

تقول لكل من يقابلها إن الحياة قتلتها مرات، لذا فهي لم تعد تخشى الموت، اعتادت أن تقف في طريقه وأن تنظر إليه بثبات، وتتفرس في ملامحه، ليست بعيدة عنها قصة لقاء أمها بالرجل الذي تحمل اسمه في شهادة ميلادها، الأستاذ محمد شمس الدين الغمريني المحامي، فلو أن أحدًا أراد أن يخترع قصة للقاء أمها بأبيها لما استطاع أن يعثر على أفضل من القصة الحقيقية، قصة لقاء هدى السمان بالأستاذ محمد الغمريني، ولو أراد أن يبتدع ظرفًا لِتَعَلُّق رجل عظيم بفتاة بسيطة لما وجد أنسب من الظرف الحقيقي الذي دفع أباها للتعلق بأمها.

كانت سكرتيرته، تصل إلى مكان عملها بمكتبه الكائن في شارع طلعت حرب في العاشرة صباحًا، تغلق على نفسها الباب وتأخذ في تنظيف المكان وترتيبه، ثم تدخل إلى حجرة الأستاذ، تُجدِّد ماء الورود التي اعتاد وضعها على مكتبه، وتروي نباتات الظل التي يجلبها لهم عامل في مشاتل المديرية، ثم تُجري تنظيف الحجرة وتلميع الأثاث، وبعد أن يلمع كل شيء ترش معطرا ثم تخرج وتغلق الباب، ولا يدخل الحجرة بعدها إلا الأستاذ.

قدمها له عم أحمد القصاص، وكيل المكتب، جارها، ابنة لرجل صعيدى جاء إلى القاهرة بحثًا عن لقمة عيش، طوحته الدنيا يمينًا ويسارًا حتى استقر في منطقة كوتسيكا، وعمل حمالاً في محطة المترو، يحمل عن الناس أغراضهم، وبمرور الوقت صار أشهر حمال على خط المترو، من باب اللوق إلى حلوان، يعرفونه في السيدة زينب ومصر القديمة، والمعادي وطرة، والمعصرة وحلوان، وكان قد استقر في حجرة صغيرة في كوتسيكا، ولما ادخر شيئًا من المال عاد إلى بلده البعيد، ثم ظهر وبصحبته الفتاة التي تزوجها.

عبد العال السمان، وهذا اسمه، لم يرزق هو وصفية المتناوي إلا بابنةٍ واحدة، هي هدى، ثم صاما عن الإنجاب حتى النهاية، أمام إصرار صفيةَ تخلى السمان عن عناده وأدخل طفلته المدرسة، ولما تفوقت في الإعدادية ورغبت في دخول الثانوي العام تمهيدًا للحاق بالجامعة ثارت ثائرته، لكن الأم الحكيمة حظيت بنصف المكافأة، أقنعته بإرسالها إلى المدرسة الثانوية التجارية، وحصلت هدى على دبلوم التجارة، وسرعان ما أدركت أن شهادتها لا تؤهلها لعمل حقيقي فداومت على تعلم دروس الآلة الكاتبة وأعمال السكرتارية، وانتقل أبوها إلى جوار ربه فعملت في أماكن عدة، من مكتب إلى مكتب، ومن شركة إلى شركة، حتى استقرت بفضل جارهم عم أحمد القصاص في مكتب المحامي الكبير، الأستاذ محمد شمس الدين الغمريني.

زواج هدى السمان من الأستاذ الغمريني مر بمراحل عديدة، فالرجل الذي يكبرها بأعوام كثيرة متزوج من ابنة عمه، له منها أبناء في مثل عمر

سكرتيرته، لكنها تسللت إلى قلبه دون أن يدري، ومع الوقت شعر بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها، ولما عرف بأن أحدهم تقدم للزواج منها وقع في حيرة بالغة، وقادته الحيرة إلى نوع غريب من التشتت، ولحظ عم أحمد القصاص اضطرابه فاقترب منه، واضطر الأستاذ لأن يصارح الوكيل بأزمته.

والوكيل لَأَريب امتص الحكاية كأسفنجة البارمان النشيط، ثم أعملها في نفسه حتى اهتدى إلى الحل، كان على دراية بخبايا حياة الرجل مع ابنة عمه، والصدود الذي تغلفه المواضعات الاجتماعية بغلاف براق، تساءل: لماذا لا يتزوج الرجل من الفتاة ويضرب بحجر زواجه منها عصفورين؟ يرتبط بمن تعلق بها قلبه، ويرى من أمور الدنيا والزوجات المطيعات ما حرم منه طوال زواجه، ولما قدم للأستاذ نصيحته أراد أن يجنب الزوجين ثورة قد تطيح بهما، أو بالفتاة على أقل تقدير، واقترح أن يبقي أمر زواجهما سرًا، إلى أن يقضى الله أمرًا.

لم يكن من السهل إقناع صفية المتناوي بقبول زواج ابنتها من المحامي الكبير، فهي لا تعرف كيف سيكون رد فعل أعمام ابنتها في بلدهم البعيد، وهي لا تقدر على تزويجها دون استشارتهم، وأمام الإلحاح سافرت إلى أعمام ابنتها، هناك أدركت أن الدنيا اختلفت بصورة مذهلة، فالأعمام الذين ظنوا أن أرملة أخيهم تهدف إلى توريطهم في تكاليف تجهيز ابنتها بادروا بتقديم أعذارهم، فضيق ذات اليد يمسك بخناقهم، وأدركت المرأة ما يهدفون إليه فتصنَّعت الغضب، وانصرفت وهي تذكرهم بأن ابنتها ليست أقل من بناتهم جمالاً وحسبًا، وأنها ظلت تنتظر قدومهم؛

ليأخذوها لواحدٍ من أبنائهم دون جدوى، فهم آثروا الابتعاد، وقطعوا رحمهم بأيديهم، وهكذا عادت إلى القاهرة وهي تمتلك الحق كاملاً في تزويج ابنتها لمن تريد، دون مشورتهم.

كانت تعاني من مرض عضال، وبالتدبير الذي ساقه إليها القدر عرفت أن مستقبل ابنتها لن يكون آمنًا إلا في زواج من هذا النوع، رجل ثري حتى ولو كان في عمر أبيها، يضمن مستقبلها، يشتري لها بيتًا لتقيم فيه، ويؤمن لها دخلاً ثابتًا، ووافق الأستاذ، حصل على شقة تمليك في حي المهندسين وسجلها باسم الفتاة، وأثثها بأثاث رائع، وأنشأ لها حسابًا في أحد البنوك أودع به مبلغًا معقولاً، وفي ليلة صيفية رائعة تزوج منها، واحتفل بالزواج على ظهر مركب طاف بهما في النهر الكبير، وكان قد تعلل بالسفر إلى مرسى مطروح لحضور قضية هامة هناك، وتمكن بذلك من قضاء عدة أيام في أحد الفنادق مع عروسه الجديدة.

قضى بصحبتها أعوامًا قليلة، لكنها كانت أسعد سنوات عمره، أنجبت له ابنة رائعة الحسن، وافقها على أن تطلق عليها اسم أمها، صفية، لكن الوقت لم يسعفه، فبعد ولادة ابنته بخمس سنوات سقط مريضًا، حملوه من المكتب إلى شقته في مصر الجديدة، حيث ابنة عمه وأبنائه الكبار، وهناك ظل طريح الفراش شهورًا، يزوره عم أحمد القصاص، يحمل له رسائل هدى وطفلته الصغيرة صفية، ويعود من لدنه محملاً بدموع ترقرقت في عينيه، وزفرات انبعثت من صدره المتألم، وفي أصيل يوم من أيام محنته هاجمته نوبة قلبية شديدة فنقلوه إلى المستشفى، وهناك في غرفة العناية المركزة اصطفى واحدًا من أبنائه وباح له بالسر.

برغم اعتراض أمه وثورة إخوته حمل الابن المصطفى أخته الطفلة إلى أبيه ليراها، وبكى الرجل وهو يعاين اليتم المبكر في ملامحها، لكنهم منعوا أمها من عيادته، ورحل الرجل وقلبه يهفو لرؤية الفتاة التي أسعدته، وعوضته سنوات الشقاء التي قضاها في معية زوجته، جزء منه كان على يقين من أن أبناءه لن يظلموا أختهم الطفلة، حتى ولو أصرت أمهم على إبعادهم عنها.

لكن المحظور وقع، فالرجل رحل قبل أن تعترف الأسرة كلها بطفلته، وها هي صفية تنظر إلى الخلف وترى نفسها جالسة هناك، في صالة فسيحة لا حدود لاتساعها، مليئة بالأثاث والمرايا، والمناضد والمقاعد، والأشياء الغريبة، وسط نساء يرتدين مع السواد مجوهرات تتلألأ في عينيها، وحليًا تبرق، وينظرن إليها بعيونٍ جارحة، تفهم الآن أنها كانت تتهمها، كأنها ابنة سفاح.

حملتها هدى بأسنانها، كما تحمل هرة صغارها، وعبرت بها النهر إلى كوتسيكا، حيث الشقة الصغيرة القديمة التي ورثتها عن والديها، وباعت الأثاث الثمين، وأودعت ثمنه حسابها في البنك، وأعادت فرش الشقة بأثاث عادي وأجرتها مفروشة للسياح العرب، والأجانب الذين يعملون في المشروعات المختلفة، وعن ذلك الطريق تمكنت من تعليم ابنتها كأحسن ما يكون التعليم، كانت تنظر إلى إخوتها، وإلى المدارس التي تعلموا فيها، و لم تقبل بأقل من أن تكون ابنتها خريجة نفس المدارس، قبل سقوط أبيها مريضًا التحقت صفية بكلية رمسيس للبنات، وبعد وفاته صمدت أمها طوال سنين دراستها، تدفع مصروفات الدراسة

وثمن الزي المدرسي وتكاليف الأنشطة التي ترغب في ممارستها.

لم تكن تعرف أن ابنتها لها حلاوة صوت أبيها، ففي مرات روق باله كان الأستاذ الغمريني يغنى لها، أغاني عبد الوهاب وعبد الحليم ومحمد فوزي، ويصمم على أن تشاركه الغناء، وفي إحدى زياراتها لمدرسة ابنتها رأتها تغني على مسرح المدرسة، يا لسعادتها وهي ترى ما لم يره أحد، نفس طبقات الصوت الجميل الذي غاب عنها، نفس اللزمات والعرب، القرار والجواب، والتنهيدة المختبئة خلف المد الجميل لأحرف الكلمات، وبكت، كيوم بكت رحيل زوجها.

يوم حصلت صفية على الثانوية العامة بمجموع كبير دفعتها لأن تطلب زيارة إخوتها، واستجابت الفتاة لرغبتها مضطرةً، لكن إخوتها اعتذروا عن استقبالها، متعللين بوجودهم خارج القاهرة، اكتفوا بتهنئتها عبر أسلاك التليفون، ولما خيرتها أمها بين الكليات اختارت كلية الألسن، قالت إن دراستها ستضمن لها عملاً مؤكدًا، ووضعًا ماديًا واجتماعيًا مناسبًا، وسيبتهج أبوها في قبره.

الأم أرادت أن تكون طبيبة، حتى تتفوق على إخوتها من أبيها، بالكاد أفهمت صفية أمها أن كلية الألسن من كليات القمة أيضًا، وأنها تحقق بالضبط ما يعنيه التحاقها بكلية الطب.

في سنين الدراسة تعرفت على زملاء يحبون الموسيقى والغناء، كونوا معًا فرقة غنائية جامعية ذاع صيتها بين الطلاب وفي أروقة الجامعات المختلفة، وكانوا يلبون طلبات الكليات المختلفة والجامعات الأخرى حتى صارت الفرقة معروفة.

لم تكره إخوتها، ولم تحبهم، لا تفكر فيهم كثيرًا، ولا تصدق أن الرجل الذي تحتفظ له بذكريات قليلة، والذي كان يبتسم على الدوام، وإذا ضحك تهتز لقهقهاته أرجاء البيت، هو أبوهم مثلما كان أباها، لا تصدق أنهم من صلب ذلك الرجل الذي كان يشع طيبةً وألفة، ولا تنفك تتساءل عن سر تجهّمهم وعبوسهم، وغرورهم الذي يدفعها لأن تُعرض عنهم وتنساهم، وتخرجهم من حياتها، في الواقع، وفي تصاريف الخيال الذي لا يمل البحث عن أصلٍ ينتمي إليه.

هي لا تنتمي إلى تلك الأسرة التي تنحدر من بطن قبيلة عربية شهيرة، فقط هي تنتمي لرجلٍ رحل تاركًا ذكريات غائمة وصغيرة، وضحكات كأنها صور قديمة، ولامرأة اسمها هدى السمان، ابنة حمال كان يحمل الأغراض عن الناس في محطة كوتسيكا، وترك شقة صغيرة عاشت فيها أجمل سنوات عمرها، وكلما أطل في رأسها ذلك التوق إلى التفاخر بالنسب تكتفي بالضحك، فلو أنها لا تفعل لما كانت ابنة الأستاذ محمد شمس الدين الغمريني، المحامي الكبير، الذي كان ذائع الصيت، وأحب أمها وتزوجها من وراء ظهر زوجته الأولى وأبنائه منها.

الخميس 27 يناير (2)

قبل حوالي شهر وبعد انتصاف الليل حملت سيارة غامضة رفاعة سيد الأهل من حجز القسم الذي كان فيه، كعادتهم نقلوه معصوب العينين، موثق اليدين والقدمين، فلا هو عرف لماذا نقلوه من هناك، ولا لماذا حملوه إلى هنا، اكتفى كما في كل مرة بشحذ انتباهه، واستجماع خبراته، وتوطين النفس على ما سيلاقيه في المحبس الجديد.

تؤلمه الإهانات والأحداث غير المتوقعة، التي لا يوطنٍ النفس على اجتيازها، وكانوا قد صعدوا به وهو معصوب العينين سُلَّمًا يفضي إلى جناح المباحث، توقع أن يلاقي في مكانٍ ما في العلو احتفالاً ليليًا آخر، كعشرات الاحتفالات التي صادفها في أقسام عديدة.

يعرف رفاعة طعم الدم المالح وهو يتسرب من الفك أو الشدقين ليمتزج باللعاب، نتيجة للصفع أو اللكم، يعرف روائح احتراق الشعر وإنضاج اللحم من جراء إطفاء السجائر في الأجساد، يعرف شلل الرئتين وقصم الظهر وهم يصعقون بالكهرباء عضوه وخصيتيه، يعرف ألم الإهانة وهم يصفون أمه بالعاهرة، أو وهم يبصقون عليه، أو يبولون فوقه، يعرف ألم وقوفه أيامًا حتى يتمنى لو يتهالك على الأرض ميتًا، يعرف آلام تعليقه كذبيحة إلى حلق باب أو مقعد خشبي، من يديه ورجليه، وتركه ساعات طويلة تنخلع فيها أطرافه، خمسة أشهر من الحياة كحشرة حقيقية في السراديب المختلفة لأقسام الشرطة على اتساع مدينةٍ كبرى كالقاهرة تشحن المرء بطاقاتٍ سلبية هائلة، وخبرات لا تنفذ.

لكنه ما إن صعد إلى مكتب الرائد مجدي الحسيني رئيس المباحث

حتى شم رائحة جديدة، تختلف عن كل الروائح التي خبرها، رائحة عرق آدمي كريه، سوائل معوية لم يحسنوا تنظيفها، كلمات ثقيلة ترفض مغادرة المكان، صار يصعد بكتفيه حتى لا يباغته أحدهم بضربة على قفاه، ويتقلص في كل خلية منه ليتوقّى ضربة مفاجئة، يسرح مع الأصوات الخفيضة، يتسمع دبيب الأقدام المتسللة، وفحيح الابتسامات الصامتة، ولعق الشفاة المنتشية بفرحة الإيذاء، وجاءه صوت يعرفه:

- أموت واعرف يابن الـ...... ازاي تبقى شيوعي وتاجر مخدرات في نفس واحد؟!!

هو على الأرجح صوت واحد من أعوان اللواء عاصم الإمام، مفتش مباحث أمن الدولة، رأس قائمته، لقد سمعه من قبل، هذه اللهجة، هذه الثقة، هذه الميوعة في إنهاء الكلمات، أم تُراه واحد من ضباط مكافحة المخدرات، التقاه في مكان ما؟!، الحفل إذن إما أمن دولة وإما مكافحة، وهو يُرجِّح الاحتمال الأول، فالصوت ممطوط، والكلمات متأنية، فمن من الاثنين يمتلك الوقت كله؟!!، من يبقي على مسافة ولا يسارع بالاقتراب؟!!، كل ذلك لا يصب إلا في خانةٍ واحدة، أمن الدولة، وجاءه الصوت من جديد:

- إنت عارف يااد أن أمك كانت بتتظَبَّط من ورا ضهر أبوك ولا لأ؟

ولأنه يعرف ما سيعقب الصمت قال:

- الله يخليك يا باشا، خلي أمي بعيد عن الموضوع.

مع آخر حرف دكّت كف عنقه، اندفع وارتطم بالجدار، وسقط على الأرض.

كيف لم يستطع أن يشعر بوجود الوحش خلفه؟!!، لكن عقله كان يبحث في مكان آخر، كل ما تعيه ذاكرته رجال يغلقون على أنفسهم باب الصالون في شقتهم بحلمية الزيتون، ومعهم امرأة ذات شعر مقصوص وتضع نظارة طبية، لم يكن يُسْمَحُ لأحد بالدخول عليهم، حتى أمه، وعندما تهيئ لهم شيئًا ليأكلوه أو ليشربوه كان أبوه يخرج من الاجتماع، يأخذه من يدها ويدخل به، والآن أخوه مجرد طالب في كلية الهندسة، لا يمارس السياسة إلا لمامًا، وأخته مجرد تلميذة في الإعدادية، طفلة في الرابعة عشر من عمرها، هو إذن بالمفهوم الأمني ليس صيدًا، فلماذا توصى أمن الدولة بإخفائه في سراديب الشرطة كل هذا الوقت؟!!، ولماذا يعتدون عليه بهذه الضراوة؟!!.

فتوة حجز القسم الذي كان فيه عندما أيقن أنهم سينقلونه دس في يده قرص "أبو صليبة"، أمره بابتلاعه على الفور، أثمر القرص جسدًا مخدرًا لا يشعر بالألم، لكم تمنى طوال الطريق من هناك إلى مكانه الجديد أن يعرف فضل "أبو صليبة" على الأجساد التي يجري تعذيبها، وها هو يعرف أن الأمر لا يخرج عن كونه ضرب فوق طبل، أو في جسدٍ ميت، وتعجب عندما نهض كيف تمنى طوال الطريق أن يتلقى ضربة؛ ليتحقق من مفعول الحبة التي يصفونها بالساحرة، يا ألله!!، إنها ساحرة بالفعل.

ألقوه في ركن لا يتسع لجرو، ثلاثة أيام تحت قدمي رئيس المباحث،

يمارس عليه كل ما يمكن أن يبتدعه خيال مريض، أيام ثلاثة وهو يجلس إلى مكتبه ويضع قدميه فوقه، ويبصق عليه، منها يومان تركه بلا ماء، وأجبره على شرب بوله، وليلة أن قرر إنزاله إلى القبو جلب أصدقاء من ضباط الأقسام المختلفة ليشاركوه العبث به، عرُّوه، عبثوا بعصيهم في قضيبه المنكمش وخصيتيه المشمورتين، وضربوه عليهم، وعلى مؤخرته، وختموا حفلهم بإدخال عصا فيه، آلموه بشدة ثم أنزلوه إلى القبو.

ظل مطروحًا لأيام، ثم نشط، لكنه في اللحظة التي أبلغهم الحارس بخبر الغضبة التي تجتاح البلاد انتعش سره الكبير، يا ألله!!، إنه لا يرى القبو فسيحًا كساحة فقط، وإنما يرى ملامح أعدائه تتشكل، تتضح وتتحقق حتى لكأنه يلمسها بأصابعه، تمنى لو تكون له براعة تايسون في اللعب بنصل مطواته، إذن لخط فوق ملامحهم كتاب أقدارهم، وجاءت ساعات النهار قرب نهاية اليوم بأعمال غريبة لم تسبق إليها، تنبئ عنها أصوات ارتجاجية تكتسب في داخله ألوانًا مضطربة، وروائح غامضة تزكم الأنوف، فيها شيء آدمي، كأنها أعصاب تحترق.

قبل سماعهم وقع الأقدام التي تدق السلمات الحجرية المفضية إلى القبو كان الرفاق يسيطرون على تايسون وتيمور، فيما هو يجتر ذكرياته، يستخرجها ويمضغها، كان قد انفصل، تحول إلى إنسانٍ آخر.

أحد الرفاق في واحد من الحبوس التي تنّقل بينها أخبره أن له حالة يبدو فيها للرائى لا إنسانيًا، وبالأمس اقترب منه تايسون وهمس في أذنه:

– ليك حالات يا سيد أهلك، شكلك فيها بيخوف.

وتريث ليتأكد من أن أحدًا لا يسمعهما ثم أردف:

– أنا عن نفسي بخاف لما بتغطس فيها.

لم يرد عليه، واكتفى بالابتسام، ابتسامًا غامضًا وقشريًا، لا يتعدى طبقات النفس الظاهرية، إذ الروح منشغلة بتقليب الذكريات، ومضغها، فهو منذ فاجأته أخبار المظاهرات يعود ليحصى أيامه في المكان، يعرف أن غده سيكون رابع خميس، فنزوله إلى القبو كان في يوم خميس، قبله قضى ثلاثة أيام في مكتب الرائد مجدي الحسيني.

تتوقف أقدام شخصين عند باب القبو، وكانوا قد حذروا تايسون إن هو تفوه بلفظ واحد، وسلم رفاعة المطواة لـ"سليمان اللنش" فغرسها في لحمه، حتى كادت تنفذ فيه، فيما أخفى هو الطبنجة في جيبٍ داخلي وصوبها إلى ظهره، وكان قد أخفى جهازى المحمول، وأعطى سيد القشاش الطبنجة الأخرى فوضعها في ظهر تيمور.

ماذا لو فُتِح الباب فإذا بالرائد مجدي الحسيني أمامه؟!!، هل يصوب إلى رأسه طلقة من السلاح الذي يخبئه؟!!، يتساءل: ماذا لو كان مُسلحًا؟، أو بصحبته أحد مسلح؟، تمتد يد لتفتح القفل الغليظ، تعالج المزلاج الصدئ، ثم تعود لتضع المفتاح في فتحة الكالون العلوي، وتسحب اللسان الضخم من بيته العميق في الحلق المعدنى الغاطس في الجدار، وتنتقل إلى الكالون السفلى، لم يعد إلا الكالون الذي يتوسط الباب، هذا يعني أنهم في طريقهم إلى تنفيذ ما أخبرهم به فتوتهم، ويتراقص في خيال كل منهم خوف وأمنيات.

خيال تايسون يسرح في واد آخر، المسألة لا تعدو أن تكون مجرد ثوان، بعدها يعود كل شيء إلى سابق عهده، ويبتهج بالانتقام من الجميع.

رفاعة هو الوحيد الذي تذهب به الأمنيات إلى أبعد مما يتصورون، من مكانه في ظهر تايسون يرقب ما يجري، ينظر إلى اللنش ليحافظ على سن المطواة مغروسة في اللحم الحي، ويجدد اللنش تهديده بغرسها عن آخرها إن تفوه تايسون بكلمة واحدة.

على مدى أسابيع أربعة بتمام أيامها تحدث رفاعة مع رفاق القبو في أشياء كثيرة، عرف على وجه التقريب حكاية كل منهم، لكنه وهو يسمع دبيب الأقدام، ثم وهو يسمع صلصلة المفاتيح وخشخشة الكوالين وصريخ المزلاج الصدئ يدرك أن ما يجري لا يخص أحدًا بعينه، بل يخصهم كلهم، إما يحييهم أو يقتلهم.

تملأ أسماعهم خشخشة المفتاح في الكالون الأخير فيرتدون إلى الوراء، ينشق الباب عن الرائد مجدي الحسيني، من ورائه يصوب عبد الحفيظ المطراوي بلوكامين المباحث إليهم فوهة بندقيته الآلية، يتقهقرون للمزيد من الخلف، يختبئ كل منهم في الآخر، ينسى تايسون أمر المطواة المغروسة في جانبه ويتقهقر معهم، عينا سيده تتجاهله، فهو ليس إلا واحدًا من هذه الأشباح التي تتكوم في مساحةٍ خانقة، ويتداخل هو فيها بخوفٍ عظيم:

– يالًا يا حشرة منك له.

يحمد رفاعة ربه أنه لم يُخرج السلاح من مخبئه، يهدر صوت رئيس

المباحث من جديد، جسده الضئيل يتعملق، حتى لكأن رأسه تصل إلى السقف:

– زمن الحشرات ابتدا.

يصرخ:

– زمانكم يا ولاد القحايب.

يزداد انكماشهم وتداخلهم، كأنهم سيدفعون الجدار إلى الوراء، ظنهم أن عمار ضحك عليهم، وأخفى عنهم حقيقة ما سيدور، وأن السلاح الذي جردوه منه كان سيستخدم في تصفيتهم، وأن الضابط سيأمر البلوكامين بعد ثوانٍ بإطلاق النار عليهم، لكن الضابط يدفع الباب بقدمه فينفتح، على المصراعين، يستديرون، يتوقون الطلقات بظهورهم، لكن الطلقات لا تنفجر، والصوت يأتيهم من جديد، ويد الضابط تدعوهم للخروج:

– البلد قدامكم.

أيصْدُقُ تايسون؟!!، يتساءلون، يواصل الضابط:

– من غير ولا عسكري واحد، ولا حتى غفير، أما نشوف هاتعملوا إيه؟

يصمت قليلاً ثم يعود للحديث، كأنما يرقب أثر الكلمات على وجوههم:

– هاتخربوها، عارف، مش هاتسيبو فيها طوبة على طوبة، معلوم، ولا باب مقفول يستر أهله، معلوم برضه، ولا عربية راكنة ف شارع، هارش، ولا محل فيه حتة بضاعة، واكل، ولا واحد من الشعب ابن الوسخة آمن على نفسه، كده نبقى دخلنا في الجد.

يستحثهم على الإسراع:

– المولات اللي عمر أبوكم ما دخلها، ولا ها يدخلها، هاتدخلوها، المحلات المليانة بضايع ودهب وحاجات تطير العقل، هاتنهبوها، البنات اللي تحل من على المشانق، موامس كفاية و6 إبريل ومحاسيب البرادعي اللي مستنيين الركيبة، هاتركبوهم.

لا يصدقون أنه سيتركهم يخرجون، يظنون أنه سيطلق عليهم النار، ثم يدَّعي أنهم كانوا يفرون، رفاعة الوحيد الذي يدرك أن شيئًا ما في حديث الضابط حقيقي، فهم جميعًا محتجزون من وراء ظهر القانون، وقتلهم لن يصل أبدًا إلى علم أحد، فما حاجته لتبريره إن فعل، ويواصل الضابط حديثه:

– في الشوارع مصالح كبيرة أوي، وفي ميدان التحرير مصالح أكبر، تطير العقول، الحتة أد كده، ويشير إلى طول ذراعه:

– تتباع بالملايين.

وإذ يراهم يواصلون الانكماش والاحتماء من الكلمات بالتراجع يصرخ:

- يالّا يا ابن الشرموطة منك له.

يترك الباب مفتوحًا عن آخره ويستدير، ويأتيهم صوته وهو يقفز السلمات منغمًا:

- إفرااااااااااااااااج يا زبالة.

قفزات بهلوانية، كأن أحدًا يطارده، ويصل إلى المنعطف فيستدير ليرى وجوههم لآخر مرة، ويرفع سبابته في وجوههم محذرًا، ويقول شيئًا لا يصل إلى أسماعهم.

يحاول تايسون الخروج من صدمته، لكن سن المطواة يواصل عمله في جنبه، ويغيب الضابط عن الأنظار، وفي أعقابه يغيب المطراوي وتغيب بندقيته.

أعجزتهم المفاجأة عن التفكير وعن الفعل فظلوا متسمرين دقائق طويلة، يفيقون على صوت عباس الكبش:

- مستنيين إيه يا زبالة؟!!

يُعَرِّضُ بما قال الضابط، ويردف:

- الباب مفتوح والجو فاضي.

يأتيهم عبر الشراعة العلوية والباب المفتوح هدير جموع قريبة، ويندفعون صوب الباب المفتوح على آخره فيعجز عن استيعابهم، لكنهم يعرفون طريقهم إلى الخروج، وتدب أقدامهم فوق الدرج الحجري

الصاعد إلى الوجود، ويصلون إلى الشارع، لا يصدقون أنهم صاروا فوق الأرض، يدورون حول مبنى القسم، ويدخلون من الباب الرئيس، ثمة أوراق تحترق، وزجاج تحطم قبل أن يصلوا، لا أثر لأحد من قوة القسم، في المكاتب أو في النوبتجية، باب السلاحليك مفتوح على المصراعين، والبنادق مصفوفة في الانتظار، وصناديق الذخيرة تتراص عن اليمين وعن الشمال، يتسابقون للحصول عليها. رفاعة على يقين من أن أحدهم واقف هناك يراقب ما يدور، ويغتبط لأنهم يفعلون بالضبط كما خُطِّطَ لهم.

في ركن النوبتجية يعثر على حقيبة قماشية متسخة معلقة إلى الجدار، ينزعها من مكانها ويفتحها، يصب فيها صناديق كاملة من الذخيرة، لا يعقل أن تصل الغفلة بالشرطة إلى حد أن يفروا من المكان ويتركوا كل هذه الأسلحة، كل هذه الذخائر، لقد تركوها عن قصد، الآن كلهم خطرون، وكل واحد منهم يستطيع أن يفعل ما يريد، في نفسه وفي الآخرين، ويلمح التماعة شريرة في عيني تايسون فيناديه محذرًا:

– العقل زينة يا عم الفتوات، وقدامنا طريق لازم هانمشيه سوا.

يبتعدون عن المكان بأقصى سرعة، فبوادر الغاضبين تظهر من بعيد، وكرات النار تتقافز، يقذفونها قبل الوصول كأنما يعلنون عن نياتهم، يسلكون طريقًا جانبيًا، ويتبعهم آخرون كانوا محبوسين في سجن القسم، منهم من ينطلق مبتعدا، ومنهم من يتبعهم كأنه لا يعرف غير الاتباع، وعند نهاية الطريق يجدون باصات صغيرة واقفة، على عجلات القيادة يجلس قائدوها، في إحداها ينظر قائدها إليهم في برود، كأنه لا يكترث بهم أو

بالأسلحة التي يحملونها، والذخائر التي تسقط متبعثرة على الأرض، يفكرون في الاستيلاء على الميكروباص، ويشرعون البنادق في وجه السائق، لكن الرجل الغامض يتعجلهم بنفاذ صبر:

– يالاً ماتضيعوش الوقت.

هو إذن في انتظارهم.

منصور الأعور هجّام عين شمس المعروف يسأل:

– يقصد إيه الرائد "فتوتة" بالبتاع ده اللي طول الدراع، وبيتباع بالملايين؟!

وينفجرون في الضحك على التشبيه الذي يطلقه على رئيس المباحث تندرًا من ضآلة حجمه، ويجيبه أحدهم:

– يقصد تماثيل المتحف يا أبو عقل زنخ.

وينطلق منصور من جديد:

– حصل لنا الانسجام يا عم الكلام.

ويلتفت إلى الجميع ويردف:

– ثأفتي أصلها براني، زي المتعلمين في بلاد بره، ما أعرفشي إلا البنوك والشركات بتوع ولاد الوسخة اللي ناهبين البلد.

ويبتلع ريقه ويضيف:

– إيش عرفني أنا بالتماثيل والتساوير ومشاريب العفاريت؟

وينبري سيد القشاش متسائلاً:

– طب التماثيل والتصاوير وعرفناها، إيه بقى مشاريب العفاريت دي يا مفتَّح؟!!

ويضجون بالضحك وهم ينظرون إلى عين منصور المطفأة، يجيبه منصور محتدًا:

– مشاريب أهلك يا بتاع العيال.

ويضطر عباس الكبش إلى الإجابة:

– ما سمعتش عن الزئبق الأحمر قبل كده؟!!

ويعود القشاش للسؤال:

– مش هو ده البتاع اللي بيكشفوا به الكنوز؟

ويجيب الأعور:

– أيواااااه، هو ده البتاع اللي بيدخل في أمك يا فنتاز الكزارة!

كل هذا والسيارة تأخذهم إلى غايتها.

* * *

ستة أشهر قضاها رفاعة في أقبية البوليس، لا يعرف شيئًا عن أهله، أمه وأخيه وأخته، ولا عن حبيبته صفية، ستة أشهر فشلوا في الوصول إليه كما فشل هو أيضًا في إبلاغهم بمكانه، ومع كل مرة يضعون فيها العصابة

على عينيه وينقلونه إلى قبرٍ جديد تبدأ دورة جديدة، وعندما يعرف مكانه ويبدأ في نسج شبكة صغيرة بهدف إبلاغهم بمكانه يضعون العُصابة على عينيه وينقلونه إلى مكانٍ جديد، ستة أشهر تكتمل اليوم، الخميس، الموافق 27 يناير.

لا يتذكر بالتحديد اليوم الذي بدأ فيه عملية تحديد أجندته، المؤكد أنه في الأشهر الثلاثة الأولى كان مهمومًا بمحاولة الاتصال بأهله، ولما يئس بدأ في اجترار أفكاره، لا شك أنها كانت هناك، في مكانٍ سحيق من نفسه، فحتى لو أنه في النهاية لن يفعل شيئًا يكفيه أنه يفكرُ في الانتقام، فهذا التفكير في حد ذاته يقدم له العزاء، ويعيد إليه شيئًا من التوازن لم يشعر به منذ دب اليأس في نفسه، ثم إن وضع أجندة ليسلك على أساسها في المستقبل يجعله ينفصل قليلاً عن الواقع.

لم يفكر من قبل في قتل أحد، حتى بعوضة، أبدًا لم يفعل، قرأ ذات مرة في كتاب أو رواية أن سجينًا محكومًا بالإعدام رأى ذات مرة تيسًا يقف أعلى جدار، يجمع أرجلاً ثلاثة ويقف على قدم واحدة، وتمنى أن يقضي عمره كله واقفًا على قدمٍ واحدة كذلك التيس ولا يعدمونه، وهو عندما بدأ في تشكيل ملامح أجندته تمنى لو يعيش إلى الأبد في تلك الأحلام التي أخذت تراوده ولا يخوض تجربة القتل الحية.

السيارة تتسلل بهم إلى طرقٍ جانبية، حرص على الجلوس خلف تايسون المسلح ببندقية آلية، وحتى يخفف احتقانه يأخذ في التودد إليه، لا يريد أكثر من نزع فتيل الانتقام من داخله، فهو سينسى أي شيء لأي

واحد منهم، عداه هو، ويأخذ في المناداة عليه ليأتي ويجلس إلى جواره، يكتسب وده ويسأله إن كان يخطط لشيء، همه الآن إقناعه بأنه رجله، وأن ما جرى قبل فتح باب القبو هو من قبيل الدفاع عن النفس، خشوا أن تكون الأوامر قد صدرت بالتخلص منهم، و لم يكونوا يريدون أكثر من معرفة مصائرهم، هذا كل شيء، يقول ذلك بصوتٍ مسموع، وبلهجة ترد الاعتبار للفتوة العتيد.

بدون أن يشعر أحد تمتد يده بالطبنجة لتلامس يد تايسون، الذي انتقل بعد تثاقل للجلوس إلى جواره، على وجهه يرى رفاعة طيفًا من الرضا، وتشعر اليد مرة ثانية بالمحمول فتنفرج أساريره:

– كنت ناويلك نية أسود من وش والدتك لا مؤاخذة.

ويضحك رفاعة:

– ما تسيبك من سيرة والدتي يا جبار.

بعد فترة صمت يعود ليسأل:

– المهم كنت هاتعمل إيه بالظبط؟!!.

يجيب الفتوة والغضب لم يفارقه تمامًا:

– كنت هاصفي دمك لآخر نقطة.

ويفاجئه مشهرًا المطواة:

– تحب أوريك؟

ويواصل رفاعة الضحك:

– على إيه يا كبير، الطيب أحسن.

يعرف أن الأوامر صدرت بتوجههم في الصباح إلى ميدان التحرير، وحتى ذلك الوقت يجتهد كل منهم فيما سيفعله، يُفَاجؤون بأنهم في طريق صلاح سالم، الشمس معلقة هناك فوق القلعة، في طريقها نحو الغروب، يخرج رفاعة محمول تيمور ويتصل برقم يحفظه، ظل لشهور يردده في صحوه ونومه، في صفوه وكدره، لا يعرف إن كان لأخيه أو لـ"صفية"، وتصعقه المفاجأة.

على الجانب الآخر يأتيه صوتها، بالتأكيد هو صوتها، البداية الفاترة سرعان ما تأخذ ملامح الترقب، ثم اللهفة، وبرغم صمته تأخذ في التأكيد لنفسها:

– مش ممكن، مش ممكن.

تسأل في لهفة:

– إنت فين؟!

يجيبها بصوتٍ تخنقه حومة بكاء:

– في صلاح سالم، نواحي الأزهر.

تقول كأنها تستجديه:

– انزل مكانك، واستناني، عشر دقايق هاكون عندك.

يميل على أذن عمار يستأذنه في النزول، ويسأل كيف سيلتقيان في الغد، ويحتضنه بقوة، الآن هو يحبه، نعم، فبرغم كل ما فعله به لم يستطع أن يمضي في كراهيته حتى النهاية، ويرفع تايسون عقيرته:

– على إيدك يا عفرتة.

فيقف الميكروباص فجأة، تصرخ العجلات فوق الأسفلت، ويشير إليه تايسون:

– بالسلامة يا سيد أهلك.

يهبط رفاعة ضاحكًا، لم يناده أحد بهذا الاسم إلا تايسون، ويضع قدميه على الأسفلت كأنه يضعهما على الرياش.

البرد الذي يصفر في الطريق يخترق هلاهيله، لكنه لا يشعر بلسعته، في كتفه حقيبة الطلقات، وفي يده بندقية آلية محشوة الخزينة بالطلقات، وفي جيبه طبنجة تيمور وتليفونه المحمول، وفي دماغه الذي يكاد يطير من النشوة أجندته، قائمته السرية، لكن كل ذلك لا يمنعه من الاعتذار لـ"تيمور" عن احتفاظه بتليفونه، ويبتسم منصور الأعور وهو ينقل النظر بينه وبين تايسون، وينطلق الميكروباص مبتعدًا.

لم يشعر بمثل هذه الراحة من قبل، راحة أن تكون حرًا، وألا تكون مراقبًا، حتى ولو يكون المستقبل غامضًا، ويأتيه من بعيد صوت تايسون مختلطًا بعادم الشكمان:

– على معادنا يا حب الرمان.

وترتفع يده رغمًا عنه، يتمنى لو كان أمعن النظر في وجوههم: تايسون وتيمور والأعور والقشاش والكبش واللنش وكل الرجال، الذين منذ هذه اللحظة سيصيرون مجرد ذكرى، وأيامًا قضاها في قبو غريب، في قسم قديم من أقسام البوليس المنبثة في طول القاهرة الكبيرة وعرضها.

* * *

السيارات تأتي مختلطة بالسراب، من بعيد تتماوج كالخديعة، هو لم يعتد الرؤية في وضح النهار، وقدمه لا تكاد تحمله، يخشى من الشارع والناس والسيارات والبيوت البعيدة، وعندما تقترب السيارات تمر به وهي تنهب الأرض نهبًا، يدرك الآن أن السيارات تفر من قدرها، فأقسام البوليس تلفظ أحشاءها في الطرقات والشوارع والساحات، والمسجلون واللصوص يقعدون للمارة في كل اتجاه، بأيديهم أسلحة جبارة، وفي عيونهم عزم أكيد على تصفية كل الحسابات، مع المجتمع الذي لفظهم وأودعهم ظلام سراديبه العطنة، ويتنبه إلى حاله فيرى البندقية الآلية المعمرة في يده، وحقيبة الرصاص معلقة إلى كتفه، وفي جيب بنطاله المهلهل تقبع الطبنجة الـ9 مللي بخزينتها المليئة بالطلقات، يا للهول!!، إنه واحد منهم، من الأحشاء التي تلفظها سراديب البوليس، ويتنبه للحيته التي تتدلى فوق صدره، وشعره الأشعث الذي تنبعث منه روائح كريهة، وجسده المغطى بطبقة سميكة من القشف تجعل تجعيدات جلده غريبة، وتقف أمامه سيارة.

هي صفية، بشحمها ولحمها، إلى جوارها شهدي، أخوه، بشحمه ولحمه، لا يعرف كيف يحتضنهما، فأسماله تبعث بروائح السراديب

والأقبية، وهواء العطن والصنان والعفونة، لكنهما يرقدان على كتفيه، ويبكيان، كطفلين اهتديا إلى أمهما.

طوال الطريق إلى عزبة النخل الخلق كثير، يهتفون بسقوط النظام، وفي عين شمس ينظمون مظاهرة في دوائر راقصة، كلها تنادي بسقوط النظام، هنا لا يجرؤ المسجلون على الظهور، فزخم الحضور طاغ، وفي أيدى المتظاهرين أدواتهم، ويطل الشارع الموصل إلى قلب عزبة النخل فتهطل الدموع من عينيه، بعد قليل سيحتضن أمه، الحاجة نوال السروي، التي انقضى عمرها بين الفواجع والانتظار، مع أبيه ومعه، وسيحتضن درية، حبة اللوز التي تركها أبوهم طفلة فعرفت الحزن في بواكيرها.

تنقضي الدهشة فتجاهد الحاجة نوال لتشغله عن السؤال عن درية، ويعود يسأل، يقوم ويدخل كل حجرة في البيت وهو ينادي، ويرين الصمت، جاء وقت المصارحة، تختفي الأم، تختبئ في حجرتها، وتنسحب صافي إلى الشرفة، ولا يبقي إلا هما، رفاعة وشهدي، ابنا المناضل القديم صابر سيد الأهل، ونوال السروى الممرضة القديمة التي تركت عملها لما رزقت بالأبناء واحتاجت إلى كل وقتها.

لا يعرف كيف يمكنه التعامل مع خبر زواج درية، طفلتهم الأثيرة، يتحسر، إنها بالكاد في الرابعة عشرة، ويجيبه صمت شهدي، اختطفها أبو داوود، بعد غيابه بأربعة أشهر، و لم يملكا هو وأمه أن يعترضا، كانت ستعرضهما لفضيحة مدوية إن هي تركت البيت وفرت، كل الطرق كانت تؤدي إلى زواج الشيخ منها، الشيخ البالغ من العمر أضعاف عمرها.

دخلت على أمها ذات يوم بنقاب على وجهها، لم تعرفها الحاجة نوال، وعندما تأكدت من خلو الدار من أي غريب رفعت نقابها، وصعقت أمها، لم تتنبه الأم وكذلك لم يتنبه شهدي إلى الكتيبات الصغيرة التي جلبتها وعاشت مع صحائفها طوال الليل، ولا إلى اختفاء كتب أبيها من المكتبة، كتاب وراء كتاب، ولا إلى صمت البيت الذي لم يعد يفتح فيه التليفزيون، ولا أشرطة التسجيل التي تتوعد الحياة بالفناء، والفرحة بالفجيعة، أرجعت الأم كل ذلك إلى الحزن، فيما شهدي يدور في الشوارع وعلى المعارف بحثًا عن طريق للاهتداء إلى أخيه، ولا يعود إلا مع صفارات مكبرات الصوت، تُمهِّد لقرآن الفجر.

تزوجته بمهر ألقاه الشيخ على الكنبة التي تجلس عليها أمه، ألقاه بين الأم وشهدي، مذكرًا أنه لا يحب أن يستباح بيته، فإذا أرادت الأم أن تزور ابنتها فأهلاً بها، ولكن بشرطين، أولهما أن تنتقب، فالإسلام لا يعرف المرأة السافرة، أو تلك التي تغطي شعرها وتترك قسماتها نهبًا للرائح والغادي، والثاني أن تكون الزيارة بعلم مسبق، فالبيت الذي ستنتقل إليه ابنتها لا مكانًا مخصصًا فيه للحريم، ووجب حتى يمكنها الزيارة أن تنبه إليها من قبل، قائلاً إن تلك هي تعاليم الإسلام، أما شهدي فإنه غير مُرحب به في داره، ما لم يبدأ في أداء الصلوات، ويعفي لحيته التي هو مأمور بإعفائها، ويكف عن أخذ أهله إلى أضرحة الكفر التي يترددون عليها: الحسين والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، والسيدة عائشة والإمام الشافعي، التي كانت الحاجة نوال تزورها بانتظام.

وإذ تشعر بأن صدمة العلم بمصير أخته تخف حدتها تخرج الحاجة من حجرتها، عيناها متورمتان، مصطبغتان بالدم:

- آخر مرة شفتها كان من شهرين.

تعتصر أنفها الأحمر بلون الدم في منديل قماشي صغير:

- قالتلي إنها حامل، وإن جوزها..

تشعر بشيء من الحرج وهو تطلق عليه هذه الصفة، تردف:

- جاب لها أخت مسلمة تكشف عليها فقالت إنها بخير، لكن يابني شفت في وشها حاجة ما طمنتنيش.

كل خلجاته تسأل، وتجيب:

- هالات سودة حوالين عينيها، البنت اللي كانت زي الوردة المفتحة، بقت ممصوصة وصفرا، ووشها مكبي، فكرتني بأبوك في أول عياه.

كل شيء آخذ في الاضطراب، أفكاره ومعتقداته، ماضيه وحاضره، حتى قائمته التي ظن أنها مثالية، وأن الحياة إذا ما تم إنجازها ستكون أكثر احتمالاً، حتى هذه القائمة التي أنضجها على نار غربته في السراديب والأقبية الخانقة آخذة في الاضطراب هي الأخرى، كأنها عبث. لا يستطيع أن يضم الشيخ المتصابي إليها، فهو زوج أخته، وفي بطنها يرقد طفله، وأمه وأخوه يلقيان بشيء من اللوم على طفلتهم، درية، ابنة الأربعة عشر ربيعًا، التي لم تكمل بعد عامها الخامس عشر.

على صورة وجهه في المرآة يرى طريقه، لن تمر الليلة إلا وهو في بيت أخته، يراها ويعاين ما تحكي عنه أمه، لا يهدئ من روعه الماء الذي دفأته أمه ليتحمله جسده الواهن، ولا بشرته التي بانت تحت لحيته المجذوذة مليئة بالبثور وآثار الحكة، ولا الوجه الذي يعود إلى ملامحه القديمة، كل ما يملأ روعه هو استباق الوقت ليرى درية، الطفلة التي أمسك أبوه بيده وعلق بصره عليها، ثم دخل في غيبوبة حملته إلى الأبدية.

والحاجة نوال التي انقض مضجعها عندما ضاع منها، والتي لم تصدق أذنيها عندما هاتفتهما صفية معلنة أنه عاد إلى سطح الأرض، وسبق قلبها إلى طريق صلاح سالم لترى بعيني أمومتها طيفه العائد من العدم، ووضعت قلبها بين يديها بعد عودته، ومسحت معه بقدميها كل شبر في البيت، ونظرت مع عينيه إلى الجدران، وتنسمت مع خياشيمه عبير الزوايا والأركان، كيف ستبلغ ابنها هذا بأن زوج أخته يرفض استقباله في داره.

وكانت قد استغلت وجوده في الحمام وطلبت الشيخ، أبلغته بخبر عودة ابنها الغائب فلم يعلق، ولما طلبت الإذن بزيارة درية ليراها أخوها أرغى الرجل وأزبد، إذ هو لا يقبل في داره دنس العلمانيين الكفار.

عبثًا تحاول إثناء رفاعة عن التوجه إلى درية، متعللة بضعف صحتها، وبأن الطريق غير آمنة، وهو يهدد:

– لو هاروح هناك وأسأل في كل شقة، مش هتعدي الليلة إلا لما أشوفها وأعرف حكايتها.

تعرف أن معركة كبيرة ستدور بينه وبين "أبو داوود"، وتعرف أن الشيخ نافذ إلى أمن الدولة، وإلى أوساط الحكم كلها، وتعود لتقول إن رجال الحكم مشغولون بالمظاهرات والثورة، فهل يمر الأمر بسلام؟!!

تضع عباءتها وتحكم النقاب، ويهز رفاعة رأسه، من ذا يصدق أن هذه المخفية خلف سوادها هي زوجة المناضل القديم صابر سيد الأهل، المثقف الذي انتهبت مكتبته فلم يعد فيها إلا كتيبات صغيرة، عن عذاب القبر، وزنا الجوارح وفريضة النقاب، الشجاع الأقرع وتفسيرات الشعراوي، وكتابات رجال يجهلهم، وأقراص مدمجة عليها قرآن يتلوه أناس لا يعرفهم، وعندما سأل أمه عن كتبه وكتب أبيه، وعن أشرطة التجويد، محمد رفعت ومصطفى إسماعيل وعبد الباسط عبد الصمد والمنشاوي وأبو العينين شعيشع أطرقت إلى الأرض، لا يشك لحظة في أنها تبكي كل ذلك.

تنبه الأم إلى أنهم لن يسمحوا بالدخول عند بوابة المجمع السكني إلا إذا قدم بطاقته، ومد يده ليتأكد من وجودها، فلقد سلمها له شهدي. يقدمون بطاقاتهم ويلقون على مسامع رجال الأمن مقصدهم، ويعبرون، في شقة في هذه العمائر الضخمة تقضي طفلة صغيرة لم تبلغ الخامسة عشرة بعد أرق سنوات عمرها مع رجلٍ يكبر أباها لو كان حيًا، عقل رفاعة لا يكف عن تصوير هجوم رجلٍ عارٍ يغطي جسده شعر كثيف على طفلتهم الصغيرة التي لم تكتمل استدارة ثُديها بعد، ويكاد يلفظ من بطنه الطعام الذي قدمته له أمه.

صفية تنتظرهم في سيارتها، تشعر أن شيئًا سيئًا سيحدث، فإذا كان

اليوم قد أعطى معنى رائعًا وتجلّى عن ظهور حبيبها، إلا أنه يرفض أن يمضي سالمًا، تأمل ألا تكون نهايته سيئة. تعرف أن الدنيا لو اجتمعت على أن تثني رفاعة عن زيارة أخته لن تقدر، وترى أيضًا أن معه كل الحق، ولا أحد يقدر على منعه من رؤيتها، وسماع حجتها أو شكايتها، والوقوف على حقيقة علاقتها بالرجل الذي اختطف عقلها وتزوجها، وها هي أمه تقول إنها تحمل طفلة في أحشائها.

يبدوا أن الشيخ توقع قدوم رفاعة، وأعد للأمر عدته، أياديهم التي تدق الباب تجنح إلى العنف، وما من مجيب، يخرج أحدهم من خلف بابٍ مجاور، يقول لـ"رفاعة":

- لا أحد هنا يا هذا.

يبحلق رفاعة في لحيته العظيمة، ويسأل:

- راحوا فين؟!

يجيبه الرجل في غلظة:

- وما أدراني يا هذا؟!، فقط أقول لك لا أحد هنا.

ويقترب منه رفاعة:

- شاكر فضلك يا هذا.

ويهمون بالنزول فيظل الرجل واقفًا، كأنه يراقب انصرافهم، وقبل أن يدخل رفاعة المصعد يقول موجهًا الحديث إلى الجار الذي يقف عن باب شقته:

- مفيش العفو ولا أي حاجة يا هذا؟!!

ويتساءل وهو يلج إلى المصعد:

- طلعولنا منين الناس دول يا ربي؟!!

في طريق العودة يرفض أن ينزل مع أمه وأخيه، يتركهما على أمل العودة بعد ساعة، هو في حاجة لبحث بعض الأمور مع صفية، وتتفهم أمه الأمر، وكذلك شهدي، لكنها تتعلق به كأنها ستفقده من جديد:

- خصيمك النبي ما تغيب يا رفاعة، ساعة زي ما قلت، لأ، ساعتين يا عم، عينيا مش هاتشوف النوم ألا لما ترجع.

* * *

وكان سائق الميكروباص الغامض عقب نزوله قد زفَّ إلى الرفاق بشرى اقتحام مول تجاري كبير على الطريق الدائري الجديد، قال إن أحدهم أبلغه عبر التليفون. نظروا إلى قائدهم، وإلى بعضهم البعض، وابتسموا، تذكروا حديث الرائد مجدي الحسيني وهو يمنيهم بالمولات التي لا يحلمون بدخولها، سألوا السائق إن كان يمكنه التوجه بهم إلى هناك.

انحرفت السيارة إلى الطريق الدائري، عند وصولهم كانت طلائع المهاجمين لا تزال تتعامل مع الأبواب المغلقة، شقوا طريقهم وسط المهاجمين، حتى إذا ما انفتح باب تدافعوا للدخول. ها هو المول الشاسع يفتح ذراعيه لاستقبالهم، وهم كالجوعى الذين وُضِعُوا أمام مائدة حافلة بأطايب الطعام، وقفوا برهة لا يدرون كيف يسلكون؟ من أين يبدؤون؟!!،

تعلقت أبصارهم بـ"تايسون"، كان يبحث بعينيه في أرجاء المكان، ويشم بخياشيمه، فالأشياء الثمينة كما يقول تنفث عطرها.

قصدوا إلى محال الساعات الثمينة، ثلاثة محال متجاورة، محال المجوهرات عليها تكالب وقتال، ولم يتنبه أحد إلى ما يفعلون، في لمح البصر جردوا المحل من كل بضاعته، ساعات ثمينة عرفت طريقها إلى أكياس ضخمة عثروا عليها بالقرب من الباب الرئيس، وبعد أن انتهوا من المحل الأول انتقلوا إلى الثاني، والثالث، حتى امتلأت الأكياس عن آخرها، سحبوا عربات التسوق ذات العجلات المنزلقة لتحمل الأكياس عنهم، وقبل الخروج هاجموا بعض محال الملابس، ونهبوا ما فيها، ثم اندفعوا صوب أبواب الخروج يلتمسون طريقهم للهرب، في طريقهم عثروا على محل مصوغات منزوٍ في ركن قريب، في لمح البصر انتقلت المشغولات من الفتارين والأدراج إلى أكياس جديدة، وعرفت طريقها أيضًا إلى عربات التسوق، ولم يسعفهم الوقت لفتح الخزينة الضخمة، فكسروا كل ما حولها، وحملوها على حالها فوق عربتين متجاورتين.

لم يجدوا السيارة في انتظارهم، مضت إلى حال سبيلها، ونظروا حولهم، ساحة الانتظار أمام المول مليئة بالسيارات من كل نوع، بإمكانهم فتح إحداها وتشغيلها، والفرار بالمسروقات، واستدعى عباس الكبش خبراته كميكانيكي سيارات وقصد إلى سيارة جيب كبيرة، كسر زجاج الهواية فانطلق إنذار السرقة، لكنه ضاع في خضم الإنذارات التي تنطلق من كل مكان، وعن طريق فتحة صغيرة أسفل عجلة القيادة تمكن

من تشغيل السيارة، ألقوا بالأكياس في الصندوق الخلفي، وانطلقوا لا يلوون على شيء.

السيارة القوية تنهب الأرض، تساءل تيمور إن كان عليهم أن يقوموا بتقسيم الغنائم الآن، ونهره تايسون، عليهم أولاً الذهاب إلى المشوار الطارئ الذي أبلغهم به، وقبل الذهاب عليهم إخفاء الغنيمة، وتوافقوا على إخفائها بمعرفته، وانطلقت السيارة في اتجاه قلعة الكبش.

بالقرب من القلعة يلتقيهم الرائد مجدي الحسيني، وينخرط مع تايسون في نقاشٍ لا يسمعوه، ويعود تايسون ليبلغهم بالمطلوب، ففي الغد سيكونون في محيط وسط البلد، يتوزعون مع غيرهم من الرفاق على ميادين: عابدين، وطلعت حرب، وباب اللوق، ووصلة كوبري أكتوبر المطلة على ميدان عبد المنعم رياض، وميدان عبد المنعم رياض نفسه، يقاومون وصول المتظاهرين إلى ميدان التحرير، فإذا أفلح المتظاهرون في بلوغ الميدان يهجمون عليهم من كل باب، بالحجارة، وكسر الرخام التي سيمدهم به مجموعة من رجال الأعمال التابعين للنظام، وبالأسلحة البيضاء التي في حوزتهم، والأسلحة النارية التي حصلوا عليها من الأقسام.

قبل أن يذهب رفاعة إلى النوم تعرف أخبار لقاء تايسون والرائد مجدي وما فعلوه في المول الكبير طريقها إليه، فالاتفاق الذي أبرمه مع القشاش لا يزال يعمل بكل طاقته.

مجدي الحسيني

مجدي هو الابن الثاني في ترتيب أبناء اللواء شاكر عبد الفضيل الحسيني، رئيس قسم العقاقير التخليقية السابق بالإدارة العامة لمكافحة المخدرات، تكبره ابنة حصلت على بكالوريوس الاقتصاد المنزلي، وكان يمكن ألا تحصل عليه لولا موقع أبيها كضابط كبير في الإدارة العامة لمكافجة المخدرات، وتصغره ابنة ثانية، تعثرت في دراستها كثيرًا، لكنها حصلت على الثانوية العامة بعد أن أدت الامتحان في لجنة خاصة، بحجة أنها مصابة في حادث، وهكذا جلبوا لها مدرسين متخصصين في المواد التي تمتحن فيها، يكتبون ما قد تمليه عليهم فكتبوا هم ما يعرفون، وحصلت على مجموع ضخم أهلها لدخول كلية الطب، لكنها لم تفعل، التحقت بجامعة مجهولة في بلد من بلدان أوروبا الشرقية، وتحصلت على أوراق تفيد حصولها على بكالوريوس الطب والجراحة، وبعد معادلتها في أضابير وزارة التعليم العالي عملت كطبيبة أمراض نساء وولادة.

كل التدابير الممكنة فعلها اللواء شاكر الحسيني ليتقدم ولده في دراسته، وكل المحاولات باءت بالفشل، فالولد بعكس البنتين جاء قصير القامة، ضئيل الحجم، بصورة تهدد فرص التحاقه بكلية الشرطة أو بأية كلية عسكرية، وحدث أن وقع الولد ذات مرة في قبضة أولاد من سنه تراهنوا على النيل منه، فاستدرجوه إلى مكان بعيد عن المارة، وجردوه من ملابسه واعتدوا عليه، وكان أحدهم كبيرًا بما يكفي لأن يلج فيه، وأحدث به جرحًا عانى منه لشهور.

تلك الحادثة حفرت جرحًا عميقًا في نفسه، وولّدت رغبة في الانتقام لا تخبو جذوتها، وخوفًا من الأصدقاء لا يبرأ منه، تنتابه حتى مع المعارف

رغبة في الابتعاد عن كل ما يربطه بهم من صلات، وعندما وصل إلى الثانوية العامة كانت أنفاس الأب قد قطعت، فالولد الوحيد يعطي ظهره للدراسة، ويهوى الجلوس في البيت، أمام التليفزيون، وأصيب الرجل بالضغط المرتفع والسكر، وتسارع ضربات القلب، وبِشِقِّ الأنفس تمكن من تدبير لجنة خاصة لابنه، بفضلها حصل الولد علَى الثانوية العامة، وبفضل رضاء وزير الداخلية عنه التحق بكلية الشرطة.

طوال مراحل دراسته كان أضحوكة زملائه، من يعرفه منهم في طفولته كان يعيره بالفعلة القديمة، لكنه لما التحق بكلية الشرطة قبض على شيء من الغرور، جعله يقطع علاقاته بالعديد من أصدقائه، أو يتعمّد وضعهم في مواقف صعبة ثم يتدخل لحلها، حتى صار معروفًا في كل أقسام القاهرة، مستظلاً بخيمة أبيه الذي وصل إلى رتبة مساعد وزير.

لما تخرج من الكلية اشترت له أمه نجمتين ونسرًا من الذهب، وتولت بنفسها تثبيتها على الإسبلايت والبيريه اللذين وضعهما في حفل التخرج، وعُيِّن في بداية عمله ملازمًا في قسم شرطة مصر الجديدة، ثم ترشح للعمل في المباحث، ولما ترقى إلى رتبة ملازم أول عمل معاونًا للمباحث، في قسم مصر الجديدة أيضًا، ومع الترقيات تنقل بين مختلف أقسام القاهرة، وبعد أن أحيل أبوه إلى المعاش استقر في المباحث الجنائية، حيث جرى ترشيحه للعمل في إدارة البحث الجنائي بفرقة شمال القاهرة، ووقعت الأحداث قبل أن يترك عمله كرئيس لمباحث القسم الذي يعمل به ويلتحق للعمل مفتشًا بالإدارة سالفة الذكر.

عرف متعة تأديب الأوباش، حتى من قبل أن يلتحق بالمباحث، مارسها في النوباتجية، في بداية عمله ولما وجده نائب المأمور ضئيل الحجم قال:

– شكللك كده لا هتصد ولا هترد.

وأغضبه قول نائب المأمور فشكاه لوالده، واستدعى المأمور نائبه ليبلغه أن مدير الأمن غاضب مما قال للملازم الجديد، واجتهد النائب ليشرح للمأمور ما وراء كلماته، ورأى المأمور أن يتولى النائب بنفسه شرح مغزى الكلمات للواء شاكر الحسيني، وقاما معًا بزيارة لِلّواء الوالد، وشرح له نائب المأمور مغزى الكلمات، قال إنه لاحظ وجود أكثر من شخص في النوبتجية، وكانوا يتلاسنون في حضور الملازم، غير هائبينه، وأراد أن يفرض الملازم الجديد سلطته عليهم فقال له ما قال.

أحب النوباتجيات الليلية، كان يأمر الأمناء بإخراج واحد أو أكثر من المحتجزين في حجز القسم ليقضوا السهرة معه، يكبلون يديه من الخلف، وكذلك قدميه، ويتعلم هو ورفاقه كيفية الصفع على الصدغين بالكفين معًا، في نفس الوقت، وكذلك صعق الخصيتين والعضو الذكري باستخدام جهاز التليفون القديم ذى اليد الدوارة، وتعليق الشخص من اليدين والقدمين على مقعد خشبي، أو في حلق الباب، وأيضًا الضرب على سطح القدمين حتى لا يترك أثرًا، وصعق اللسان بالكهرباء، والأسنان، وحلمتي الثديين، وشحمتي الأذنين، وأخيرًا ومع الوقت تم تدريبه من قبل نائب المأمور نفسه على كيفية هتك عرض المذنب بإدخال عصا في مؤخرته.

لكن المتعة الحقيقية كانت في ممارسته لحفلات التعذيب الليلية التي

يقوم بها المحتجزون أنفسهم، مع بعضهم البعض، يأمرهم فيطيعون، لأن عدم الاستجابة تعرض صاحبها لأنواع من التعذيب قد لا تخطر على بال الشيطان نفسه، وكان قد علم ذات مرة بأن رئيس مباحث القسم لديه كلب مدرب على إتيان الذكور، وأصابه هياج، تمنى لو يستطيع أن يختبر هذا الكلب، فاتح نائب المأمور في الأمر، واستجاب رئيس المباحث للرجاء إكرامًا للواء شاكر الحسيني وأعاره الكلب، ومعه مخبر سري، مهمته إثارة الكلب ودفعه من خلال أوامر بعينها لفعل ما هو مطلوب.

في ليلة فريدة من ليالي حياته انتظر على أحر من الجمر حتى انتصف الليل، وأمر بإخراج اثنين من المحتجزين، كانا طالبين جامعيين، اتهمتهما صاحبة البيت بسرقة أشياء من الغرفة التي يستأجرانها في منزلها، أحدهما طالب في الحقوق امتنع عن دخول الحجز، مهددًا بالاتصال بجمعيات حقوق الإنسان، وتفوه باعتراضات كثيرة أغضبت جميع من في النوباتجية، ولما تسلم مجدي نوباتجيته أبلغه أحد الأمناء بما كان منه، وتلمظ مهتاجًا.

جاؤوا إليه بالطالبين، كان جالسًا خلف مكتبه، والليل يرخي سدوله، لم يعد أحد يمشي في الشارع، حتى السيارات التي تحمل المتأخرين إلى بيوتهم كانت تسرع للحاق بما تبقى من الليل، قطع شوطًا من الحديث مع الطالب، عرف أنه من إحدى قرى محافظة القليوبية، فيما كان الثاني طالبًا في كلية الصيدلة، لكنه كان أكثر تحفظًا من زميله، وأكثر قدرة على كظم غيظه، ولما اطمأن إلى أن كل شيء هادئ طلب من طالب الحقوق أن يصفع زميله طالب الصيدلة بقوة، وإذا لم يرض هو عنها سيكون له معه

شأن، ورفض طالب الحقوق، وانزلق لسانه فعاد إلى تذكير الملازم بحقوقه كإنسان، وضج الموجودون بالضحك، وعرف مجدي أن الطالب سيصرخ إذا ما فكر في استعمال الكلب معه، فأمر الأمناء بتجهيزه.

لم يفهم الطالبان شيئًا مما قال الملازم، لكن الأمناء أسرعوا بوضع منديل في فم طالب الحقوق، وألحقوا ذلك بوضع بلاستر عريض على فمه فصار صراخه وكأنه قادم من بطن الأرض، لا يكاد يسمع، وتكاثروا عليه فكبلوا يديه من وراء ظهره، ثم طرحوه فوق مقعد خشبي أحضره المخبر خصيصًا، إذ هو مُعد لتلك الحالة، ولما طرحوا الفتى فوقه صارت مؤخرته معروضة للرائين، وفي لمح البصر جردوه من ملابسه، ورأوا مؤخرته وهي ترتجف، وتباروا في ضربها على الجانبين حتى صارت حمراء كقلب بطيخة.

صراخ الطالب كان مسموعًا بالكاد، لكن الشرر الذي ينطلق من عينيه كان كافيًا للإعلان عما يعانيه، وسقطت دموعه غزيرة عندما جاؤوا بالكلب، حيوان ضخم في حجم النمر البالغ، على فمه كمامة، يتساقط من شدقيه زبد، قربه المخبر من مؤخرة الطالب فأخذ يتشممها، وفكر لحظة في أن ينصرف عنها، لكن المخبر جذبه نحوها من جديد، كل ذلك والطالب يواصل الصراخ، لكنه يضيع في ثنايا المنديل الذي يملأ فمه، ولا يكاد يسمع من خلال البلاستر الذي تم لصقه بإحكام، وفي المرة الثانية قفز الكلب فوقه، والملازم والأمناء الذين يشاركونه متعة الليل والنوباتجية، وطالب الصيدلة الذي جرى بوله تحت قدميه، كلهم رأوا الكلب المدرب وهو يبحث بعضوه عن فتحة الشرج، ولما اقترب منها اندفع بكل قوته،

ومزيد من الزبد يتساقط من شدقيه فوق ظهر الفتى المهزوم.

مع صعوده إلى المباحث رأى اللواء شاكر الحسيني أن يزوجه، لم يجد خيرًا من ابنة زميله وصديقه اللواء محسن سليمان مدير مباحث الأموال العامة، طالبة في نهائي كلية الطب، وهي ابنة وحيدة، كل ما لدى أبيها وأمها سيكون لها في النهاية، ولما حاول مجدي الاعتراض استخدم معه أبوه كل ألوان العنف، هدده بإخراجه من المباحث وإعادته إلى العمل مرمطونًا في نوبتجيات ومكاتب المعاونة في الأقسام، وهدد بنقله إلى الصعيد إذا لزم الأمر، ولما اقتربت أمه لتعرف سر اعتراضه عرفت أنه لا يقصد شيئًا بذاته، ولا يعرف فتاة أخرى يريدها، وإنما هو رفض من باب تأكيد الذات، فنسجت مع الأب خطة، بموجبها كف الأب عن فرض الفتاة عليه، وعندما وجد مجدي أن أباه لم يعد يفاتحه في الأمر قال لوالدته ذات ليلة، إنه على استعداد للتوجه معها لرؤية الفتاة في النادي، وليرى بعد ذلك ما يكون.

يعرف مجدي أن أباه ليس نبيًا، وليس شيطانًا أيضًا، في البداية كانت المعلومات التي تصله عن ثروة أبيه تؤرقه، فأبوه ينحدر من أسرة متوسطة الحال من محافظة الشرقية، لم يرث عن أبيه إلا بضعة أفدنة يزرعها نيابة عنه واحد من إخوته، ويأتيهم في نهاية كل زرعة مبلغ من المال يساعد بالكاد على جعل الحياة شبه مقبولة، من أين أتت إذن كل المبالغ التي أسس بها حساباته في البنوك له ولأختيه؟!!، أرَّقه السؤال أشهر عديدة، وربما سنوات، لكنه مع يسر الحياة كف عن الدهشة، وعن السؤال، و لم يعد

يسأل كيف استطاع أبوه أن يشتري الشقة التي تزوج فيها، والتي كلفته كما عرف أكثر من نصف مليون جنيه بخلاف مصروفات التشطيب، والتي زادت عن مائتي ألف أخرى.

هل حقًا كان أبوه يقبض عمولات كبيرة على صفقات المخدرات التي تدخل البلاد؟!!، وهل كان وراء كل ضبطية كبيرة سر لاً يعرفه إلا هو؟!!، متعلق بمصادره السرية، التي تقتسم المضبوطات مع آخرين، وما إن تحصل على نصيبها حتى تسلم الباقين للواء وفريق عمله، فيسقط القليل في يد المكافحة، ويتسرب الكثير إلى أوكار الجريمة؟!!

لم يعد مع تقدم عمله في الشرطة يسأل مثل هذه الأسئلة الساذجة، فأبوه ليس نسيجًا وحده، كل زملائه الذين يعرفهم أو معظمهم يثور بشأنهم مثل تلك الأسئلة، يكفيه أن أباه اللواء الكبير يحنو عليه وعلى أختيه كدجاجة تحنو على أفراخها، ولا يحرم أهله من ثمار كدحه، نعم ثمار كدحه، مهما كان مصدر هذه الثمار، فإخوته وأقاربه في قريته القديمة ينالهم جانب من نفحاته، هو إذن ليس ملاكًا، وليس شيطانًا أيضًا.

لكن الرياح لم تأتِ بما تشتهي السفن، فلقد مر العام تلو العام والزوجة الطبيبة تعجز عن حمل الحفيد المأمول للواءين الكبيرين، وطغى هاجس انقطاع النسل لدى اللواء شاكر بالذات، فـ"مجدي" ابنه الذكر الوحيد، وهو كفلاح شرقاوي لا يعترف إلا بالامتداد عبر أبناء الابن وليس الابنة فاسمه لن يظهر في تسلسل أسماء أبناء البنتين، وهكذا جاب الأرض بحثًا عن فرصة لينجب الابن من زوجته، وأصاب مجدي نوع من الخذلان،

هاجمته ذكرى الاعتداء القديم، لا يعرف كيف استقر في خياله أن ذلك الأمر هو السبب في عجزه عن الإنجاب.

عشرات المرات لجأ مع زوجته إلى عمليات التلقيح الصناعي، وزرع الأجنة، والأنابيب، وفي كل مرة كان الفشل هو الجواب، وبعد مرور خمس سنوات نجحت إحدى المحاولات، وحملت الطبيبة طفلاً كلفها تسعة أشهر من النوم على ظهرها دون حركة، حتى أصابتها قرح الفراش، وعندما وضعتها أنثى طارت بها، وتظاهر اللواء شاكر الحسيني وزوجته بالفرح، وهما يكتمان حزنهما في نفسيهما، فلكم تمنيا أن تأتيهما زوجة ابنهما بولد يضمنان به اتصال النسب إلى ما لا نهاية.

صلة مجدي بابنته كانت في البداية غير محددة، وكان مع والديه يتمنى أن تكون ولدًا، إذن لأراح أباه وأمه واستراح هو أيضًا، حتى ولو أنجب عشرة بنات بعده، أما وقد وضعتها أنثى، وصار إنجابه منها ثانية في حكم المستحيل فإن شيئًا ما راح يدب في قلبه، حالة فريدة من الحب لم يشعر بها من قبل، ومع مرور الوقت كان يترك عمله ويأتي خصيصًا ليلقي نظرة عليها ثم يعود، وشيئًا فشيئًا صارت الطفلة كل شيء لديه.

هذا الإحساس الفريد بالحب لم يمنعه من مواصلة عمليات التأديب، فهو من المصطفين، الذين أنيط بهم ليس فقط حفظ الأمن، ولكن تنظيم إيقاع المجتمع، الذي لا تجدي معه إلا القوة، ردًا على العنف وانتشار الجريمة، أو حتى بوادر انتشارها.

الجمعة 28 يناير

اضطراب أنفاسه يقول إنه يعاني النوم ولا يمارسه، وانقطاعها لبعض الوقت يصيب أمه بالجزع، لقد جلست أمام النافذة ساعات في انتظاره، شيء ما بداخلها يرفض أن يصدق أن كل ما جرى حدث بالفعل، وأنها رأت ابنها الذي غاب شهورًا طويلة حتى ظنت أنه لن يعود، وكانت وهي جالسة في انتظار عودته من لدن صفية تسقط فوق منحدرات غريبة، ولا تعرف إن كان انتظارها جزءًا من الانتظار الطويل الذي دمر جهازها العصبي وجعلها مرتجفة ومرتابة، أم هو انتظار من نوع آخر، لا يتركها كالشجرة الميتة، ولما رأته قادمًا مع بشائر الفجر أمعنت النظر، كان نحيلاً كخيط دخان، يكاد يتلاشى، ويتكسر في مشيته، لكنه سينام ما تبقى من الليل في داره، ستتردد فيها من جديد أنفاسه بعد أن ران عليها صمت الشهور الطويلة.

طوال الطريق إلى البيت كان يسترجع دقائق علاقته بـ"صفية"، وكيف أنها سلمته نفسها، وسطرت في كتاب حياته صحائف لا تمحى، قالت إنه إن كان عاجزًا عن الزواج منها فإن علاقتها به تسمو على فكرة الزواج نفسها، إنها علاقة الروح بالروح، علاقة الدم بالدم، يسري في عروق واحدة تمتد في جسدين، وهواء واحد يتنفسه صدران، و لم تكن قطرات الدم دليل بكارتها، كانت جسارة المحب الذي لا ينسحب من الحياة بل يقتحمها.

هو إذن مدين لـ"صفية" بحبه، وبكونها حبيبته، وبكونها الصدر الذي يرتكن إليه، وهاجسه الذي يؤرق ليله، وأمانه الذي يفتقده، ودليله في ليل الأحزان التي لا تنتهي، فإذا كان سيمضي في طريقه غير عابئ بكل

ما قالت، فلن يكون ذلك إلا وهي امرأته، ليس فقط بينها وبينه، ولا عن اطلاع أمها وأخيه، بل عن اطلاع العالم بأسره، ولكن كيف سيخبر أمه بعزمه؟!!

البطانية التي اشترتها الحاجة نوال ذات يوم، لتكون جزءًا من شوار درية خرجت للنور، لتغطي جسد العزيز الذي عاد بعد غياب، وحيى بعد موات، ينظر في عيني أمه المسهدتين:

– مش عايزك تفهميني غلط.

تبتسم:

– صفية أمانة في رقبتي، ولازم أكتب عليها.

وتتسع الابتسامة في العيون المرهقة، وعلى صفحة الوجه المنتفخ بأمارات الضغط المرتفع، والشفتين المنطبقتين على قبلة شفيقة رقيقة كعصفور.

النوم لا يخفي الكثير، بل يكشف عن الكثير، ونوم رفاعة ليس كأي نوم، إنه رحلة بين شاطئين، بينهما برزخ مضطرب، وأحلام تتصارع فيسيل دمها، والقنوات الفضائية التي تتابع المظاهرات تأخذ في نومه طريقها نحو الصعود، إلى سدة بعيدة تصير عندها ألسنة طويلة، تضحك بنفسها، دون شفاه وملامح، وأصدقاء الفيس بوك القدامى يقبعون هناك، خلف رفض متحقق للإفصاح، فالنظام قطع الإنترنت عن كل البلاد، ولم تعد هناك إلا القلوب التي تهتدي إلى بعضها بقوة الحب، أو بقسوة الكراهية.

وكان قد أمضى وقتًا طويلاً ينظر إلى وجه صفية، وكذلك فعلت، في الشقة الصغيرة التي حصلت عليها لهما، لم يكن يصدق وهو يمعن النظر في عينيها أنه خرج إلى الوجود، وأن ليالي السراديب ولت إلى غير رجعة، لم يصدق أنه يقابلها، في شقتهما التي خططا للزواج فيها، بعيدًا عن بيت أبيه الذي يكفي بالكاد أمه وأخاه، لا تعرف أمه شيئًا عن هذه الشقة، ولا عن المبلغ الذي تحفظه له صفية، صفية التي تجلس أمامه بكل كيانها، وتنظر في وجهه دون أن يعكر صفو عينيها شيء.

صار خبيرًا بالناس، يرى في عيونهم ظلال الآثام وآثار الخيانة، وعينا صفية رائقتان كنبع جبلي، لطالما أحب أن يناديها باسمها الحقيقي، صفية، قال لها ذات مرة إن رجلاً جميلاً كان يحب عمته بشدة، لأنها كانت كل أهله، وكان اسمها صفية، لذا فهو عندما يناديها باسمها يشعر أنه مثل ذلك الرجل، نبي، وضحكت ملء فمها، وبانت غمازتاها، فأحبها أكثر.

خشي أن يلمسها، فهو إن فعل يخدش قدسية اللحظة التي يستغرقان فيها كل في الآخر، وكانت ترتعد من فكرة أن تمتد يده لتلمسها، فكل ذرة في جسدها تشتاق إليه، وتحن للمسته، لكنها في النهاية غاصت في أعماق أبعد كثيرًا من مجرد الاشتياق، وحتى تخرج من الغمار قالت إن النداءات على الفيس بوك تعلن الغد جمعة للغضب، ردًا على عنف البوليس في قمع المتظاهرين، وسقوط القتلى في كل مكان، في السويس والقاهرة والإسكندرية والمنصورة، ووضع خده على خدها، النار تلفحهما، ليس في هذا العالم من هي أقرب إليه منها، ولا من هو أقرب إليها منه.

رائحة السجن تملأ خياشيمه، برغم برودة الجو والحمام الذي قضى فيه ساعة كان عطن القبو لا يزال يتصاعد من جسده، من فتحة البلوفر، ويقتحم أنفه، خشي إن هو اقترب أكثر أن تشم رائحته، لكن النار التي تشب فيها كانت تحرقه، وأمها تسعل في الخارج، تنبه إلى أنها هناك.

كان عليه أن يحصل على مساعدتها، فإن لم تمد إليه يد العون لن يتمكن من فعل شيء، وزوج أخته الذي فر بها حتى لا يقابلهما يحتاج إلى المزيد من التفكير، وتحسس جيبه، اطمأن إلى وجود الطبنجة هناك، واقترب، كم هي شهية شفتاها الممتلئتان!!، وكم هو شهي صدرها الذي يضطرب!!، وسعلت الأم من جديد، لكن سعالها كان يجري في مكان بعيد عن سمعيهما.

قالت إنها توجهت إلى ميدان التحرير في أول يوم، تسللت إلى هناك، لم يكن في الميدان إلا بضع عشرات، ومضى الوقت فإذا بالمئات يتوافدون، ومع المساء وصل العدد إلى عشرات الآلاف، ومدت يدها إلى ركن الحجرة، تناولت جيتارًا شاحبًا وراحت تغني:

فات الهوا سلم عليه،

فات السهر ساكن عينيه،

عاد الهوا بين يوم وليلة،

واحنا سوى يا نور عينيه:

اغتنم لحظة صمت وتحدث إليها، أشاح بوجهه وهو يتحدث، لا يريد أن يرى آثار كلماته على وجهها، وطلب معونتها، منذ قليل كان صوتها يرتجف، ارتجافة الحب، والآن هو يرتجف من جديد، لكنها ارتجافة الخوف، قالت:

– في ثورة يارفاعة، ثورة بجد، هاتكنس كل الأشكال دي، بيومي والإمام والحسيني والقاياتي وغيرهم وغيرهم، حتى الجهيني جوز أختك، هاتكنسه هو وأمثاله.

وأمعنت النظر في وجهه، لكنه احتفظ بعينيه بعيدًا، أكملت:

– عارف ده يعني إيه؟!!

لم يجب، أردفت:

– يعني بكره لا هايكون فيه ظلم ولا استبداد، ولا فساد ولا محسوبية، ولا قلة قيمة.

تخيلها تبتسم وهي تواصل:

– ولا فقر.

وجاءته الكلمات متصلة:

– مش هايكون هناك إلا كرامة وعينين مليانة، وبطون شبعانة ونفوس صافية.

أخذت وجهه بين يديها:

– لو كل واحد فكر بطريقتك مش هانتقدم خطوة، ولا هايكون بكره من حقنا.

سألته:

– مش انت برضه اللي علمتني إن الحلول الفردية بتجهض الثورات؟!!

وأعادت عليه السؤال:

– قلت ولا لأ؟!!

وصرخت فيه:

– انطق.

وعادت لتقول وهي تبكي:

– استنيتك بكل ذرة ف كياني، بكل نفس في صدري، بكل فكرة في دماغي، ما سيبتكش تنام لوحدك ليلة واحدة، واخداك في حضني منين ما تكون، حتى ولو في جهنم الحمرا، دلوقتي جاي تدور على أجندتك أنت؟!!، إمال فين أجندة الناس اللي ها تروح التحرير بكره بالملايين؟!، وأجندة اللي ماتوا في العبارات والقطارات، في العماير المهدودة وعنابر الغلب في المستشفيات العدمانة؟!، واللي ماتوا أول امبارح وامبارح والنهاردة؟!، واللي هايموتوا بكره وبعده وبعده؟!، كل دول ليهم أجندات زيك، في ناس خربوا بيوتهم وظلموهم، وعذبوهم وهتكوا أعراضهم.

واعتصرت أنفها في منديل:

– لو كل واحد منهم دور على أجندته الخاصة أو حله الفردي تبقى غابة ووحوش.

بعد لحظة صمت نظرت في عينيه:

– تعرف الناس بتقول إيه؟!!

واضطر لفتح عينيه ليرى وجهها المملوء بالخوف:

– بيقولوا عايزين يسقطوا النظام، كل النظام، وعاصم الإمام ترس في النظام، زيه زي مجدي الحسيني وصفوت بيومي و"أبو داوود"، والقاياتي، تروس في سيستم، يقع السيستم يقعوا كلهم.

لم تتغير صفية، هي هي التي التقاها لأول مرة منذ أكثر من عامين، تقف فوق سلم إدارة الجامعة، من حولها يقف أعضاء فرقة الفجر بآلاتهم الموسيقية، كانت تغني:

يا شمس يا اللِّي هله يا حبنا الحلال،

يا مدهبالنا الغلة يا مكبرة العيال،

يا مخضرة الحدايق،

يا محمرة الحرايق،

يامسيبة الشعور لينا وللخلايق.

يومها انضم إلى الجوقة، وتبادل الغناء معها، لا يعرفون أنه تربى في حضن غناء الشيخ إمام، وحتى تلتقط أنفاسها غنى في ذلك اليوم وحده:

بحلم بيومنا وانتِ إيدك في إيدي،

بحلم وحلمي قد ما انتِ تريدي،

قد الحلال قد القمر ويزيدي،

قد الهموم اللّي تبات شغلانا.

في ذلك اليوم هجم السلفيون على الفرقة لتأديب أعضائها، وشهد بداية حبهما، أصابها طرف جنزير أحدهم فنزف الدم من فمها، حملها وانتحى جانبًا، ومسح الدم عن فمها، كانوا يسبونها، ويصفونها بالفاجرة، الكافرة، مشى معها من بوابة الجامعة وحتى مسكنها في دير الملاك، وتجرأ فأمسك بيدها وهما ينطلقان في الشوارع.

في البداية كانت يدها متصلبة، ومع مرور الوقت لانت، وفي طريقهما غنت بعض أدوار أم كلثوم القديمة، ولما وصلت إلى البيت دعته ليصعد معها ويسلم على أمها، وقبل عزومتها على كوب من الشاي البيتي تعده بنفسها.

يومها عاد إلى دارهم في عزبة النخل محملاً بأثقال رائعة، لم يعرف من قبل أن الحب يمكن أن يكون حملاً ثقيلاً، خاصة إذا كان ليس من حقه أن يتوغل فيه لأبعد من الشاطئ، فلقد ألقى رحيل أبيه على عاتقه أحمالاً ثقالاً: أمًا ثلاثينية، وأختًا التحق بكلية الهندسة، حُلم أبيه، ودونه والحصول

على الشهادة الجامعية أهوال خمس سنوات من الدراسة والمصاريف التي تقصم الظهور، وبنتًا صغيرة، طفلة، تقول إنها ستكون طبيبة، فهل يصير من حقه أن يحلم بأبعد من الشاطئ؟!!، وإذا كانت تلك هي أحماله أفلا يكون الحب حملاً ثقيلاً؟!!.

* * *

صوت الحياة يخرجه من الخضم، ساعة الحائط تعلن الثامنة، الصباح يتنفس بالكاد، هو لم ينم إلا ساعات قليلة فلماذا يشعر بامتلاء جفنيه باليقظة؟!!، مرهف هو إلى حد أنه يدرك أن الأنفاس التي نام عنها في البيت زادت نفسًا، نفسًا مضطربًا، نفس درية، كيف ومتى قدمت؟!!، ولماذا لا يسمع صوتها؟!!، وتجيء أمه لتوقظه فيسألها:

- درية جت؟!!

تهمس الأم:

- بقالها ساعة.

تعالج شيش النافذة ليسمح بدخول شيء من الشمس، وتواصل الهمس:

- خليك حنين معاها.

وتقترب:

- بلاش نبقى كلنا عليها.

تكاد تبكي:

- هانبقى إحنا والزمن؟!

سيقول إنه قصد إليها ليلة أمس ليراها، وليس أكثر، وإذا كانت هانئة بحياتها لن يسبب لها أي حرج، وإذا أرادت منه الانسحاب من حياتها فسيفعل، لأجل خاطرها، وإذا احتاجته في أي وقت يكفيها أن تشير، وستجده إلى جوارها.

وجهها وهي تمسح الدموع يبدو غريبًا، فيه شيء ما، وربما هو الإرهاق وآثار الحمل، لكنها لا تقول شيئًا، ويكتفي بالصمت، وبين الحين والحين يختلس نظرة إلى وجهها المضطرب، تلك أول مرة - كما قالت أمه - يسمح لها زوجها بزيارتهم، وهذا يعني أنه أدرك أن رفاعة لن يتراجع، سيوالي الذهاب إلى حيث توجد أخته، حتى ولو وقع المحظور، والمحظور الذي تخشاه أمه هو الحرب التي ستندلع بينهما.

مع الوقت يصفو وجه درية، من خلف طبقات الإرهاق وآثار الحمل يطل وجه الطفلة، مذعورًا وشاعرًا بالإثم، ويتعجل الحديث، فـ"صفية" ستأتي بين لحظة وأخرى، وهو يريد أن ينهي كل شيء قبل أن تأتي. تبلغه درية بأنها هي المسئولة عما حدث، وعندما يمن الله عليها بالخلفة سيكون طفلها سندها في الحياة، هي لا تشكو من حاجة أو عوز، وإنما من الوحدة، فالشيخ موزع بين بيوته ونسائه، ولا تراه إلا مرة كل أسبوع، والأيام الأخرى تقضيها بين الجدران تتحدث إلى نفسها، فالبيت بلا تليفزيون أو راديو، تضع همها في القرآن، تقرأ وتقرأ حتى تسقط نائمة، والتليفون

يستقبل المكالمات ولا يرسل، وهي على يقين من أن الشيخ يتسمع حديثها إلى من يهاتفها.

درية سجينة دار الشيخ، ولولا أنه لا يملك الوقت كاملاً لتفرغ لمشكلتها، ورأى كيف يضع لها النهاية الصحيحة، لكنه اليوم مشغول، عليه أن يعقد على صفية، وشهدي يتأهب للخروج بحثًا عن مأذون يعقد العقد، وجميعهم لا يدركون حتى اللحظة أن درية فرت من بيت زوجها، لم تطلعهم بعد على ماجرى، فلقد فتحت نافذة قريبة من شقة جارتها، وتعلقت بالشيش، وهزت نفسها به حتى تمكنت من الوصول إلى حافة شرفة الجارة، وفوجئت جارتها بها فكادت تصرخ، لكنها تمالكت أمام استجدائها، وفتحت لها الباب وتركتها تفر.

لم يرهبها ذلك العلو الشاهق، ولا إمكانية سقوطها، شعرت بأن الموت هين جدًا، أهون من الاستمرار في الحياة.

رفاعة فاغر الفم، كأنه يعود إلى سراديب الغياب، ودرية تتحدث، وأمه تطرق إلى الأرض، والدموع تتساقط من عينيها، هو إذن لن يقدر على مغادرة البيت، فالشيخ الذي يعلنون أنه سيتحدث في التليفزيون بعد قليل سيأتي إلى هنا ليأخذ زوجته، وهو إذا خرج سيأتي الرجل ولن يجد إلا أمه وهي، وسيتمكن من أخذها عنوة، وجب أن يبحث عن مكانٍ تذهبان إليه حتى يمكنه التركيز في مهمته.

اليوم عقب عقد قرانه سيدشن أجندته، سيذهب إلى مدينة نصر حيث يقيم الرائد مجدي الحسيني، وهو لا يريد أن تشوب بداياتها شائبة، سيتفقد

المكان ليعرف ما يمكن عمله، وسيكون مهيأً لأي طارئ.

* * *

كلمات المأذون ترفض أن تفارق أذنيه، حتى وهو يقبض على ذراعي الدراجة النارية وينطلق كسهم في اتجاه مدينة نصر، الدراجة التي احتفظ بها أخوه كما هي، لم يلحظه أحد وهو يبحث في كراكيب البدروم عن صندوق الديليفري القديم، يعرف أنه هناك، في مكانٍ ما، وعثر عليه، ثبته فوق عجلة الدراجة الخلفية وانطلق، وجه صفية الرائق يبعث برسائل إلى كل البشر، رسائل امتنان ومحبة، وخوف لا يساويه خوف، هي على يقين من أن ما سيأتي سيكون خطيرًا، والرجل الذي كان حتى قبل دقائق حبيبها، صار حبيبها وزوجها، ولقد قاومت رغبته في إنفاذ قائمته الرهيبة، لكنه أطل عليها من عمق عينيه، لا أحد في هذا العالم كله حتى صابر سيد الأهل لو قام من قبره يقدر على إثنائه.

الشارع الذي تقع فيه العمارة التي يقطن فيها الرائد مجدي الحسيني يختفى تحت أشجار الفيكوس والبونسيانا التي أهملتها يد التهذيب، يدخل رفاعة الشارع فيرى مداخل العمارات تطل بالكاد من تحت مظلة الأشجار المتوحشة، هنا يسكن الرائد مجدي شاكر الحسيني، لا بد أنه الآن في مكانٍ ما يخص عمله، إنه يوم استثنائي في حياة الناس، وفي حياة الشرطة، الناسُ يبحثون عن أمل في حياةٍ بلا خوف، والشرطة تبحث عن محاولة لكسر إرادتهم، وإعادتهم إلى بيوتهم، فإذا كان في الحقيقة مدينًا لأحد، فهو مدين لـ"تايسون"، الذي أطلعه على المعلومات التي يحتاج إليها، وأهمها عنوان العمارة التي يقف أمامها.

يغريه الصمت فيقترب، يمكنه إذا أراد أن يتسلل دون أن يراه أحد، تُرى هل إذا غير خطته وتصرف حسب المتاح الآن سيكون في صالحه أم لا؟!!، تساءل: ما دلالة أن يكون كل شيء ميسرًا لأن يتسلل إلى الداخل دون أن يشعر أحد؟!!، وكيف ظل طوال الطريق يفكر في أن يكون مشواره حاملاً للاحتمالين معًا، الاستطلاع أو التنفيذ؟!!، وإلا لما أعد عدته: السلاح وصندوق الدليفري، وحتى اللفافة التي سيوهم بها من يراه أنه الطعام المطلوب، ربما يمنحه القدر فرصة قد لا يستطيع تعويضها.

لن يتعجب من يراه، ولن يتساءل إن كان أحد يطلب شيئًا في مثل هذا الوقت، فالناس لا تفكر بمثل هذا العمق، ولا أحد عند البوابة، ولكنه لا يعرف إن كان الطابق الذي يقع فيه سكن الضابط هو الرابع أو الخامس، على اليمين صناديق بريد مهملة، عبر خيوط العنكبوت يقرأ الاسم، فرح يشتعل في صدره، الشقة 8 الطابق الرابع، الطابق الأرضي تشغله حضانة الفردوس، تمامًا كما أخبره تايسون، ويدخل المصعد، يغلق الباب ويضغط الزر.

يتحسس الطبنجة في جيبه، إنها هناك، ماذا يسمى هذا؟!!، ألا يكون البواب هناك، وألا يقابل أحدًا عند مدخل العمارة، أو في المدخل، أو حتى في المصعد؟!!، ماذا يسمى هذا؟!!، إلا أن تكون ساعة الثأر قد حلت، ويتوقف المصعد، يدفع الباب فينفتح، يتركه مفتوحًا حتى لا يسحبه أحد، دقات قلبه تتسارع، تتضح حتى لكأنه يدق في أذنيه، ويضغط الجرس، تنطلق في عمقٍ بعيد زقزقة عصفور، ويسود صمت، صوت أنثوي آمر يأتي من عمقٍ ما:

- الباب يا فتحية.

وصوت أنثوي آخر يجيب:

- حاضر يا دكتورة.

يتنبه إلى صوت تدفق ماء، إذا كان ما يتوقعه صائبًا فإنه لن يكون في الشقة سوى الزوجة وابنتها والخادمة، تداعب يده المطواة في جيب سترته، هي أفضل الآن من الطبنجة، واليد الأخرى تحكم وضع الطاقية على وجهه لتخفي ملامحه.

يصمت صوت تدفق الماء، وتقترب أقدام، ينفتح الباب على ابتسامة على وجه امرأة ثلاثينية، سرعان ما تختفي ليحل محلها الخوف، ورغبة في إطلاق استغاثة، في لمح البصر يدخل، يد توجه المطواة المفتوحة إلى عنقها والأخرى تضع السبابة أمام الفم محذرة، من عمق الشقة يأتي الصوت الأنثوي الآمر:

- ها تتسايري معاه يا زفت.

ويصدر الأمر:

- خدي الحاجة واقفلي الباب.

تمتد يده لتفتح الباب برفق، ثم تدفعه لينغلق بصوت تسمعه المرأة التي بالداخل.

يعرف أن الزوجة في أجازة لرعاية طفلتها، يدفع الخادمة صوب المطبخ، في الركن يضع المطواة فوق رقبتها، يسأل عمن في الشقة، تجيبه

ألا أحد غيرها وسيدتها والطفلة الصغيرة، يعود ليسألها عن مجدي فتجيب بأنه لم يبت الليل في الشقة، الآن وقد سيطر على الخادمة يستطيع أن يخرج الطبنجة ويجهزها للإطلاق، وتشهق المرأة وتكاد تسقط على الأرض، لكن السبابة المحذرة تعيدها إلى رشدها، ويدفعها أمامه لتوصله.

في دماغه ينبعث صوت، يحذره، هو لم يلوث بالدم من قبل، فإذا دارت عجلة الدم لن يستطيع إيقافها، ويهزأ من نفسه، لكن الصوت المحذر يعود، فهو يتصرف الآن على غير ما خطط، خطته أن يأتي إلى هنا ليتأكد من المعلومات التي استمدها من ثرثرة تايسون، يراقب المكان إلى أن يظهر مجدي، يقتله ويفر هاربًا، لكنه الآن يغير خطته، يسلك على مقتضى الاحتمال الذي جعله يقبل التغيير، فماذا بعد أن توصله الخادمة إلى سيدتها؟!، هل يقتل الزوجة؟!!، هل يقتل الطفلة؟!!، هل يقتل الأبرياء؟!!، أسئلة تدور وهو يقطع الخطوات القليلة التي تأخذه فيها الخادمة إلى داخل الشقة، حيث تجلس الزوجة في الليفنج تطعم طفلتها.

لم يرَ في حياته وجهًا مرعوبًا كوجهها، ترتدي قميصًا بيتيًا ثقيلاً، وتترك شعرها المشعث يحمل آثار النوم، تلتقط ابنتها من مقعدها الهزاز وتحتضنتها، الآن عليه أن يكون حازمًا، فهو إن تخاذل لن يمكنه تنفيذ ما يريد، يأمر الزوجة المرعوبة في حسم:

– لو طلعتي صوت، هافرغ المسدس في دماغ الأمورة.

تتشبث بابنتها، وتهز رأسها مستجيبة، تظنه لصًا فتمد يدها لتخلع حليها: أسورة كبيرة، وماشاء الله في سلسلة من الذهب الأبيض، وخاتمين

أحدهما خاتم زواجها البلاتيني بفصه الماسي النادر.

يدق جرس الباب، وجهه المختبئ خلف الطاقية الصوفية يجلله الرعب، يسأل بماسورة المسدس التي تقترب من رأس الطفلة:

- مين على الباب؟

تجيب الزوجة في رعب:

- البواب.

عند ركن الرسيبشن يطلب من الخادمة أن تجيب، تتصنع المرأة السؤال:

- إنت جيت يا مخلوف؟

ويأتي صوت من خارج الباب:

- افتحي، ألا أنا ورايا حادات ياما الله يرضى عنِّيكِ.

وتتقدم الخادمة من الباب، وبمجرد فتحه تمتد يده لتجذب البواب إلى الداخل، الرجل ذو الملامح الشاحبة المصبوغة بالخوف يتردد بين الرغبة في المقاومة والامتثال للأمر، ويقترب السلاح من رأسه، يسوقهم إلى الداخل، يوجه الحديث إلى البواب والرجل يطأطئ الرأس:

- أنت راجل لا ليك في التور ولا في الطحين، هانخلص مأموريتنا بالراحة تروح لحالك، لا من شاف ولا من دري.

ثم وهو يدفع فوهة المسدس في دماغه:

- هاتركب الهوا وتعمللي الزناتي خليفة هانزل نافوخك فوق السجادة الجميلة دي، وبرضه لا من شاف ولا من دري.

الرجل المرتجف يجيبه:

- ما جلناش حادة يا خال.

ويرفع يده يتَّقي الخطر:

- ألا السلاح يطول الله يرحم والديك.

ويترك البواب، ويتجه إلى الخادمة:

- وانتِ يا فتحية؟

تتعلق عيناها به:

- إنتِ كمان لا ليكِ في التور ولا في الطحين، ها تسمعي الكلام ها تفلتي بجلدك، ها تتصربعي هاتاويكي، ولا الدبان الازرق يعرفلك طريق جرة.

فتؤكد الخادمة:

- أنا هاخرس خالص، ولو اتنفست موتني.

عقله يعمل بسرعة، والخادمة التي غابت لحظات تعود بحبل بلاستيكي أخضر، يأمر بتكبيل يدي الزوجة ورجليها، ويتردد البواب لحظات، وبتأثير فوهة الطبنجة المصوبة لرأسه يحكم وثاقها، ويربطها إلى فوتيه كبير في ركن الرسيبشن، وقبل أن تتفوه بكلمة يضع جزءًا من مفرش المنضدة في

فمها، ويربط عليه بباقى المفرش، وكذلك يفعل في فتحية الخادمة، ويأتي دور البواب، ويستسلم الرجل ليديه فيما تتوالى الكلمات:

- تعرف يعني إيه حد يقتلك يا واد عمي؟!!، تعرف يعني إيه حد يدبحك؟!!

والرجل الذي استسلم ليديه يكتفي بهز الرأس، وعلى وجهه يرتسم تعبير مؤلم.

الدراجة تنهب الطريق، وتتمايل على الجانبين، والطفلة لا تكف عن البكاء، ولا عن التشبث بمقود الدراجة، تخشى أن تسقط، لكن بكاءها يضيع مع الهواء وبرودة الجو الغائم، يهمه أن يبتعد بها، يبتعد إلى ما لا نهاية، لذا فهو لا يكف عن الفرار، كأن الشياطين تلاحقه، والطفلة التي تتمايل بها الدراجة يجمدها الرعب، وتكف عن البكاء، ويلوح من بعيد النصب التذكاري للجندي المجهول فيدرك أنه ابتعد بما فيه الكفاية.

لا يستطيع التخلص من مواء الأم في أذنيه، فعندما حمل طفلتها واتجه بها إلى الباب صرخت في المفرش المدسوس في فمها، آثار الصراخ في وجهها كانت قاتلة، كأنه مواء قطة تموت، إن مجرد انبعاث المواء في أذنيه يعني أنه في طريقه للفشل، وهو لا يجب أن يفشل، لأنه إذا فعل يكون قد قضى على كل شيء.

إنه إذا ذهب بالطفلة إلى البيت في عزبة النخل سيجهز على فرصته في عمل أي شيء، ويصيب أجندته مع أول خطوة بالفشل، فسرعان ما ستكون الدنيا كلها هناك، في البيت الذي يعرفه القاصي والداني، من أول

قيادات أمن الدولة وحتى أصغر عسكري في الدرك، وكذلك إذا هو أودعها في الشقة عند صفية، فلا شك أنهم يعرفون بأمر الشقة، وصلته بـ"صفية"، وهداه تفكيره إلى الحل.

إن ضياع طفلة غريمه التي جاءته بعد سنوات من الانتظار يساوي قتله، وطالما كان الهدف الانتقام، فإن المتاح الآن هو إخفاء الطفلة، بحيث لا تعود إلى أبويها أبدًا.

تنحرف الدراجة إلى وجهتها، كأنها طائر يلامس بجناحيه الأرض، والطفلة تتشبث بما تطاله يداها، من أسفل الكوبري يعرج إلى طريق فرعي، وعند أول شارع يدلف إلى المقابر، أصوات مكبرات الصوت تعلن عن بدء شعائر الجمعة، أطفال يلعبون في الشوارع، وفي أفنية المقابر، عند باب أحدها يترك الطفلة حائرة، تحشر قبضتها في فمها الصغير، وفي داخل ثيابها حلي أمها.

عاصم الإمام

ولادته الحقيقية جاءت مع اختياره ليكون ضابطًا في أهم جهاز في البلاد، مباحث أمن الدولة، أو كما يحب هو أن يقول: المباحث العامة.

لم يعرف الفارق بين وضعه كضابط في الأمن العام ووضعه كضابط في الجهاز إلا عندما التحق به بالفعل. بداية عمله كانت في واحد من مكاتب الإدارة، وكان في حينه مكتبًا مرموقًا، مكتب مكافحة الشيوعية، التحق به في نهاية عهد أنور السادات، وقُتل السادات فتولى مبارك الحكم، وظل يعمل بالمكتب حتى صار رئيسًا له، يتبعه ضباط وشرطة سريون وموظفون مدنيون، وشبكة هائلة من المرشدين، من الطلبة والموظفين وأعضاء مجالس الإدارات ونقابات في مختلف المصانع والشركات، وكذا أعضاء نقابات مهنية وعمالية وغرف تجارية، بل وضباط في أقسام البوليس المختلفة على مستوى القاهرة الكبرى.

التحاقه بالجهاز جاء وليد الصدفة، فلقد حباه الله بوجه طفولي غريب، لا ينبئ أبدًا عن حقيقة سنه، حتى أنه وهو في أربعينات عمره يظن من يراه أنه بالكاد يتخطى العشرين، وكانوا في أواسط عهد أنور السادات في حاجة إلى من يزرعونه داخل الجامعة ليبدو بين الطلاب كواحد منهم، وتحققت فيه الشروط، وجه طفولي ظاهر البراءة، لطالب هادئ الطباع، صبوح الطلعة، يدخل إلى قلب الزملاء من أقصر طريق.

اعتباره كواحد من ضباط الصدفة في الجهاز الرهيب أساء إلى شخصه، كانوا ينظرون إليه في شذر، كواحد من الانكشارية كما يطلقون عليهم، فرضته الظروف، والظروف فقط، ليكون ضابطًا في الجهاز الذي تقتصر

عضويته على أبناء الأسر المعروفة بانتمائها الكامل للنظام، لكن الانكشاري ذا الوجه الطفولي أمسك بالفرصة و لم يفلتها، واستطاع أن يتغلب على مرارة احتقاره بين زملائه بتجويد صنعته والإبداع في عمله حتى صار محط الأنظار.

جاء وقت لم يعد مناسبًا فيه استمراره في العمل كطالب، ترقى وصارت رتبته تعوق أداءه، والتجاعيد التي ظهرت على استحياء في جبهته وحول عينيه أشارت إلى نوع من الشك يتعلق بحقيقة عمره، تعضدها بعض التراكيب التي اضطر لعَملها في فمه تعويضًا لفقدان بعض أسنانه، ولما اتسع نشاط المكتب ليشمل ملاحقة الليبراليين إلى جانب الماركسيين والناصريين الذين خفتت حركتهم في الجامعة والمؤسسات العامة والشارع السياسي بوجه عام دخل في طورٍ جديد، صار يعهد إليه باختيار أعضاء النقابات والاتّحادات ومجالس الإدارات، واختيار عمداء الكليات والوكلاء ورؤساء الأقسام، وإعطاء التقييم لاختيار رؤساء الجامعات ونوابهم، ومديري الأمن والحكمداريين ومديري مديريات البحث الجنائي والرؤساء بها، والمأمورين ونوابهم ورؤساء المباحث، واختيار المرشحين الحكوميين لعضوية البرلمان ومجلس الشورى، وتقييم أداء المحافظين وأعوانهم ورؤساء المدن، وحتى رؤساء الوحدات المحلية على مستوى الشياخات والقرى.

لم يعد أحد ينظر إليه كانكشاري، بل صاروا يدينون له بالفضل؛ لدأبه وسعة اطلاعه وذاكرته الحديدية، وقدرته على قيادة مجموعات عمل مختلفة في نفس الوقت، لكن الأهم من كل ذلك هو عبقريته في اجتياز كل الاختبارات التي تعرض لها، وأخطرها ما يسمونه بزقزقة العصفور الناري.

بعد ممارسة جرعات عالية من تعذيب المسجونين وقف صامدًا أمام كل الأجهزة الحديثة، و لم تظهر عليه حتى بوادر انبعاث زقزقات الندم اللعينة، قال الرؤساء الذين قيَّموا أداءه إنه يقتل ليس فقط الزقزقات النزقة ولكن العصفور نفسه.

انفتحت أمامه كل الأبواب المغلقة، منها أبواب لم تكن موجودة في أفق معلوماته، وهكذا وجد نفسه في قلب الأحداث، وضعوه معهَا وجهًا لوجه، وأسندوا إليه الإشراف على وحدة مكافحة الإرهاب الدولى، بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، والموساد، اسم الوحدة يسيء لها كثيرًا، ولا يعبر عن حقيقة حجمها، فعدد الضباط والجنود المنضمين إليها بالمئات، وتدريبهم يجري على أحدث النظم، في صحراوات أمريكية بعيدة، وفي النقب، ومن مهامها تأمين القصور الرئاسية والوزارات السيادية، ومبنى وزارة الداخلية ومقرات أمن الدولة، ومبان وأجهزة سرية لا تنفصل عنها.

تدريب القناصة التابعين للوحدة كان يجري على قَدَم وساق، وظن عاصم في البداية أن وجود القناصة هو من قبيل الترفِ، إلى أن رده رئيس الجهاز إلى عقله، فكل شيء في هذا البلد متصور، من أول المعقول وحتى اللامعقول، وهكذا اضطلع بمهمة اختيار الضباط والأفراد التابعين للوحدة، وانتقى من بينهم من يتدربون على القنص، وأشرف على الاختبارات التي خضعوا لها، ثم اتسعت الدنيا فجأة فإذا به يطلع على أخطر ما يمكن أن يطلع عليه ضابط شرطة.

دُعي ذات يوم لحضور حفل تخرج بأحد معاهد تدريب الأمن المركزي، ظن أنها مجرد فرقة تدريبية عادية، مما اعتاد عليها منذ التحاقه بالشرطة، لكنه فوجئ بأنها مخصصة لتدريب فرقة القناصة في الأمن المركزي، ورأى ضباطًا يمتشقون بنادق القنص الباركر هيل والبيريتا وسيج، كلهم يجيدون التنشين، واستعرضوا مهاراتهم في حضوره، وقنصوا أهدافًا على بعد أكثر من نصف ميل، هؤلاء سيتم توزيعهم على قطاعات الأمن المركزي، وعلى إدارة العمليات الخاصة التابعة لقطاع الأمن المركزي.

في تلك المناسبة نشأت إدارة شديدة السرية، مهمتها عمليات القناصة بكافة قطاعات وزارة الداخلية، ومنها قطاع أمن الدولة، وعهد إليه برئاسة هذه الإدارة، وهكذا صار عاصم الإمام هو المشرف على توزيع القناصة على الأماكن التي يتوقع حدوث قلاقل فيها، وأيضًا لتأمين مواكب الرئيس وأفراد أسرته.

في ذلك اليوم البعيد أدرك عاصم الإمام أنه لم يعد كأي ضابط آخر، صار محملاً بأسرار لا يمكن الاستغناء عنه بسبب سريتها وخطورتها، وكما قال هو نفسه عندما أمعن النظر في التطورات، إن من هم مثله لا يخرجون إلى العراء، إنهم إما يتقاعدون في هدوء ليستمتعوا بما تبقى من حيواتهم في رغد للعيش بمستويات فوق أسطورية، وإما يتم التخلص منهم بالقتل، ولا شيء غير، وقد يتم الاستعانة به كخبير لدى جهات سرية يشرف على قطاعات التدريب فائقة السرية فيها.

في أمن الدولة كلفوه بالإشراف على إدارة سرية أخرى، مهمتها

إجهاض أي تحرك شعبي على مستوى واسع، يختار من أول الضباط وحتى أحط الفئات، الوحوش الكاسرة التي يُسمّنها ليطلقها على الأوغاد، هكذا يسمون المحتجين وقادة التمرد، وكان يختار الوحوش من بين مجندي الأمن المركزي الأميين، وكذلك من المحبوسين في مختلف الحبوس والحجوز على ذمة اتهامات الاغتصاب واللواط والفجور، وكان دائمًا ثاقب النظر، حتى أنه في فترة من الفترات لما رغب ابن الرئيس في خلافة أبيه، وظهر الاحتياج لأعداد من اللواطيين الفحول زار معسكرات الجيش والسجون وداخليات المدارس، وانتقى مجموعة جديدة سرعان ما درجت في منظومته الجبارة وأدت عملها على أكمل وجه.

التطور الأعظم كان عندما عهد إليه بالتعاون مع تنظيمات دينية خاصة، باعتبارها من الأدوات التي يدخرها النظام لمقاومة انتشار الإخوان، وللجم الغضب المتصاعد لجماعات الأقباط، وإجهاض الاحتجاجات داخل الكنائس.

صار بحاجة إلى مسحة دينية تجلل وجهه الصبوح، و لم يكد يمضي شهر حتى ظهرت في جبهته علامة صلاة ثلاثية الأركان، واحدة علوية عند منتصف الجبهة، متصلة بامتدادين فوق الزاوية الضيقة لكلا الحاجبين، و لم تعد تفارق المسبحة أصابعه البيضاء النظيفة التي تشبه أصابع الملائكة، بل إن طريقة لبسه اختلفت، فلم يعد يرتدي الملابس الكاجوال التي يرتديها الشباب، ولا البذات الرسمية بقمصانها الناصعة وربطات العنق الأنيقة، صار يرتدي البنطال الواسع والجاكت المفتوح فوق قميص مخطط بدون

ربطة عنق، و لم ينسَ أبدًا أن ينبه على الترزى بأن تكون قدم البنطال تمامًا عند حافة الحذاء العلوية.

صار يؤدي الصلاة في مواقيتها، ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويصوم أوائل أيام الشهور العربية، وكافة المناسبات الدينية، بل ويعتكف أيامًا في نهاية شهر رمضان، حتى صار معروفًا بين زملائه بالورع والبعد عما يثير الشبهة.

يصعب النفاذ إليه من طريق النساء، والذين رأوا زوجته في المناسبات التي حضرتها قالوا إنها امرأة سمراء ممتلئة، خشنة الملامح، يظهر هو إلى جانبها كقمر يجاور شطرًا من الليل، وبرغم ذلك لم يُعرف عنه أيُّ ميل لامرأة سواها.

لكنه كان متمرسًا في شئون تنمية موارده، بصورة أعجزت زملاءه عن ملاحقته، حصل على رخص عديدة لإنشاء مستودعات لمواد البناء، وتحصل بموجبها على حصص معتبرة من الأسمنت وحديد التسليح، مكنته من ادخار أموالٍ لا يُستهان بها، سرعان ما عرفت طريقها إلى المصارف، وأضافت عقاراتٍ وأراضي إلى ملكيته، وبنى مصنعين أو ثلاثة لإنتاج البلاط في ضواحى حلوان، حصل لها على حصة من الأسمنت الأبيض والعادي، وأوامر توريد دائمة إلى العمليات الحكومية في إنشاء المدارس والمستشفيات وعمارات الإسكان، كما تمكن من الحصول على تصاريح بإقامة مجموعة من مزارع الدواجن، وقام بتوريد ناتجها إلى مطابخ نوادي الوزارة في القاهرة والمحافظات المختلفة، وأيضًا إلى الفنادق والمطاعم التي

يسيطر عليها الجهاز، ودخل شريكًا في مصانع لصنع الأحذية والحقائب الجلدية، وبين الحين والحين كانت تأتيه إخباريات بفرص للربح محققة في البورصة فيشتري وفقًا للإخباريات أسهم شركات بعينها، ويعيد بيعها في مواقيت تنتقيها الإخباريات أيضًا، وحافظ على علاقة دائمة مع الرجل الذي أشرف بنفسه على وصوله إلى عضوية البرلمان، الحاج صفوت بيومي، التاجر ذائع الصيت، وشاركه في مشروعات كثيرة، وصار ابن الأستاذ عبد الحميد الإمام الموجه السابق بالتربية والتعليم رجلاً خطيرًا ومهمًا، ومليونيرًا كبيرًا، لا يقدر أحد حتى هو نفسه على إحصاء ثروته.

هو من اقترح على وزير الداخلية إنشاء مجموعات من مجندي الأمن يرتدون الملابس المدنية، ويتسلحون بقضبان حديدية يخفونها في أرجل سراويلهم، ويندسون بين المحتجين أو المتظاهرين أو المعتصمين، ويقتنصونهم الواحد بعد الآخر، ويشبعونه ضربًا بقضبانهم فيحدثون بهم إصابات بالغة بأقل مجهود، وهو من اقترح على الوزير استعمال النساء المسجلات في جرائم النشل والمخدرات والدعارة؛ للاندساس بين المتظاهرين لهتك عرض الفتيات وكشف عوراتهن، وهو من استحدث إدارة كاملة مهتمهًا تشويه سمعة المعارضين وإلصاق التهم الأخلاقية بهم، وتزييف صور وكليبات لعريهم وتهتكهم، وهو أول من فكر في انتهاج أسلوب الضربات الاستباقية، وذلك بتشويه سمعة كل من يظن أنه منافس أو مناوئ حقيقي أو مظنون لابن الرئيس في وراثة الحكم خلفًا لأبيه.

لا غرو إذن أن يكون من أوائل المدعوين لتشكيل نواة صلبة تتمكن

من عصب الدولة مهمتها الانتشار بتؤدة وإصرار للتمكين للابن من الوصول إلى سُدَّة الحكم، وهناك في الاجتماع تعرف على الشيخ "أبو داوود الجهيني"، وصار من خاصة ملازميه وأصدقائه، بل إنه كان يدعوه بين الحين والحين ليحاضر في ضباط الإدارة والمكاتب المختلفة، وتحول الإعجاب المتبادل إلى صداقة يصعب أن تنفصم عراها.

في منزله كان شخصًا مختلفًا، وحريصًا على إبعاد أبنائه عن دائرة عمله، فابنه الأكبر الذي شقَّ الصفوف فبزغ نجمه في الثانوية العامة دخل كلية الطب عن جداره، وبمساعدةٍ منه تحصل على درجات الشفوي كاملة، شأنه شأن أبناء أعضاء هيئة التَّدريس، ونجح في النهاية بتقدير امتياز أهّله لنيل نيابة جراحة الأوعية الدموية التي تؤهله للعمل كمعيد في الكلية لنفس التخصص، وابنه الثاني الذي لحق بأخيه في البزوغ في الثانوية العامة رفض الالتحاق بكلية الشرطة، والتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية قسم اللغة الإنجليزية، ليحقق حلم حياته في الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، أما ابنته الأخيرة فقد التحقت بكلية الصيدلة، وتقدمت زملاءها لثلاث سنوات متتاليات، مما يؤهلها لأن تُعين كمعيدة في الكلية.

بخبثه الفلاحي لم يكن يتحدث عن أبنائه أمام زملائه، فهو يعتقد في الحسد والعين، وغيرها من الأمور المتعلقة بالخوف الفطري من النفوس الضعيفة، التي تكره الخير للآخرين، وبهذا الخبث أيضًا لم يكن يبسط يده كل البسط في الصرف على أبنائه، فنشؤوا قنوعين بأقل مصروف، حتى أنه في الكثير من الأحيان كان يجبرهم على قبول المزيد، ويندهش لقدرتهم

على تدبير أمورهم بأقل القليل، والفضل في كل ذلك يرجع إلى زوجته، السيدة التي كرست حياتها لأبنائها، فحصلت مع كل منهم على الشهادة التي يجتازها، تنام معهم وتستيقظ معهم، وتساعد في تنظيم مواعيد المذاكرة والدروس التي لا يخرج واحد من أبنائها لتلقيها، فالمدرسون يأتون إلى البيت في سرية، وفي المرحلة الجامعية تستقدم الأساتذة لإعطائهم الدروس، في سرية أيضًا، و لم يستخدم الرجل سلطته لتخفيض المقابل، هو يعطي المقابل المطلوب وأكثر، ولا يطلب المجاملة إلا في قبول القدوم إلى البيت في سرية.

نقله موضوع التوريث إلى مصاف الكبار على مستوى الداخلية كلها، وبرغم ذلك ظل يؤدي عمله بإتقان، غير مرتكن إلى أفضليته لدى مؤسسة الرئاسة، وعندما اندلعت الأحداث تم استدعاؤه في ختام اليوم الأول إلى القصر الجمهوري، ليكون من بين من يقدمون تقييمهم لما يجري، للسيد الرئيس وأفراد عائلته وأجهزته الرئاسية، وزراء ورجال أعمال، وشيوخ وقضاة، ومحامون ونواب، كلهم كانوا يتبارون في تسفيه ما يحدث، والتأكيد على أنه سرعان ما سينحسر ويسفر عن لا شيء، فما يجري في تقييمهم هو انتفاضة جسد عجوز يركن بعدها إلى السكون... والصمت.

هو على يقين من أن الكثيرين منهم يعرفون أن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة، فلقد مات الكثيرون في أول يوم، وبرغم ذلك تنتشر الاحتجاجات والإضرابات في أماكن جديدة، ولا تنفك تتسع وتتسع،

ولأن التجربة علمته ألا يسارع بمعارضة تيار سائد، حتى لا يكتسب عداء الجميع، ويخسر في النهاية تقدير الحكام، فهم قبل أي شيء يريدون أن يروا ضوءًا في نهاية النفق، لذا فقد لزم الصمت حتى قارب الاجتماع على الانفضاض، وأسر في أذن الوزير اقتراحًا بالانتقال إلى الخطة ج، التي تعني أن النظام يواجه تحديًا خطيرًا قادرًا على الإطاحة به.

قبل أن ينفض الاجتماع استغل وجوده في مكان منعزل عن الباقين، وهاتف مكتبه، آمرًا بإرسال قوة كافية إلى فيللته في التجمع الخامس؛ لتتولى حراستها وحراسة أسرته، وتزويد القوة بالقنابل اليدوية ومدفع أر بي جي على سبيل الاحتياط، ثم هاتف البيت، وأخبر زوجته أنه لن يتمكن من العودة إلى البيت في الأيام القليلة القادمة، ولن يكون في مكتبه أيضًا، وعليها ألا تهاتفه، وهو الذي سيهاتفها هي والأبناء.

الجمعة 28 يناير (2)

فندق النيل دورشِستر Nile Dorchester واحد من الفنادق القديمة الواقعة في حي الزمالك، مبنى عريق مشيد على الطراز القوطي، أنشأته وزارة الأشغال العمومية المصرية في عشرينات القرن الماضي لحساب دار المندوب السامي البريطاني وبالمواصفات التي حددتها، في واحد من الشوارع المسقوفة بالأشجار الخديوية، أطلق عليه الإنجليز اسم أعرق فنادقهم مسبوقًا بلفظ النيل تمييزًا له عن الفندق الشهير، واستخدموه كمقر لبعثاتهم التي لا تنقطع.

لما قامت ثورة 23 يوليو استعاده المصريون، إذ لم يدفع الإنجليز في بنائه بنسًا واحدًا، أغلق لسنوات إلى أن تقرر استخدامه كمقر لإقامة ضيوف الدولة، ممن يزورونها بشكلٍ غير معلن، واستخدمته المخابرات العامة في بعض أعمالها، ومع مجيء أنور السادات إلى الحكم أُعيد غلقه، حيث جرى تجديده ليكون مقرًا لأعمال غامضة لم يستطع أحد أن يعرف الكثير عنها، وأقام فيه رجال أعمال غامضون وضيوف أكثر غموضًا، رجال ونساء وفنانات ومغنون، وآخرون، جاؤوا ثم مضوا دون أن يعرف أحد من هم، ومن أين جاؤوا، وإلى أين مضوا، وصارت له شهرة غير مستحبة، كواحد من الأماكن التي تُستخدم في أغراض غير مفهومة.

وجاء مبارك إلى الحكم فأُعيد غلقه، إلى أن تسلمه جهاز أمن الدولة، واستخدمه في أعماله، إقامة قادته واجتماعاته وعملياته المختلفة.

بوابة حديدية تفتح على حديقة رائعة، يشقها مدخل جميل بين صفين من نخيل الزينة، يفضي إلى ساحة صغيرة، تتجمع عند بضع سلمات

رخامية تقود إلى مدخل هادئ، حيث الريسيبشن الأنيق واللوبي الفخيم الذي تتخلله أعمدة رخامية بيضاء ذات تيجان مذهبة، تتناثر في ثناياه فوتيهات يغوص فيها المرء حتى أكتافه، بين المناضد تتهادى نادلات يرتدين تنورات قصيرة تكشف عن سيقان رائعة، وقمصان بيضاء مفتوحة الأزرار، كأنما فتحت تحت ضغط الأثداء المتمردة.

على أحد الجوانب في العمق بار صغير، تتراص فوق أرففه كل أنواع المشروبات، وبضع فوتيات ومناضد محاطة بدرابزين خشبي رقيق، وفي الجانب الآخر ممر فيه مصعدان يؤديان إلى طوابق السكنى، وإلى النايت كلوب الذي يشغل السطح كله، بما فيه الروف.

في أحد الفوتيهات يغوص تايسون بهيئته المتنافرة، قاده إليه أحدهم وطلب منه الانتظار، فالباشا سيأتي بعد قليل، يستطلع تايسون بعينيه الزائغتين كل شيء، وينفذ بنظراته الجائعة في مؤخرات النادلات، ومفارق صدورهنّ، زيارة كارفور بالأمس ظاهرة على هيئته، وملابسه المتنافرة تدل على ذوقٍ لم تتم تربيته، حذاء رياضي أبيض، فوق جوربين صوفيين أسودين، بنطال من الصوف كحلي اللون، ذو خيوط بيضاء متباعدة، وقميص كاروه متعدد الألوان، ورابطة عنق صفراء بوردات حمراء متناثرة، وبلوفر أخضر ثقيل بياقة عريضة، وفوق هذا سترة بنية ذات مربعات داكنة، وشعره الذي لم يحسن تصفيفه يلمع بفعل كريم أو زيت أغرقه به.

ويمر الوقت فإذا باللوبي يستقبل أناسًا آخرين، لهم نفس الهيئة، ويرتدون ملابس تدل على زيارات مماثلة للمولات التي تم نهبها بالأمس.

اللواء الإمام هو من أرسل في طلب قادة المجموعات التي أخرجوها من السراديب والأقبية، لم يسبق أن رأى تايسون اللواء الإمام رأي العين، سمع به مرات، في الحبوس التي تنقل بينها، وفي الأسابيع الأخيرة من رفاعة سيد الأهل، ومن الرائد مجدي الحسيني في إحدى المرات، والآن بعد ليلة طويلة في حياة الحرية هو على موعد معه.

قبل مجيئه إلى هنا كان يتحدث إلى رفاعة في التليفون، صوته يحمل تهديدًا، وفيه بحة شريرة، وقتامة، سليمان اللنش هو من اتصل به، جاءه الصوت كأنما يستدرجه، ولما سأله رفاعة عن تايسون اضطرب، وبعد فترة جاءه صوت تايسون يسأل أين هو، فأجابه بأنه في طريقه إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، ويعاتبه الصوت القاتم المبحوح:

– مش اتفقنا نتقابل الصبح؟!

فيبتسم رفاعة:

– أنا مانمتش أساسًا الا الصبح، يادوب الحاجة صحتني للصلاة.

الصمت أبلغ من الحديث، ولم يعد شك في أن خبر خطف الطفلة بلغه، وأنهم في أروقة البوليس يشكون فيه، وابتسم من جديد، لا بأس من ملاعبتهم حتى نهاية الشوط، مجدي الحسيني، وجهاز أمن الدولة، ورفاق القبو إذا لزم الأمر، وعلى رأسهم تايسون.

لكن قبضته الغاضبة دقت جبهته بعنف، لا يصح مع بداية التنفيذ أن يقع في خطأ أيًا كان حجمه، فما البال إذا كان الخطأ قاتلاً، منذ البداية حرص

على أن يباعد بين أخيه شهدي وأجندته، لا يريد أن يورطه في تنفيذها، لم يبح له بشيء، هو إذن يقدمه وأمه وأخته لقمة سائغة للمنتقمين، فإذا أراد أن ينجح تدبيره عليه أن يحذرهم، وعلى الفور، وكذلك صفية.

لا أمان لأحد، فـ"سيد القشاش" رفيق الاتفاق لم يتصل ثانية، ومنذ أبلغه بالأمس بما جرى لم يمده بمعلومة واحدة، و"أبو داوود الجهيني" زوج أخته الذي كان يتحدث في الصباح على الشاشة عن حرمة الخروج على الحاكم حتى ولو كان فاجرًا يستطيع بسهولة أن يعرف عنوان صفية، عن طريق مباحث أمن الدولة التي عاش العمر يعمل لحسابها، ومن ثم فإن فكرته في إخفاء درية هناك تبدو له الآن فكرة ساذجة، خائبة، تنبئ عن ضحالة لا تليق بغاضبٍ يملك أجندة هي حياته القادمة.

بعد طول انتظار يرد شهدي على اتصاله، يقول إنه في طريقه إلى مسجد الفاروق القريب، حيث سينطلق من هناك إلى ميدان التحرير، يسأله رفاعة في هدوء:

– أنا مش عايزك ترتبك، وجاوبني على قد السؤال.

الصمت يقذف باللهب في وجهه، يضيف بقلبٍ مرتجف:

– عندك مكان أمين لأمك وأختك وأم صفية؟

ويندفع شهدي:

– ليه؟!!، فيه إيه؟!!

يعضّ على نواجزه، ويعاود السؤال:

– من غير ليه وإيه، فيه عندك مكان ولا لأ؟!!

ويلح شهدي:

– طب بس قوللي.

يكاد يبكي من الغضب:

– يابنى رد عليه، فيه ولا مفيش؟

على الجانب الآخر يجيب شهدي:

– أيوه يا سيدي، فيه فيه.

ويردف مستعطفًا وخائفًا:

– يا خويا عرفني، فيه إيه؟!!

وكأنما تشق الكلمة صدره، وتفتح قلبه المغلق على أسراره فيجيب:

– عملت حاجة هاتخليهم ينتقموا مني، دلوقتي على طول، أقرب شيء لانتقامهم أنت وأمك وأختك وصفية وحماتي.

ويصمت شهدي فيردف:

– ما تسألنيش عملت إيه، ولا ازاي، ولا ليه، كل اللي عاوزه منك ترجع البيت حالاً، تاخد أمك وتوديها المكان اللي أنت بتقول عليه، وتكلم صفية تاخد درية وأمها وتنزل تقابلك.

ولأن صوت شهدي لا يجيب يسأل رفاعة منزعجًا:

- سامعني يا شهدي ولا لأ؟

على الجانب الآخر يأتيه صوت أخيه، حزينًا ومنكسرًا:

- حاضر يا رفاعة، حاضر يا خويا.

* * *

لما أخبره اللواء عاصم الإمام بخطف ابنة الرائد مجدي الحسيني قفزت إلى ذهنه صورة رفاعة، لا يعرف تايسون لماذا رفاعة بالذات، فالذين قام الرائد مجدي بتعذيبهم يستعصون على الحصر، ويمكن أن يكون أحدهم هو الفاعل، أو واحد من خصوم أبيه اللواء السابق، أو حماه وهو لواء شرطة سابق أيضًا، لكن ذهنه لم يستقبل إلا صورة رفاعة، ومنذ وقر في داخله هذا والشعور بالمسئولية يلازمه، فلقد استدرجه الفتى حتى عرف منه الكثير، عن حياة الرجل، وعن علاقته به، بل إنه اندلق كالدلو وحكى عن معاناة الضابط حتى رزق بطفلة، وحتى يثبت خصوصية علاقتهما أخبره بعنوان سكنه، الآن هو على يقين من أن ما جرى ليس إلا نتيجة لخفته.

لم يبلغ اللواء عاصم بالأحاديث التي دارت على مدار الليالي المتعاقبة بينه وبين رفاعة، لكنه أبلغه بشكه، وعلله بحديث رفاعة عما فعله به الضابط مجدي، وكيف أنه أدخل خيزرانة في مؤخرته وسط تهليل وتشجيع زملائه، ورمقه اللواء الإمام بنظرة زلزلت كيانه، لكنه امتصها، وحشد كل خبراته ليخفي اضطرابه.

يقدح زناد فكره ليفهم أسباب شكهم هم أيضًا في رفاعة، لكنه

لا يستطيع، ولا يقدر حتى على الاقتراب من منطقهم في الشك فيه دون غيره.

يعرف أن الساعات القادمة ستحمل الإجابة على الأسئلة الحائرة، وعلى سؤاله أيضًا، لم يكن الرائد مجدي حاضرًا ليشعره بالمزيد من الحسرة والغضب، قال اللواء الإمام إنه في منزله، يعاين الشقة ويحافظ على الأدلة، ويشارك في مواساة زوجته التي أصابها انهيار عصبي.

النار تضطرم في صدره، فعلى مدى سنوات عمره لم يفعل أحد به مثلما فعل رفاعة، حتى من كانوا أكبر منه وهو نزيل المؤسسة لم يقدروا على قهره، ففي تلك الأيام كان يلجأ للقوة ليعوض ضعف تفكيره، وعندما ذبح أمه وعشيقها لم يستطع فكره أن يعمل بالطاقة التي تكفي للتعامل مع الحدث، وجد نفسه عند أعتاب مجدي الحسيني، وفكر الضابط نيابة عنه، جعله يُبلِّغ بعد يوم واحد من غيابها، وتراخت الشرطة في البحث حتى أبلغ سكان العمارة أن رائحة نتنة تنبعث من شقة الضابط السابق، ولما كسروا باب الشقة عثروا على الجثتين متحللتين، واستدعوه لسؤاله فبكى أمام المحققين موت أمه، ورأى هناك زوجة عشيق أمه السابقة، وأولاد الرجل منها، وعندما بدأ ضباط المباحث التركيز معه للبحث عن علاقته بالحادث وقف مجدي إلى جواره، ومنعهم من احتجازه، وتعريضه للتعذيب المعتاد ليحصلوا منه على اعتراف.

هناك دين في رقبته للرائد مجدي الحسيني، لن يمكنه الوفاء به إلا إذا استرد طفلته، إن كان رفاعة خاطفها، وقتله عقابًا على فعلته، وعلى

استدراجه للحصول منه على معلومات، وعلى الاستهانة به، وعلى التآمر عليه مع رفاق القبو الذين حكوا له عن كل شيء، وكيف أنه أقنعهم بضرورة الهجوم عليه وتجريده من سلاحه، بل وقتله إن اضطروا لذلك.

قال إنه غفر لهم، أو هكذا تظاهر، وطلب أن يمكنوه من رفاعة، ولا يضطروه إلى التعامل معه بطريقة مباشرة، حتى لا يأخذ حذره.

هو الآن نادم على كل لحظة تركه فيها يتنفس، نادم على أنه لم يقتله عندما استقلوا الميكروباص من جوار القسم، أو وهو يهبط معطيًا ظهره له، نادم على انفلات لسانه وكل الأحاديث التي تبادلها معه، لا يقدر على حصر كل شيء قاله، فحتى حكاية أمه وعشيقها حكاها له، وحكى كيف مد له مجدي الحسيني يد العون، وكيف ساعد في الوصول بالقضية إلى قيدها ضد مجهول ومن ثم حفظها.

يتساءل إن كان يمكن أن يمد يده ويمسح كل تلك الأحاديث؟!!، ويغمض عينيه في يأس، ويضرب جبهته هو أيضًا بقبضة قوية، غاضبة، ويعض على أسنانه.

في مقهى صغير في الشارع الخلفي المار بفندق رمسيس هيلتون سيقابل الرفاق، الناعم واللنش والأعور والكبش، هناك سيتسلم العهدة من أحدهم، وما إن تنتهي صلاة الجمعة حتى يأخذوا مع الآخرين مواقعهم عند مداخل ميدان عبد المنعم رياض وفوق كوبري أكتوبر، يتساءل ماذا لو تأخر رفاعة و لم يأت؟!! ويشعر بأنه يفكر في الاتجاه الصحيح، فليلة أمس ترك القشاش مع تيمور في حجرة مستقلة لينعما بليلة خاصة، هدفه

أن يتخلص تيمور من فوران الرغبة الذي يقتل إبداعه، فهو إذا سكن نداء مؤخرته يستطيع أن يفعل الكثير.

يتعجب، فـ"سيد القشاش" يندفع صوب تيمور بصورة لا يصدقها هو نفسه، والأمر الذي بدأ في صورة علاقة عابرة يتطور أمام عينيه، كأنهما يخططان للبقاء معًا لفترة طويلة، وهو لم يضع أمر القشاش أمامه لينظر فيه على مهل، يعرف أنه بصاص من الدرجة الأولى، وقدرته على مراقبة الآخرين تفوق قدرة عشرة من الرجال المدربين، ولكنه لم يفكر في أمره كثيرًا، عليه إذن أن يهدئ من ثائرته، ثم ينظر في شأنه.

كلمات رفاعة تنبئ بأنه لم يبد لهم من أوجهه في القبو إلا ما يريد، يقول إن تجار المخدرات تعلو لديهم حاسة الحذر، أكثر من غيرهم، أكثر من أبناء الليل أنفسهم، ورفاعة ليس مجرد تاجر مخدرات، إنه محام، دراسته تؤهله لأن يفكر أكثر، ويحذر أكثر، فإذا كانت أحلامه -كما قال- هي التي دفعته لأن يبحث عن النقود من أي طريق فإن أمور الانتقام لا يمكن أن تكون بعيدة عن تفكيره، ومعها قدر أكبر من الحذر.

ينظر في وجوه الرفاق، يتساءل عمن يكون عين رفاعة منهم، و لم يجد إلا سيد القشاش، هو الوحيد الذي يمكنه أداء هذا الدور.

تايسون لا يعرف لماذا يكره هؤلاء الذين يتظاهرون من أجل ما يسمونه بالحرية، ويتساءل: أية حرية؟!!

إنهم يملكون كل شيء، الأهل، والدور العامرة، والتعليم الراقي،

والملابس الرائعة، والصحبة التي تعين على الحياة، ما الذي ينقصهم ويخرجهم على الملأ يعلنون تمردهم؟!!، إنه يكرههم حتى من قبل أن يشرح له الرائد مجدي الحسيني ما هو مطلوب منه بالضبط هو ورفاقه، فهؤلاء كما يرى لا يقدرون الأمن الذي يعيشون فيه، ولا يقدرون البلد الذي يوفر لهم كل ما بين أيديهم، يكرههم بشدة، بالضبط كما يكره رفاعة، الذي ضحك عليه واستخدمه دون أن يدرى، وهو إذ يدعي أنه كان نائمًا فإن شيئًا في صوته قال إنه كاذب، وإنه يلاعبه، فإذا كان الأمر كذلك فمرحبًا به، لأنه سيجعله يعود إلى سابق عهده، يوم أن كانت قوته تعوض بطء تفكيره.

في محيط المكان يسمعون انفجارات قنابل الغاز البعيدة، آتية من شارع القصر العيني، وعند ميدان باب اللوق، وعلى مشارف ميدان طلعت حرب، بدأت إذن أحداث الحرب، وها هم الذين وُعِدَ بالتنسيق معهم يفدون من كل مكان، ويبدؤون في التحرك.

موقعه أسفل كوبري أكتوبر، ليتمكنوا من صد الزاحفين من شارع رمسيس أو القادمين من طريق الكورنيش وعبر كوبري 15 مايو إلى ميدان عبد المنعم رياض ومنه إلى ميدان التحرير، يمرون في طريقهم بعربات الأمن المركزي المجهزة بالمدافع العلوية، وتشكيلات الجنود بخوذاتهم المعدنية وعصيهم ودروعهم السميكة، وعربات مدافع الماء بمزاغل قاذفاتها وفتحاتها العلوية، كل شيء متأهب.

فماذا لو لم يأت رفاعة؟!!، ولا يجد إجابة.

يطلب من اللنش أن يطلبه من جديد، وينشغل سليمان بشاشة التليفون، وينظر إليه في النهاية، إنه لا يرد، وقبل أن يطلب إليه تكرار لمحاولة يرن تليفونه هو، ويأتيه صوت رفاعة، يؤكد أنه قادم في الطريق، ويضطر لأن ينبهه:

- إحنا دلوقتي تحت الكوبري.

يسأله رفاعة أي كوبري يقصد؟ فيجيبه:

- كوبري أكتوبر يا بني آدم، عند عبد المنعم رياض.

* * *

الدراجة النارية تمخر عباب الشوارع المتأهبة، عليه أن يكون هناك قبل أن تلعب الفئران في عب تايسون، لقد استقرت أمه وحماته ودرية في المكان الذي اختاره لهن شهدي، وهو لم ينطلق من موقعه في أحد شوارع مصر الجديدة إلا بعد أن اطمأن إلى ذلك، وصدق ما توقعه، أنهت إليه صفية قبل قليل أن رجالاً غامضين جاؤوا إلى العمارة التي تقع بها شقتهما الجديدة، واقتحموها، ولما لم يجدوا أحدًا حطموا الأثاث وأشعلوا فيها النار، والجيران أخمدوها قبل أن تستشري.

وبعد نصف ساعة لا أكثر من مغادرة أمه بيتهم طارد الجيران أناسًا تسللوا إلى البيت، قبل أن يتمكنوا من عمل شيء، هم إذن يفكرون على نحو ما يتوقع بالضبط، يريدون أن يحصلوا على ما يمكنهم من المساومة،أو الانتقام، وإذا لم ينجحوا في الوصول إلى شيء سيتعاملون معه هو، وبطريقة

مباشرة، إما بأنفسهم أو باستخدام رفاق القبو، والأقرب إلى أن يكون المكلف به هو تايسون، وتايسون لا يتعامل إلا بطريقته.

صافي في طريقها هي الأخرى إلى وسط البلد، غادرت غمرة منذ قليل، وهي الآن تنتظم مع الجموع في شارع رمسيس، أما شهدي ورفاقه فيقتربون من ميدان العتبة، وبعد عدة شوارع سيكونون على أبواب الميدان.

هل يستمر في خداعهم؟!!، أم يتعامل معهم على المكشوف؟!!، ينظر إلى ما فعله قبل ساعات، إنه في الحقيقة لم يفعل شيئًا، فبدلا من أن يمتع ناظريه بدم مجدي الحسيني اختطف طفلته، وليته احتفظ بها، لقد ألقى بها في مكان غريب، وقد يحالفها الحظ وتعود إلى أبويها بأسرع مما يتوقع.

تضطرب يداه فوق مقود الدراجة ويغرق في السكون، لا يسمع هدير الموتور، ولا صخب الشوارع البعيدة، الذي كان منذ لحظات محملاً بهتافات غامضة، ولا أصواته الداخلية التي لم تكن تكف عن السريان، هي الآن تكف، كما تكف الشوارع عن بث ضجيجها، ماذا سيفعل إن هو اتجه إلى حيث يتمركز الرفاق؟!!، تايسون والناعم واللنش والأعور والكبش... وسيد القشاش.

أين سيد القشاش الآن؟!!، لماذا صمت؟!!، لماذا لم يعاود الاتصال؟!!، تقتله فكرة أن يكون قد باعه لـ"تايسون"، معنى أن يصمت ولا يعاود الاتصال يحمل على الاعتقاد بصحة التوقع، أو على الأقل بإمكانية حدوثه، على التليفون الرقم الذي اتصل منه، بإمكانه أن يتصل به ليرى

ما يكون، لكنه إذا فعل سيكون الاتصال تحت نظر تايسون، وحتى إذا كان القشاش بعيدًا عنه فإن الأوفق هو عدم الاتصال حتى تتضح الرؤية.

يخرجه رنين التليفون من حالة الصمم، يضعه على أذنه بيد، فيما اليد الأخرى تحكم القبضة على مقود الدراجة، ينصحه تايسون بالقدوم من جهة ماسبيرو، لكنه ينعطف إلى شارع الجلاء، وفي دقيقتين يجد نفسه في وكالة البلح، أسفل امتداد كوبري أكتوبر الذاهب للالتقاء بكوبري 15 مايو، ما يدريه أن يكون تايسون قد أعد للأمر عدته؟، وأنه هو أو أحد من أعوانه ينتظرونه في ماسبيرو؟

ما الذي يمكنهم عمله إذا أرادوا أن يتيقنوا من ضلوعه في خطف طفلة الرائد الحسيني؟، يجيب، يضعون أيديهم على أمه أو أخيه أو أخته، أو صفية، أو هم جميعًا، وهذا ما حاولوا فعله، ما الذي يمكنهم عمله غير هذا؟، يتنصتون على تليفونه، أو ما إن يظهر ويكون في متناولهم يأخذونه إلى غياهبهم، وما أكثرها! لكنه لم يجرب بعد إمكانية الاستمرار في ملاعبتهم، هم وتايسون العتيد، ويضع الدراجة في مكان خلفي ويدس مفتاحها في شق بجدار قريب، وينطلق للقاء الرفاق.

لا يصدق تايسون أنه جاء، يلحظه بطرف عينه، ويتعمد القشاش تجاهل نظراته، كأنه لا يريد أن ينبه تايسون إلى ما هناك، شيء ما يقول إن القشاش لم يبح لـ"تايسون" بسرهما، بإمكانه أن يختلي به عندما تسنح الفرصة، ويعرف ما الذي دار في فترة غيابه.

كل ما يعرفه القشاش هو أن تايسون تركهما في الصباح، وتوجه إلى

مكانٍ ما، يرجح أن يكون ذهب للقاء الرائد مجدي الحسيني، والقشاش على يقين من أن الأمر يخصه هو ولا أحد غيره، فمنذ عاد تايسون من اللقاء المجهول وهو قلق، يريد أن يعرف إن كان سيجيء أم أنه أدار لهم ظهره، ويشير رفاعة برأسه في اتجاه تيمور، ويطرق القشاش إلى الأرض وبسمة عريضة تجلل ملامحه.

العين لا تحيط بكل هؤلاء الذين يتكدسون أسفل الكوبري، وفوقه، وعند مدخل شارع رمسيس من ميدان عبد المنعم رياض، والحشود القادمة من ميدان رمسيس تقترب، بإمكانه أن يرى قنابل الغاز وهي تفرقع هناك، وسحابة دخان هائلة تجلل سماء الشارع البعيد، وتايسون لا يكف عن اختلاس النظر إليه، يرى في أعماق عينيه شك، لو أنه مكانه الآن، ورآه قادمًا برغم معرفته بالهجوم الذي قادوه على بيتهم في عزبة النخل وعلى شقته هو وصافي لداخله الشك هو أيضًا، فما الذي يدفعه للمجيء إن هو بلغ مأربه؟!!، ويستمرئ اللعبة، يقترب كثيرًا من تايسون، ويجهز هو أيضًا كأي واحد منهم أدواته، التي سيقاتل بها القادمين من أعماق الشوارع ينشدون الميدان.

هو الآن واقف عند حدود المستحيل، فهؤلاء الذين يقاتلهم فيهم أخوه، وزوجته التي لم تمر سوى ساعات قليلة على عقد قرانه عليها، وبدلاً من أن يكون معهم ها هو يقف في صفوف مقاتليهم، شأنه شأن تايسون واللنش والناعم والكبش والأعور والقشاش والمئات من أمثالهم، يعلق كيسة الأحجار في رقبته، ويملأها أولاً بأول، فالسيارات القادمة من

الجيارة ومصانع الرخام ومصانع الأدوات الصحية تفرغ حمولاتها من كسر الرخام القاتل وتسرع لتأتي بالمزيد، ويتمنطق كما يتمنطقون بالخناجر والمطاوي، وفي كمر بنطاله تستقر الطبنجة المعبأة بكامل طلقاتها، وتحت الإبط كيسة أخرى بها المزيد من الطلقات.

تأتيهم الأخبار بأن الحشود تصارع للعبور إلى الميدان من بر الجيزة، عبر كوبري قصر النيل، تمامًا كما تصارع هنا في ميدان عبد المنعم رياض، وعند ماسبيرو وعلى طريق الكورنيش، وعبر شارع القصر العينى المحتشد بالقوات التي تحرس مداخل مجالس الشعب والشورى والوزراء، ووزارة الداخلية في لاظوغلى، وينخرط تايسون في القتال، الآن يمكنهم أن يصيبوا المتظاهرين في مقاتل، فاعتلاؤهم وصلة كوبري أكتوبر يمكنهم منهم، وكسر الرخام يندفع في اتجاههم فيضرب الرؤوس والوجوه، والصدور والأطراف ويحطمها، ويلحظ رفاعة بداية تشكيلات الإسعاف بين المتظاهرين، فمن يسقط منهم يحمله بعضهم ويغيبون به في اتجاه الصفوف الخلفية، بل إن المتظاهرين يتناوبون القتال، إذ يقترب فريق منهم ويبدأ في قذف الأحجار في اتجاههم، وبعد دقائق ينسحبون بجرحاهم فيما يتصدر المشهد آخرون.

لم يشعروا بمرور الوقت، وتحين التفاتة من رفاعة الذي أصابه حجر أسال الدم من رأسه، وإمعانًا في الانخراط مع الرفاق يرفض محاولاتهم تضميد جرحه، يعرف أنه جرح هين، ولا يستأهل عناية من أي نوع، فقط يكف عن نزف الدم، ثم يأخذ طريقه إلى الشفاء.

لكن الميدان يأخذ شكلاً مختلفًا، فالشمس التي تميل في اتجاه الغرب تكشف أماكن هجرتها القوات، انسحبت في غمرة المعركة، كأنها تبخرت، أو كأن يدًا امتدت فمحتها من المشهد، ويدركون أنهم وحدهم في مواجهة الحشود المثخنة بالجراح، والغاضبة إلى أقصى حد، ويتنادون إن كانوا سيواصلون القتال إلى ما لا نهاية، وتنطلق من بينهم أصوات العالمين ببواطن الأمور، ومنهم تايسون، لينسحبوا إلى أماكن يعرفونها، تاركين الحشود تندفع صوب الميدان.

مئات من المتظاهرين ماتوا، لا يشكون في هذا لحظة، والمنظر في الميدان ينبئ بأنهم يشرعون في إنشاء مستشفى ميداني، خلف مطعم هارديز القريب من الجامعة الأمريكية، بإمكان رفاعة إن أراد أن ينضم إلى المتظاهرين في الميدان، فحسبما أبلغته صفية سيكون ملتقاهم عند المنصة التي سيقيمونها ما إن يتمكنوا من النفاذ إلى هناك، والمرجح أنها ستكون قبل شارع البستان بقليل، حتى يستطيعوا أن يأخذوا الكهرباء من أعمدة الإرشادات المرورية المنتصبة هناك، لكنه يفضل البقاء مع الرفاق، فلقد أبلى اليوم بلاءً حسنًا، وعليه أن يستثمر الانطباع الذي حفره بنجاح في دماغ تايسون، والذي لا بد سينتقل إلى أدمغةٍ يتمنى لو يعرف من هي، وأين تكون.

المقهى الذي تراجعوا إليه يقع قريبًا من مدخل فندق هيلتون رمسيس، في الشارع المؤدي لماسبيرو، نفس المقهى الذي التقوا فيه رفاق الحبوس المختلفة، الآن بانت الخطة، انسحب البوليس ذي الزي الرسمي، لكن

الأفراد الذين يرتدون ملابس مدنية ينبثون في كل مكان، بأسلحتهم الحادة، خناجر وسكاكين ومطاوي، وسنج وسيوف وبلط، وقضبان حديدية تكسر الرؤوس والأكتاف والأقدام من ضربة واحدة، بعضهم يجلس في المقهى، ويستعرض الأدوات في إهمال ونفاذ صبر.

منذ ساعة لم يظهر تايسون، اختفى فجأة من بين المهاجمين، وكان أنشطهم جميعًا، لكن رفاعة لم يبتلع الطعم، ظنه أنه هناك في مكانٍ ما، يراقبه ليرى كيف يسلك. وهل يشارك في مهاجمة المتظاهرين أم يتظاهر بذلك، وعندما عادوا للمقهى لأخذ قسط من الراحة قبل تغيير خطة الهجوم، والتعامل مع الوضع الجديد وجدوا أنفسهم في مواجهة أنفسهم، الآن، المتمردون في الميدان بمئات الألوف، ولم يعد يمكن الاستمرار في الهجوم عليهم باستخدام نفسِ الطريقة، لا بد أن لدى تايسون الحل، لكن شيئًا ما غير عادي يرسم خيوطًا من الحزن والغضب على ملامحه، وكان قد عاد للتو، ويقترب القشاش من أذن رفاعة:

– الكلب مات.

ينخلع قلبه وهو يسأل:

– مين؟

– مجدي الحسيني.

الصدمة بالغة، الصمت الذي لا تكون معه فائدة تذكر، لا للكلام ولا حتى لطرح الأسئلة، فقط يستطيع أن يقرأ فوق ملامح تايسون آلاف

الكلمات التي لطالما تمنى أن يطالعها، أحرفها وجرسها، ووقعها على الأذن، وتجيئهم صفارات مكبرات الصوت تنطلق من الميدان القريب، ميدان التحرير الغاص بالبشر، وكلمات مبحوحة متوترة تطلب من الأطباء الموجودين في الميدان التوجه إلى المستشفى الميداني، وتطلب مساعدات طبية ومتبرعين بالدم، ويقف رفاعة مترددًا، بين أن يذهب إلى الميدان ليكون بين المتظاهرين، وبين أن يظل إلى جوار تايسون ليعرف حكاية موت مجدي الحسيني، إن كان ما أسر به القشاش صحيحًا.

لم يعد شك في أن مجدي الحسيني لقى حتفه، لم يستمع لنصائح رؤسائه ونزل بنفسه ليطارد رفاعة، أو من يظن أنهم من وراء خطف طفلته، وقادته قدماه هو وبعض أفراد قوة المباحث وعلى رأسهم عبد الحفيظ المطراوي البلوكامين إلى بعض الأماكن التي ظن أن طفلته ربما تكون فيها، واضعًا ترتيبًا لمن يشك أنهم من وراء خطفها، و لم يخجل تايسون وهو يبلغ رفاعة بأنه كان في طليعة المتهمين بالخطف، ويتودد إليه، يبلغه أنه قال للواء عاصم الإمام إنه لا يشك لحظة واحدة في براءته، فهو شاب متعلم، ومسألة تجارة الحشيش كانت مجرد مرحلة في حياته ذهبت إلى حال سبيلها.

ورود اسم اللواء الإمام على لسان تايسون يصيب رفاعة بالدهشة، لكنه يفضل تجاهل الأمر، فلو سأله عنه سيثير لديه الشك، إن كان قد هجره كما يبدو من عينيه وتفصيلات وجهه المرهقة، يفضل رفاعة أن يغرق مع الغارقين في تفصيلات قتل مجدي الحسيني، ولينتظر خبر التقاء تايسون اللواء الإمام قليلاً.

مجدي الحسيني كان يواصل البحث عن ابنته، وبدلاً من أن يختفي من المشهد كما فعل زملاؤه ويبتعد كما ابتعدوا عن طلاب الانتقام خرج إلى الشوارع، و لم يكن بها إلا الثائرون وأرباب السوابق الذين أطلقوهم من حبوسهم، ورصده بعضهم، يتقدمهم طارق الكوارشي فتوة الماظة، الذي سبق وألقاه الحسيني في القبو لأشهر طويلة، وأطلق عليه واحدًا من كلابه ففجر به، رأوه يسير على قدميه ومعه بعض رجال المباحث فطوقوهم، وانقضوا عليهم، واقتنصوهم.

لم يمنعهم قتل اثنين منهم من الوصول إليه، كانوا في حاجة إلى مضاعفة الجهد ليسيطروا على أفراد القوة، فلقد قاوموهم بشدة، وأطلق عليهم الضابط النار حتى فرغت ذخيرته، ولما تمكنوا منهم تحفظ عليه بعضهم فيما سحب الباقون أفراد القوة إلى شوارع جانبيه، وهناك أطلقوا على رؤوسهم النار فماتوا من فورهم، واختصوا رأس المطراوي بطلقات كثيرة، بعثرت جوهر مخه في كل مكان، حتى أنه لطخ ملابسهم، وكانوا يتصايحون منتصرين، ويرددون:

- الله أكبر.. الله أكبر.

وكانت الطلقات والصيحات تصم أذنيه.

لما عادوا إليه كان المكلفون به قد نزعوا عنه ملابسه، صار عاريًا كما ولدته أمه، وكان عضوه المنكمش يثير الشفقة، وكذلك خصيتاه المشمورتان، وجسده الشاحب بشعيراته القليلة عند مفرق الصدر وفوق الساقين والساعدين، وعيناه المليئتان بالرعب، الفيديو الذي يرصد وقائع

القتل يظهر فيه الكوارشي وهو يداعبه بسن المطواة، ويوجه إليه الحديث:

– اطلب الرحمة يا جنابه.

فينطلق يسترحمهم، بلغة يضج معها المحيطون بالضحك، ضحك غريب، صاخب ومستهين، وشامت، وكوارشي يستنهضه ليطلب المزيد، وأمام الكاميرا يسطر بسن المطواة فوق الجسد الشاحب المرتعد خطوطًا دامية، في الصدر والكتفين وحول العانة، ويسيل الدم من كل مكان، وفي لمح البصر، ودون أن ترصد الكاميرا حركة اليد المدربة تنغرس المطواة في الكتف، تصم الآذان صرخة عاتية، أقسى من أن تكون صرخة ألم، وترصد الكاميرا المطواة غائصة حتى نصف النصل، وتنطلق صرخة ثانية، وتضطرب الكاميرا مع ضجة هائلة وتهليل وصخب، والصيحات تتتابع:

– الله أكبر.. الله أكبر.

وقبل أن تنسحب أحرف النداء تشق المطواة الصدغ الأيمن، ويبين أن الضابط بدأ في الانهيار، فالدم يتدفق من كل مكان، وقواه تخور باضطراد، ولم يعد يقدر حتى على رفع رأسه، فيحملونه ويضعونه فوق ظهر سيارته، ويحضرون حبلاً ويربطونه من رقبته، ويصعد إليه الكوارشي، في يده طبنجته المعمرة، يرفع رأسه ليريه لكل المحيطين الذين أصابهم سعار الدم، ويهذي طالبًا منهم تصويره بكاميرات تليفوناتهم.

يحكم جذب الحبل ليرفع الرأس قدر المستطاع، وينادي على الرفاق من جديد:

– صوروا ابن الوسخة، صوروا الظااااالم.

وتقترب الكاميرات فتتضح معالم الوجه، لكنه يغيب من المشهد فجأة، فلقد أفلت الكوارشي الحبل، وارتطم الرأس بسقف السيارة، الكوارشي يصوب الطبنجة إلى الرأس ويطلق عليه رصاصة، تستقر فوق الأذن، وينفجر الرأس بصورة تدفع الكوارشي نفسه لأن يشيح بوجهه بعيدًا، وتنطلق أصوات مشجعة:

– اللـه ياركله.

ويركله الكوارشي بقدمه فيسقط من فوق ظهر السيارة.

الدموع تطفر من عيني تايسون، ويتعجب رفاعة، فـ"تايسون" الذي يبكي مقتل الضابط هو نفسه تايسون الذي يتلاعب بأجساد الضحايا كأنه يتلاعب بخرقة، ويتعجب أكثر من الرفاق الذين لا يتورعون عن قتل أمهاتهم، وتضامنًا مع فتوتهم يكادون هم أيضًا يبكون.

صوت غريب ينطلق في داخل رفاعة، يقول إن موت مجدي الحسيني سيغير كل الخطط، ينظر إلى الرفاق وهم يقبلون على التهام طعام ألقته سيارة غريبة عند أبواب المقهى ثم انسحبت، كأنهم لم يكونوا من دقيقة واحدة يشاهدون واقعة تخرج الأمعاء من أفواه أصحابها!!، وحده تايسون هو الذي يطرق إلى الأرض في انكسارٍ وحزن، ويتساءل رفاعة مستغلاً انكساره:

– العمل إيه دلوقتي؟!!

يرفع تايسون رأسه، يجيب في انكسار:

– مش عارف.

ويطرق إلى الأرض لحظات، ثم يرفع رأسه ويقول:

– حاسس أن روحي ها تطلع يا أخي.

ويقترب منه رفاعة، يأخذ كتفيه بذراعه ويربت عليه، الجسد الضخم ينتفض من الحزن، والغضب، والنار، برغم برودة الجو، يرفض الهدوء، ويرمقه القشاش بنظرةٍ ماكرة، يختبر صمود اتفاقهما، ويتجاهله رفاعة بابتسامةٍ مطمئنة، ويعود ليلح على تايسون:

– نتفرق وكل واحد يروح لحاله؟!

ولا يجيب تايسون فيقول في نفاذ صبر مقصود:

– رسينا يا بن ياسر، نروح بيوتنا ولا نعمل إيه؟!

أخيرًا يقول الفتوة:

– سيبوني أسأل وأقوللكم.

ويعود رفاعة ليسأل في مكر:

– هاتسأل مين لسه يا معلم؟!

ويجيبه تايسون:

– إيه يا عم؟!، مالكم؟!!، الراجل اللي مشغلنا هو اللي يقول نقعد

ولا نتنيل على عيون أهالينا نقعد.

ويرتفع صوت عباس الكبش:

– راجل مين يا كبير؟!!، ما الراجل أهه، مات وشبع موت.

يشير إلى التليفون، ويجيبه تايسون:

– الراجل الكبير أوي يا أبو قرون، اللي مشغلك ومشغلني، ومشغل ديك أم الهلمة اللي أنت شايفها دي كلها.

ويعود رفاعة إلى التودد، يهمس في أذنه:

– طب ما تسأل يا عم وخلصنا.

وإذ يجده مصغيًا يردف هامسًا:

– إن كان آه نكمل، لآااااااه كل واحد يروح لحاله.

ويجيب تايسون على الهمس بالهمس:

– يا سيد أهلك دول ولاد صرمة، مالهمش أمان.

ويعتدل في جلسته:

– الهيصة دي ها تخلص ها تخلص، وكل باب ها يرسى على عقبه، وساعتها هايعرفوا مين فينا اللي سمع الكلام ومين اللي خلع.

الفرحة تتراقص في قلب رفاعة، فها هو تايسون يأنس إليه من جديد، يعود إلى الحالة التي كان عليها ذات يوم، عندما فتح قلبه وأخرج كل

ما فيه، وبرغم ذلك يعرف أن هذه الحالة مؤقتة، فالجرح الذي أحدثه موت مجدي الحسيني هو الذي ألجأه إلى هذه الدعة، وعندما يندمل الجرح سيعود إلى الشك، وإلى التصرف كقبضةٍ لا تعرف إلا توجيه اللكمات، وهو لا يعنيه من كل ما يدور سوى أن يعرف من هو الكبير الذي يصدر الأوامر، وأين يمكن العثور عليه، ويغتنم الفرصة فيسأل:

- يعني ها نرسى الليلة دي على بر؟!!

ويفاجئه تايسون:

- تعال معايا لو عايز، الفندق هناك أهه، على بعد خطوتين.

عبد العزيز القاياتي

محمود القاياتي حصل على ليسانس الحقوق باجتهاده، ثم التحق للعمل بالنيابة العامة بمعجزة، أبوه حسانين القاياتي كان كلافًا في حظائر دائرة شمعون في مديرية البحيرة، ولما قامت ثورة 23 يوليو تم بحث الأب ضمن مستحقي أراضي الإصلاح، وتملك هو وأسرته خمسة أفدنة، وتحول الكلاف بين يوم وليلة من أجير إلى مالك، وانتقل من حالٍ إلى حال، وكان من ثمرة ذلك أن أرسل ابنه "محمود" إلى المدرسة الابتدائية مستغلاً كونه ساقط قيد، وكان الولد في العاشرة تقريبًا، وساعدت السن الكبيرة "محمود" في أن يتقدم في دراسته، فحصل على الابتدائية، والتحق بالمدرسة الإعدادية وفقًا للنظام الذي استحدث في ذلك الوقت، ولما اجتاز المرحلة الإعدادية التحق بالمدرسة الثانوية، وحصل على الثانوية العامة فالتحق بجامعة الإسكندرية، طالبًا بكلية الحقوق.

محمود كان طموحًا بما يكفي لأن يدرك أن الزمن موات، غير معاكس، وأنه إذا تفوق سيمكنه الالتحاق بسلك القضاء، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي، واعتاد العمل في شهور الصيف ليدخر شيئًا من ناتج عمله للصرف على دراسته في الجامعة، لذا لزم أن يظل بالإسكندرية طوال الوقت، وهكذا فإنه منذ التحق بالجامعة لم يكن يعود إلى قريته إلا في زيارات خاطفة، يرى أمه وأباه وإخوته، وربما أعمامه وأبناءهم، ويعود لينخرطَ في عمله من جديد.

شيئًا فشيئًا صار كل من يسأله عن موطنه يقول، إنه من مواليد الإسكندرية، وعاش بها حتى تخرج من الجامعة، لا تعوزه الذكريات عن

المدينة الرائعة، ولا معرفة الأماكن والأحياء والمناسبات، وأسماء العائلات التي نزحت إليها من قديم، والمعالم الشهيرة ومواقعها، فهو لم يترك مكانًا فيها أو حيًا إلا وعمل فيه، في المعمار وما يرتبط به من مهن أجادها كلها، فهو بناء وعامل محارة ونقاش، ونجار مسلح وحداد إذا لزم الأمر، ومع نهاية الدراسة صار يتكتم حقيقة وضعه الاجتماعي، ويحرص على إخفاء انتفاع أبيه بالفدادين التي وزعتها الثورة.

تخرج من الجامعة بترتيب أهَّله لأن يترشح للالتحاق بسلك القضاء، وتم تعيينه معاونًا للنيابة في نيابة شبين الكوم الكلية، ومن يومها أعلن عداءه لثورة يوليو، التي ناصبت الأثرياء العداء، وسرقت أموالهم وأراضيهم وأخرجتهم من البلاد مطرودين شر طردة، وكان يحلو له أن يضرب المثل بالمسكين جبرائيل شمعون اليهودي الرائع، الذي استولت الثورة على أمواله واقتسمها قادتها، كما اقتسموا أراضيه ووساياه وتفاتيشه وقصوره، وأعلن لكل من يعرفه أنه من أسرة وفدية عريقة هي أسرة القاياتي، التي تنحدر من المغرب العربي، وقدمت إلى مصر مع مطلع القرن التاسع عشر، واستوطنت المنطقة الواقعة بين مديريتي الدقهلية ودمياط.

استتبع هذا الادعاء الامتناع عن التواصل مع إخوته وأبناء أعمامه في قريته الأصلية، وباستثناء حضوره جنازة أبيه وشطرًا من ليلة مأتمه انقطعت صلته بأهله، و لم يعد يعرف أحدًا إلا أهل زوجته السيدة ناهد حلاوة، التي جاء أبوها من مدينة السويس ليعمل مهندسًا زراعيًا وباحثًا بمعهد القطن، وكان قد تزوجها أثناء عمله وكيلاً لنيابة الدخيلة، وكانت في ذلك الوقت مدرسة لغة فرنسية بمدرسة ثانوية للبنات.

المهندس فؤاد حلاوة لم يكن قد رزق إلا ببنتين، كبراهما ناهد التي تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية وعملت في التدريس، وسماء التي تخرجت من كلية التجارة وعملت محاسبة في جمرك الميناء، وجمع الرجل كل ثروته واشترى قطعة أرض في منطقة رشدي، أقام عليها عمارة رائعة، واشترط على من يتقدم للزواج من واحدة من ابنتيه أن يقبل الإقامة في العمارة، في الشقة الفسيحة التي خصصها لكل واحدة منهما، وهكذا نال محمود بك ما كان يتمنى، عروسًا معقولة، حسنة التربية وذات جمال هادئ، وموظفة تعول نفسها، سواء من راتبها أو مما يمدها به أبوها بين الحين والحين، وشقة رائعة بمنطقة راقية، بعد أن أجاد الوقوف متمنعًا أمام شرط الأب، وأظهر أنه قبل على مضض.

عبد العزيز الابن نشأ في رشدي، وعرف العبث بكل شيء دون محاسبة، فأمه بعد رحيل أبيها تمتلك مالاً يكفي لأن تغدق على أسرتها، وأبوه رئيس نيابة شرق الإسكندرية، وتعلم الولد منذ نعومة أظافره قيادة السيارات والجرى على الكورنيش، دون خوف أو رهبة، وعلى أعتاب الجامعة اشترت له أمه سيارة ميني كوبر صغيرة كانت حديث الإسكندرية كلها، حطمها في سباق مجنون مع واحد من أترابه، وخرج من الحادث مدججًا بشرائح ومسامير في رجليه وحوضه، وانفصالاً في الشبكية استدعى سفره إلى ألمانيا لزراعة شبكية جديدة، وعاد من ألمانيا بعين أبصرت بعد ظلام، وظل يمشي على عكازين لمدة سنة، وتخلف عن دخول امتحانات الثانوية العامة بعذر طبي، ولما تقدم للامتحان بعد عامين نجح بالكاد، و لم يجد المستشار بدًا من أن يلحقه بكلية الشرطة؛

ليقينه بأنه إذا ألحقه بكلية الحقوق لن يمكنه الحصول على شهادتها.

المستشار محمود القاياتي رئيس محكمة الجنايات كان رجلاً متعاونًا، محمود السيرة في أروقة الشرطة ولدى رجال الحزب الوطني الحاكم، ولا تمر مناسبة إلا ويرسل برقيات التهنئة لرئيس الجمهورية وحرمه وولديه، ولوزير الداخلية ووزير العدل ومحافظ الإسكندرية، وبعد إلحاح برقياته صارت تأتيه برقيات مقابلة ممن يهنئهم، وعلى الرأس منهم رئيس الجمهورية، فكان يحتفظ بها ولا يمل اطلاع زملائه وأصدقائه عليها.

جاءته أخبار كثيرة عما يقوم به ابنه عبد العزيز ورفاقه، في أيام العطلات التي يأتون فيها إلى الإسكندرية، والكمائن الوهمية التي ينصبونها على الكورنيش، لاصطياد الفتيات اللائي يقدن السيارات الخاصة والتظاهر بعمل مخالفات مرورية لهنَّ، ثم التجاوز عن التحفظ على السيارة التي تفتقر إلى شروط الأمن والمتانة أو سحب رخصة القيادة لقاء أخذ تليفون الفتاة أو ضرب موعد لالتقائها، وكذلك الاعتداء على أصحاب السيارات الخاصة وسائقي التاكسي، وعبثًا حاول أن يوقف الولد عن ممارسة تلك التجاوزات، لكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح.

إلى أن جاء يوم قتل فيه سائق سيارة أجرة، في واحد من تلك الأكمنة، لا يعرف أحد مَن من رفاق عبد العزيز بالضبط هو الذي أطلق العيار فاخترق صدر السائق وأَرداه قتيلاً، لكن الخبر وصل إلى المستشار رئيس الجنايات مبكرًا، قبل أن تحرر الشرطة محضرها وتحصر الأدلة التي عثرت عليها في موقع الحادث، لم يكن على يقين من ضلوع ابنه في الحادث، لكنه شعر

بذلك، بطريقة قال لزوجته إنها فريدة، وإنها تنبئ عن خيط رفيع يربطه بالله، ففي كل مرة يرد فيها ذكر الحادثة كان يرى وجه ابنه في السديم، عابسًا مرة، وخائفًا مرة، فقصد إلى مكتب اللواء مدير المباحث الجنائية بمديرية الأمن، وأبلغه بتخوفه.

كل شيء بعد ذلك سار كما يجب، غلت يد رئيس مباحث القسم الذي يتبعه موقع الحادث، وتولى مفتش من مباحث المديرية الاستدلال وحصر الأدلة وإجراء التحريات، وألقى القبض على كل من يظن أنه سيتقدم للشهادة، ووجه إليه اتهامًا شفاهيًا بالضلوع في القتل، وجاء الاتصال بأهل المتوفَّى ختامًا لجهود البحث، سألوهم إن كانوا يشكون في أحدٍ بالذات فأجابوا بأنه واحد من رجال الشرطة، في الكمين الذي كان منصوبًا في المكان الذي سقط ابنهم فيه، وعرف محاموهم أن الكمين المنصوب كان كمينًا صوريًا، وتفرع البحث ليشمل المسجلين في نشاط السرقات بإكراه، وبوسائل مبتكرة كادعاء أنهم من رجال البوليس أو الجيش، واتسعت دوائر الاشتباه بصورة أورثت أهل القتيل الذهول، وجاءت اللحظة الفاصلة، اللحظة التي سيعرضون فيها على أهل القتيل التعويض، ولكن كيف سيكون الأمر؟!!

تفتَّق ذهن المستشار عن حيلة قبل بها مدير المباحث، ولكن على مضض، جاؤوا بأحد الأشخاص من المسجلين في قضايا النصب، وهو شاب وسيم الطلعة، وقالوا لأهل القتيل إن تحرياتهم دلت على أن هذا الشخص هو مرتكب الواقعة، ولكنهم لا يستطيعون استعمال العنف معه

لإجباره على الاعتراف، فأهله ومحاموه أبلغوا بوجوده في قبضتهم، وإنهم إذا قدموه متهمًا بالتحريات فقط سيحصل على حكم بالبراءة، من أول جلسة، ونصحوا بالتفاوض معه للحصول على تعويض، خيرًا من خسارة القضية والتعويض معًا.

القتيل كان شابًا فقيرًا، يعمل بالأجر على سيارة أجرة مملوكة لتاجر أدوات صحية في منطقة الماكس، وهكذا دخل الرجل هو أيضًا في التفاوض، وانتهى الأمر بالاتفاق على تعويض أهل القتيل بمبلغ خمسين ألف جنيه مقابل التوقيع على إقرار بأنهم لا يتهمون أحدًا بقتل ابنهم، وعلى إيصالات أمانة على بياض حتى لا يعودوا إلى إثارة الأمر من جديد، ورست سفينة الحادث إلى بر النجاة.

تخرج عبد العزيز من كلية الشرطة، وتقدم للالتحاق بسلك النيابة، أعفى وزير الداخلية والده من دفع تكاليف دراسته في كلية الشرطة بموجب التفاهم الذي أبرمه وزيرًا العدل والداخلية، وعبثًا حاول الأب أن يقنع ابنه بالعمل في دائرة محافظة الإسكندرية لكن الابن رفض، قال إن عمله في القاهرة يضمن أن يكون إلى جوار صناع القرار، وهكذا التحق بنيابة من نيابات القاهرة الكلية، وسرعان ما جرى توزيعه للعمل بإحدى جزئياتها.

يحب أن يتسم عمله بالحسم، والقوة، فالناس يخافون ولا يخجلون، ورجال الشرطة يعملون في ظروف شديدة القسوة، ويتعاملون مع حثالة البشر، مجرمون ودهماء وغوغاء وجهلة، وإذا لم تقم النيابة بمد يد العون

لرجال الشرطة فإنهم لن يتمكنوا من ضبط إيقاع المجتمع الذي يعوم فوق بحيرة من الفساد والجريمة، وهكذا اشتهر عن عبد العزيز بك خلطه عمل البوليس بعمل النيابة، فهو يحقق لينتزع الاعتراف من المتهمين، وقد يضطره الأمر إلى صفع المتهم أو ركله، إذا اعتصم بالإنكار في مواجهة أدلة وقرائن لا تقبل الشك، كما اشتهر عنه شدة الحرص على قهر إرادة أيِّ متهم يحقق معه، فكسر الإرادة أول معاول هدم الإنكار، وأول لبنة في بنيان الاعتراف.

سمع أباه ذات مرة يقول إن قانون الإجراءات الجنائية وضع لمساعدة المتهمين على الإفلات من العقاب، بالضمانات التي يوفرها لهم، كضرورة وجود محام معهم أثناء التحقيق، وكذا إهدار الاعتراف إذا كان وليد إكراه، كائنًا ما كان قدره، وحق الدفاع في مناقشة شهود الإثبات، دون اعتبار لرأي القاضي في مناسبة أو عدم مناسبة سؤالهم، وغيرها وغيرها من الضمانات التي لو جمعوا الخارجين على القانون ليختاروها للمساعدة على الإفلات من العقاب لما توصلوا إلى نصفها، وسمع بعضًا من زملاء أبيه ذات يوم يصبون جام غضبهم على القانون وأحكامه الجائرة، ويقولون إنهم لا يتوانون عندما تأتيهم الفرصة عن إهدار أية ضمانة تقف في طريق الحكم بالإدانة، لتطهير المجتمع من الرجس والفساد والجريمة.

لماذا لا يبتدع هو الآخر شكلاً جديدًا للتعامل مع هذا القانون الجائر؟ وتمكن هو وزملاؤه من الاتفاق مع مجموعة من المحامين المبتدئين على الوجود قريبًا من النيابة بحيث يتم استدعاء الواحد منهم لإثبات حضوره

مع المتهم أثناء استجوابه، مقابل التسهيل معهم في القضايا التي يحضرون فيها كموكلين، وهكذا يتلقى وكيل النيابة الاعتراف في وجود محامٍ للمتهم، الأمر الذي يحصن الاعتراف، بل ويتغافل المحامي عما بالمتهم من إصابات، بإقراره بخلو موكله منها، وهكذا صار عبد العزيز بك واحدًا من وكلاء النيابة المرموقين، القادرين على تحصين أدلة الإدانة من الطعن عليها بالبطلان، وغيره من الطعون التي يبرع في إثارتها المحامون.

مناه أن يُنتدب للعمل في نيابة أمن الدولة العليا، يسمع أنهم يحصلون على مزايا يصعب حصرها، قطع أراضٍ في المناطق الأشد تميزًا في المدن الجديدة وشقق تكاد تكون مجانية، سيارات بأثمان زهيدة وخزانات مترعة بالبنزين بكوبونات مجانية يتسلمونها من مباحث أمن الدولة، ويتمتعون بحراسات دائمة على منازلهم وأفراد أمن شخصيين يرافقونهم أينما يذهبون، ولهم في أوساط النيابة اعتبار وأي اعتبار.

يكره أن يلجأ لوالده، فالرجل يضج من أفعاله، ولا سيما رفضه الزواج، فكلما وضع عينه على عروس يبدأ في التودد إليه ليقبل الذهاب معه لرؤيتها، ومن ثم تقرير قبوله بها أو رفضه، لكنه في كل مرة يخذله، حتى أن المستشار الكبير أفضى إلى زوجته مدام ناهد بشكوك حول اكتمال رجولة ابنه، فهو يخشى أن تكون الحادثة القديمة قد أثرت عليه، ولما فاتحته أمه انطلق يضحك في هيستيريًا، لم يكن يعرف أن الخرف أصاب أباه إلى هذا الحد، هكذا قال لأمه بالحرف الواحد، واضطرت المرأة إلى وضع كفها على فمه حتى لا يصل حديثه إلى أبيه الذي يجلس في الريسيبشن، منتظرًا على أحر من الجمر ما ستبلغه به.

ليس هناك شك في أن عبد العزيز بك وكيل نيابة من نوع خاص، لا ينظر إلى زملائه ولا إلى أي إنسان إلا بمعيار يختلف عن كل المعايير التي يتبعها البشر، معياره يعتمد الثروة والسلطة والقوة كحاكم لتصنيف الناس، ولا يأبه لما يسمونه الذكاء والمهارة والتوفيق، فكل هذه الأمور يمكن اكتسابها، لكن – كما قال لأحد زملائه – لا يمكن اكتساب الأصل الكريم وعراقة النسب.

في الحركة القضائية الأخيرة تم نقله إلى نيابة أمن الدولة العليا، ودُعي ذات يوم للقاء، لم يكن على يقين من أنه يعرف الداعين، ولما ذهب للقاء في أحد الفنادق الشهيرة وجد أنهم يعرفون عنه كل شيء، لم يقدموا كثيرًا لغرضهم، قالوا إنهم بصدد إنشاء تنظيم صغير من أبناء النيابة العامة، يهدف إلى مقاومة الجريمة بوسائل غير تقليدية، ليس كما يرى المخربون الذين يعلون من شأن الضمانات الدستورية والقانونية، التي تهيء للمجرمين سبل الإفلات من العقاب، التنظيم يتجاوز تلك المناطق التي يتلكأ عندها العقاب قبل أن يرتد على عقبيه، ويقصد مباشرة إلى ما قد يعده المتشدقون بالشعارات الفارغة عن حقوق الإنسان كسرًا للقانون.

هناك شعر بالدفء، فهو لا يفكر في معاقبة هؤلاء الذين لا يستأهلون الحياة، ويجعلون وجه الحياة كئيبًا وقاسيًا، المجرمين الحقيقيين، الذين لا يستحقون الرحمة أو تخاريف الضمانات الدستورية والقانونية، فالعدل الحقيقي هو استئصال شأفتهم، وتطهير المجتمع منهم، وهناك وجد قضاة ومستشارين ومحامين عامين ورؤساء نيابة، وكان هو وقلة من المدعوين

على درجة وكيل نيابة، وفي النهاية أقسموا يمين الولاء للعدالة الحقيقية، التي لا تعترف بالمعوقات التي لا يعرف أعضاء التنظيم كيف ولا متى تسللت إلى نصوص القانون.

لم يكتشف كل أبعاد التنظيم الجديد إلا مؤخرًا، فالاجتماع الذي دُعي إليه لم يكن إلا لفرع واحد من أفرع التنظيم، إنه تنظيم كبير، مكون من رجال أعمال وبرلمانيين، ووزراء وأعضاء قياديين في الحزب الحاكم وضباط أمن دولة كبار، كما قال له واحد من الأصدقاء، إنهم النواة الصلبة للدولة المصرية القادمة، الدولة التي ينتظم شعبها في طريقٍ واحد، ويؤدي أهلها عملهم في امتثال، الدولة التي سيتم تهذيب حراشفها وزوائدها، واقتلاع آثار الشيوعية والفوضى من أركانها المظلمة.

الجمعة 28 يناير (3)

ساعة بتمامها وهو يختبئ خلف الأشجار الكثيفة، مدخل الفندق لا يظهر من خلالها إلا بالكاد، وكان قد سأل نفسه إن كان ما قاله تايسون بشأن استعداده لأخذه معه في المقابلة حقيقيًا، أم هو اختبار آخر، وكان قد وقف أمام العرض مندهشًا، يكاد يسأل إن كان يمكنه الذهاب معه بالفعل، وقبل أن تخرج الكلمات من فمه استدرك تايسون:

– ولا أقوللك، خليك المرة دي، وكلها عشر دقايق وأرجعلك.

المقهى الذي يجلسون فيه، والذي يبدو من الخارج مغلقًا له فناء داخلي به دراجات نارية عديدة، تستخدم عند الحاجة. لم يعد هناك سوى أفراد الأمن الذين يرتدون الملابس المدنية، وأرباب السوابق ونزلاء السراديب والأقبية، الذين أطلقتهم الشرطة ليرابطوا عند الميادين والساحات، ويهجموا على المتظاهرين، وعندما رأى تايسون ينطلق بالدراجة النارية عض على أصابع الندم، الطريق الآن سالكة بغير معوقات، فالثوار يملؤون الميدان، ويأتي صخبهم كاسحًا المعتقدات والأفكار القديمة، الغناء ينطلق من مكبرات الصوت مختلطًا بأصوات طلقات نارية وفرقعات تأتي من أماكن بعيدة.

تسلل منسحبًا دون أن يتنبه إليه أحد، الرفاق كانوا يتحاورون في شأن المسروقات التي غنموها بالأمس، يخمنون أثمانها ونصيب كل منهم فيها، ويحتاطون لكل مستجد، والمستجد الذي يخشونه هو أن يستأثر بها تايسون، وقبل أن يتسلل بدقيقة كان تيمور يمسح على رأس القشاش بمبالغة، والقشاش يفرد ذراعيه ويتمطى، يتجهز لما هو قادم، و لم يشأ أن

ينشغل بهما، ولا بهؤلاء الذين يقتسمون غنائم افتراضية، ويوزعون نقودًا افتراضية، بينما يلوكون توجسات حقيقية، لها في أفواههم مذاق مر.

الفترة منذ انطلاقه بالدراجة النارية وحتى وصول رفاعة إلى دراجته التي خبأها في دروب الوكالة تكفي لأن يذوب تايسون في ليل القاهرة، الليل الذي يخيم على الأماكن والشوارع والبيوت المتوجسة، لكنه وهو يقترب من مبنى الإذاعة والتليفزيون رأى تايسون واقفًا عند كمين نصبه جنود من الجيش، إذن فلقد نزل الجيش إلى الشوارع بعد أن عجزت الشرطة عن المقاومة، وانسحبت إلى أوكارها، لكن الجنود الذين يتمترسون في الكمين يضعون فوق رؤوسهم بيريهات حمراء، هم إذن يتبعون الحرس الجمهوري، ويقفون هناك ليمنعوا اقتحام مبنى الإذاعة، وكثير من الثوار يتجمهرون من حولهم، يريدون اقتحام المبنى، وهو إذا اقترب سيلحظه تايسون ويعرف أنه يتبعه، راجع في ذهنه كل الفنادق التي تقع على الكورنيش، وتساءل، أيكون واحد منها هو مقر تمركز الرجل الذي يقودهم؟

يفلت تايسون من الكمين، يتركونه يمر، وقبل أن يطبقوا على الطريق من جديد يمثل بين أيديهم، يقول إنه مع عمار ياسر النجدي الذي مر للتو، ويبتسم الضابط ويشير إليه ليمر، على يمينه المنازل والفنادق المقترحة، وعلى اليسار يتوجس النيل خيفة، وبعد أن عبر من أسفل كوبري 15 مايو انحرف تايسون بشدة متوجهًا إلى مطلع الكوبري، إذن فالمكان الذي يقصده في البر الآخر، الزمالك أو المهندسين، أو حتى مدينة 6 أكتوبر البعيدة.

لم يطل به الوقت، إذ سرعان ما هبط تايسون مع مخرج الزمالك، واضطر للتباطؤ حتى لا يلحظه، انحرف تايسون إلى شارع على اليمين، بعد محطة بنزين كان بعض البلطجية يهاجمونها، ويحطمون زجاج الميني ماركت الملحق بها.

لا يعرف رفاعة أن هذا المكان به فندق، اضطر إلى التباطؤ أكثر عندما رأى تايسون يهدئ من سرعته، ولما توقفت الدراجة أمام باب الحديقة أسرع نفر من الحرس بلباس مدني إلى تايسون، ووجهوا إليه مسدساتهم فيما كانوا يتحدثون بكلمات لم يسمعها، وأخيرًا نحُّوا المسدسات وأمروه أن يبعد الدراجة قليلاً، ثم اصطحبوه إلى الداخل.

مكان مثالي للاختباء، ولقيادة أعمال قاتلة، لا يمكن أبدًا تصور أن النظام كله يواجه التمرد من هذا المكان، إنه إن تحرك وأثار الانتباه سيقع في يد من لا يرحم، وهذه المرة لن يعرف الذباب الأزرق طريقه، فالبلد بلا أمن أو محاكم، أو قيادة تعرف شيئًا عما يدور، فقط الناس الذين يختبؤون في مثل هذه الأماكن هم من يعرفون، وكذلك المحتشدون هناك، في كل الميادين، إذا استمروا على ثورتهم و لم ينكسروا.

عليه أن يسارع، فلا يمكن تكرار الأمر في طريق العودة، فسيصل تايسون قبله، وساعتها سيخضعه لتحقيق قاسٍ حول تركه المكان، وينطلق بدراجته عائدًا.

الباب المردود في المقهى ينبئ عن أنه لم يتحرك منذ تركه، والعلامة التي تركها ليعرف إن كان قد فتح أم لا كما هي، والرفاق لا يزالون يضعون

رؤوسهم بين أكفهم ويتحسبون، وفي الفناء الخلفي ينعم القشاش وتيمور بوقتهما، ويهيىء لنفسه تداخلاً فيما يفعلون، وينفذ مباشرة إلى عقولهم ويقول:

- أنا علمتكم كده؟!!

ينتفضون وتتعلق أبصارهم بوجهه، وتردهم البسمة التي يتقن رسمها فوق ملامحه إلى الهدوء:

- إحنا طلعنا من الزفت خلاص، بقينا فوق وش الأرض، وإذا ماعرفناش نبقى بني آدمين في الظروف دي نبقى إحنا بجد ولاد ستين كلب، زبالة زي ما المجحوم كان بيقول.

ويأخذ طريقه إلى الفناء الداخلي، وينادي:

- خلص بقى يا شرموط انت وهوه، إيه؟!!، ما بتشبعوش؟!!

تشرئب رأس القشاش الذاهلة، ويشيح رفاعة بوجهه ويردف:

- فيه كلام أهم من اللي انتو بتهببوه، تحبوا تشتركوا ولا مانعملش حسابكو؟

يتعثر القشاش وهو يسارع بالانضمام إليهم، ويسقط على الأرض، ويتكوم فوقه الناعم، ويضج الجميع بالضحك، ويقول الكبش:

- الواد اتكوم، زي دكر البط، لما رجليه ماتشيلوش وينزل على طيزه!

ويضجون بالضحك من جديد.

الآن هو ينفذ إلى عقولهم، وقلوبهم أيضًا، عندما يضعهم على أعتاب التفكير فيما هو قادم، فماذا لو عاد تايسون بتكليفات تتجاوز طاقاتهم، أو تعرضهم للقتل، وهذا متوقع على كل حال:

- طبعًا الشرطة راحت في الكازوزة، والجيش نزل يمسك البلد.

وينظر في وجوههم:

- والجيش لما يمسك يبقي لازم نحط عينينا في وسط راسنا.

الناعم يسأل:

- يعني إيه؟!!

- يعني تسيبك من أمور ال..... وتفتحلي مخك.

وينطلق اللنش:

- ما بيعرفش يفتح إلا حاجة واحدة.

وينخرطون في الضحك فيستطلع اللنش وجوههم:

- ياخوانا أنا بقول بجد، الواد معذور، هايلاحق فتح؟!!

ويغضب القشاش لغضب تيمور، ويهم بالهجوم على اللنش، لولا منصور الأعور الذي يقف في طريقه، يعترضه ويجلسه إلى جواره.

يتفقون على أن البوليس الذي يعملون لحسابه انسحب من المعركة،

وليس من حقه أن يستعملهم وهو مختبئ، وأن الجيش سيشكل محاكم عسكرية، وسينالون أحكامًا قاسية ومغلظة إذا سقطوا في قبضته، وإذا طلب منهم أحد النزول إلى الميدان والاندساس بين المتظاهرين لقتلهم أو ترويعهم فهذا يعني أنه يدفعهم للانتحار، ويقدمهم لقمة سائغة للثوار، وللجيش، فأيًا كانت قدراتهم وأسلحتهم هم مجرد قطرة في محيطٍ كبير يربو على المليون إنسان، يثورون الآن في الميدان، بل وفي ميادينَ كثيرة في المحافظات، وأخيرًا فإن مسألة قسمة الغنائم لا تحتمل التأجيل، فقد لا يتمكنون من الالتقاء بعد اليوم، ويجب إنهاء الأمر قبل أن يتفرقوا.

كل ذلك يضعه رفاعة في عقولهم، وفي كل مرة يهزون رؤوسهم موافقين، فكل ما يقوله صحيح، لكن تايسون تأخر كثيرًا، ويشعر رفاعة بالقلق، أصوات الابتهاج القادمة من الميدان تختلط بانفجارات الطلقات القادمة من أماكن علوية مجهولة، تقتل الناس كيفما اتفق، والأشقياء يعتلون كوبري أكتوبر ويسدّون على المتظاهرين مداخل الميدان الشاسع، ويطلقون صوبهم الأحجار وكرات النار، وهم هنا في المقهى في انتظار تايسون، الذي يغيب كأنه لن يأتي.

يتسرب القلق إلى نفوسهم، لماذا لا يكون قد فر، وفاز وحده بالمسروقات، وفر من المسئولية عمن وقع من المصابين طوال اليوم، ومنهم من مات، فلقد رأوا بأمهات أعينهم بعضًا مِـمَّن سقطوا وهم ينتفضون، وتجتاحهم الرعشة الأخيرة، ومنهم من انفجر رأسه وتبعثر مخه على الطريق، إذن فهم الآن في خطر محدق، ولكنهم لا يقدرون على الانصراف دون معرفة مصير المسروقات التي يحتفظ بها لحسابهم.

مداخل الميدان تصب فيه المزيد من البشر، وصلت الحشود القادمة من الجيزة، وكانت هي من افتتحت الاقتحام، وكذلك القادمون من الكورنيش، والذين اختاروا الوصول عبر ميداني طلعت حرب وباب اللوق، والقادمون من اتجاه عابدين، وعانت حشود شارع رمسيس كثيرًا حتى تمكنت من الوصول، لكن استمرار القناصة في إطلاق الرصاص من أماكنهم المجهولة يصيب الجميع بالغضب، فيبدؤون في التوجه ككتلة واحدة في اتجاه شارع القصر العينى، ويتقدمون حثيثًا، رغم سقوط الجرحى والقتلى، يريدون الوصول إلى مبنى وزارة الداخلية، والقبض على وزير الداخلية ومدير أمن الدولة والإتيان بهما إلى الميدان.

الاتصالات مقطوعة في محيط الميدان، وصفية التي دخلت مع الحشود القادمة من اتجاه ميدان عابدين ظلت طوال الوقت تمر بالمنصة التي ما إن نجحت الحشود في الاستقرار في الميدان حتى شرع البناؤون في إقامتها، وبالمستشفى الميداني، ولا أثر لـ"رفاعة"، وتأخذ في الاقتراب من ميدان عبد المنعم رياض.

من بعيد ترى حشود البلطجية يعتلون الكوبري، ويقطعون شارع رمسيس، كأنهم في الطريق إلى الميدان لقتلهم، أو لطردهم منه، بين هؤلاء يقف رفاعة، يقذف الأحجار كما يفعلون، وينتهز الفرصة لتنفيذ أجندته، دونها والوصول إليه شهداء وجرحى، وملايين الأحجار وكسر الرخام، ودونها والوصول إليه أجندة نسجها من خيوط الليالي المسهدة في السراديب العطنة.

مع مقدم الليل التقاها شهدي عند المسرح الصغير الذي أقامته الفرقة، لا تعرف إن كان عليها أن تفرح بلقاء شهدي، أم أن قلقها سيصير قلقين؟!!، لا تعرف أيضًا إن كان القدر سيقربها من حبيبها أم يبعدها عنه، ولا تعرف عن مصير أمها وحماتها ودرية شيئًا، اللهمَّ إلا كلمات غامضة قالها شهدي ثم مضى، يشارك في الهجوم على القوات المتبقية في شارع القصر العينى، التي تخطط لدخول الميدان، أو تمكن المهاجمين من الدخول للاعتداء عليهم، مضى على وعدٍ بالعودة كل ساعة ليلتقيها أمام المنصة الرئيسة، أو في المستشفى الذي امتلأ بالمتطوعين، وراغبي التبرع بالدم، والقتلى والمصابين الذين يفدون من كل مكان.

نداء ينطلق، يعم الميدان، المتحف يتعرض للاقتحام، تسترد الأجساد المنهكة عافيتها، لا تزال المعارك دائرة، في محيط شارع القصر العيني، وعند ميدانى باب اللوق وطلعت حرب، وعلى امتداد شارع قصر النيل، منذ قليل تسربت أخبار بأن سيارات محمّلة بكسر الرخام والأحجار أفرغت حمولتها في شارع قصر النيل، وأن البلطجية القادمين من عابدين والممرات التجارية في منطقة وسط البلد يوشكون على اقتحام الميدان يتزعمهم أحد نواب البرلمان، وتحول المحتشدون في الميدان إلى الهجوم في تلك الجبهة.

اقتحام المتحف يحتاج إلى مهارة خاصة، لم يكن ممكنًا تنفيذه إلا باشتراكٍ مباشر من ضباطٍ مدربين، مدعومين ببلطجية جرى توجيههم بحيثٍ يؤدون المطلوب دون زيادة أو نقصان، هذا ما يدركه رفاعة، فمنذ عاد تايسون من لقاء رجله الغامض، وأبلغهم بضرورة التوجه إلى المتحف لاقتحامه وكل شيء يجري على نحوٍ مختلف، لم يسأل أحد إن

كان يمكن الحصول على قطعة أو اثنتين من الآثار لنفسه أم أن كل دورهم هو الاقتحام وإحداث الرعب وتدمير المعروضات؟!!، وبرغم أن الأسئلة كانت تلوح على الوجوه وتكاد تنطق بحروف مسموعة إلا أن تايسون فضل تجاهلها، فهو نفسه لا يعرف إن كان عليه أن يساعد في الاقتحام وتأمين عمل الضباط الذين سيدخلون إلى صالات العرض أم أن دورًا آخر سيُطلب منه.

مجموعة من الشباب يتمترسون أمام أبواب الحديقة الخارجية للمتحف يمنعون بأجسادهم اقتحام أبواب المتحف، ما الذي جعل رفاعة يظن أنه ربما يجد شيئًا من اليقين هنا؟!!، في المتحف؟!!، وأن أمرًا مرتبطًا بأجندته يوجه الأحداث عبر قنوات اتصال غامضة ومجهولة؟!!، إن هذا الظن هو الذي يجعله يرافق المقتحمين، ويرى مطواة تايسون تنفذ في صدر أحد الشبان فيهم بالدفاع عنه، لكن يد تايسون أسرع، يريد أن يبلغ غايته، وأن يحافظ على علاقته به، بالرفاق الذين ألبّهم عليه وشككهم في نواياه.

يعبرون إلى الصالة الخارجية للمعرض، وتتعثر أقدامه في قتيل آخر، الحسرة التي قبضت على ملامح الفتى الأول تشل دماغه، والفتى الثاني يقتحمه بسقوطه المروع، وشفتيه اللتين تنبسان بكلمات يرجح أنها الشهادة، أو أنها مناجاة من نوع غريب، لا يجدي البحث فيه أو محاولة الوقوف على أسراره، إنه شيء يتعلّق بالتقطيبة الحزينة فوق جبهته، وأمارات الألم التي ترسم خطوطًا رقيقة حول الفم المرتعش. يكره تايسون، لكنه الآن يكرهه إلى أقصى حد، وإذا كان قد رفض أن يضمه إلى أجندته فعليه أن يعيد التفكير.

تايسون كان الوسيلة التي تمكن بها مجدي الحسيني من تطويعه، وكسر إرادته، والتلاعب به، ومنعه من مساعدة أهله في الاهتداء عليه، وهو ضالع حتى النخاع في كل ما يجري، من أول اقتحام المولات ونهبها، مرورًا بقطع الطرق، وقتل الناس وترويعهم، وانتهاء بتدمير تراث البلد الذي علم التاريخ كيفية الابتداء.

تتزاحم في رأسه صورة قديمة لرجل مرفوع الأكتاف، وامرأة تدفع بطنها أمامها، وطفل صغير ينظر بدهشة لهؤلاء الذين يتسمرون على أوضاعهم، ويواصلون المجيء من قلب الأيام البعيدة، الريس صابر سيد الأهل يحمل طفله رفاعة ويصطحب زوجته الحبلى على يومها وليلتها ويزور بهم المتحف الكبير، ويأبى الدماغ المنهك إلا أن يبث ومضات عن وجه ترسم اللوعة ملامحه، وصرخة بعمق الليل المختبئ في السراديب البعيدة، وظلام بألوان الخوف تنطلق في سديمه أشكال أفعوانية، وصوت اللواء الإمام يطلب الامتثال، وحديث يدور في أروقة الفضاء الافتراضى الذي يلاحظ رواده في الإنترنت كافيه، وصوت ممطوط يحذره:

- إنت قد الناس دى ياله؟!!

وتنبثق في ثنايا الصورة وجوه يعرفها، وأخرى لا يعرفها، وجه درية الفاقد للبراءة، ووجهها وهو يسترد الطفولة، ويبحث عن ملامح البراءة القديمة، وجه صفوت بيومي، وجه "أبو داوود الجهيني"، ولحيته تتأرجح فوق صدره العريض، كل هذا فوق لوحة أليمة، صفحة وجه الفتى المحتضر، وملامحه المتقلصة بالألم، والكلمات القدسية الغامضة.

في الخارج أصوات استغاثة، شبان يصرخون في زملائهم لينضموا للدفاع عن المتحف، وأصوات تتعجّل الهجوم، وفتارين زجاجية يجري تحطيمها، وقطع أثرية رائعة تختفي في أكياس قماشية يبدو أنها أُعِدَّت لذلك، ورفاعة يقف مذهولاً، عينه تراقب، ولا أثر لشيء يهتدي به، يفكر في سؤال تايسون إن كان أحد بعينه يقود ما يجري، لكنه يحجم، الأفضل ألا يسأل، فالقائد لا بد سيظهر، وتفاجئهم هجمة عاتية، قادمة من كل الأبواب، فالمتظاهرون تمكنوا من كسر الطوق الذي يفرضه البلطجية على أبواب المتحف، وها هم يكبسونهم في الصالة الخارجية ويمسكون ببعضهم، بإمكانه أن يقف صامتًا حتى يلقوا القبض عليه، وبإمكانه الهرب إلى الداخل، فبعضهم يفر في اتجاه غامض، يبدو أنهم يعرفون مخارج آمنة، ويسقط شاب من فرط التزاحم، ويتذكره رفاعة، إنه ضابط في أحد الأقسام التي تنقل بينها، لكنه لا يتذكر من هو بالتحديد، وتشتد عزيمته، فأن يوجد ضابط بين مقتحمي المتحف فهذا يعني أن كبيرهم هنا.

يدرك رفاعة أن الساعات القليلة القادمة ستكتب نهاية وجوده مع عمار ورفاقه، الظروف وحدها هي ما تضطره للبقاء، وهو على يقين من أن ما يراه لن ينتهي والنظام القائم موجودًا، حتمًا سيسقط، فالناس الذين يقاتلون عند مداخل الميدان سال دمهم، والدم إذا سال يصير رخيصًا من جانب، بالمقارنة بالهدف الذي أُريق من أجله، ومن جانب آخر تصير له قدسية، تمنع من العودة إلى ما كان، فالناس لا تنزف الدم ثم تنكفئ عائدة إلى دورها، كأن شيئًا لم يكن.

المتظاهرون الذين جاؤوا للدفاع عن المتحف يشددون الضغط، والضباط الذين يقودون المقتحمين يتلفون ويسرقون أكبر قدر من القطع الأثرية، ويحطمون الفترينات حتى ولو لم يسفر ذلك عن الاستيلاء على ما يعرض من خلالها، وعمار وحده هو من يعرف وجوه أعضاء أجندته، وهو إذا استدل على واحد منهم سيقتله على الفور، لن يفلت الفرصة مهما كانت المخاطرة، سيطلق عليه في الرأس حتى يتأكد من أنها ستكون قاتلة.

ولكن أين هم الذين يبحث عنهم؟!!، وكيف سيستدل عليهم؟!!، الشك الذي يملؤه يسد عليه الفرج، وصورة مجدي الحسيني وهو يُقْتَل أنشوطة صياد يستوثق من شعوره تجاه الرجل، فلماذا لا يكون مجدي الحسيني نفسه واحدًا من هؤلاء الذين يقودون مقتحمي المتحف الكبير؟!!.

عند الباب الخلفي لصالة العرض الأمامية سيكون في الانتظار، لكنه إذا فعل سيفهم عمار أنه لا يشارك فيما يفعلون، وسيتساءل عما يجعله يباشر هناك، الأفضل أن يتظاهر بعمل أي شيء، ولكن بالقرب من الباب الخلفي، الذي سيكون الفرار المحتم منه، وعليه أن يضع عينه على الباب طوال الوقت، ليعرف من يخرج منه ومن يلج، وربما تساعده الأقدار على الاهتداء إلى يقين.

يتمنى لو يسكن قليلاً، يتوضأ وينخرط في صلاة عميقة، فنفسه مهتاجة، وكل شيء، وكل إنسان، حتى أمه وأخواه، كُلهم يتضاءلون، وتتقدم المشهد وجوه معتمة: وجه اللواء الإمام، ووجه صفوت بيومي،

وجه مجدي الحسيني، وجه عبد العزيز القاياتي، وفيما يتظاهر بالعمل يلمح بطرف عينيه "عمار"، يحمل تمثالاً برونزيًا صغيرًا ويدسه داخل سترته الواسعة، وتنطلق في دماغه شرارة، عليه أن يلزم "عمار"، وليس أحدًا آخر، فلا بد سيعقب الهجوم على المتحف ونهب محتوياته لقاء بين عمار والرجل الذي يتلقى الأوامر منه، وفي أول بادرة للقاء غريمه لن يتردد في قتله، لو كان هو اللواء الإمام كما يظن.

ألا يوجد فيمن يعرفون اللواء الإمام واحد مثل ذلك الولد الذي عرف مجدي الحسيني وحاصره حتى قبض عليه، وذبحه كفروج، ثم علقه أمام المارة؟!!، ويضحك من نفسه، فهو المسئول الوحيد عن تنفيذ أجندته، ولن يساعده أحد، حتى الجن والملائكة، بل وحتى الله.

هو لم يُجدِّف من قبل، ولكنه اليوم يعرف أن ساعده هو سنده، وعقله هو ركيزته، وخياله هو حصانه الجامح، ولن يستطيع أنِ يلقي باللوم على أحد، ولن يقدر على مخاطبة الله بالجرأة التي دفعته إليها نداءات الخوف والغضب، لن يقدر على التعلل بالحبس وانقطاع الأهل، هو في النهاية لن يقدر على العودة إلى أهله، أو حتى اللحاق بالمتظاهرين في الميدان إلا بعد إنجاز مهمته، وطريقه إلى هدفه التزامه رفقة عمار النجدي، الذي أزاحه بالكاد كي لا يأخذ مكانه اللائق في قائمة انتقامه، ولكنه بأفعاله اليوم يؤكد كم هو جدير باللحاق بها.

لو أن الأرواح تتحدث، إذن لقالت روحه إنها ترى صفية تغني فوق خشبة مسرح صغير في مكانٍ ما في الميدان، وترى شهدي وهو يقاتل في

صفوف الذين يذودون عن المداخل، ترى أمه والقلق يأكلها على أبنائها، هو الذي يدور مع أجندته كما تدور زهرة عباد الشمس، وشهدي الذي اكتشف أن جينات الثورة كانت طوال الوقت في مسرى دمه، ودرية المحبوسة معها، ومع المرأة التي تراها لأول مرة، والدة صفية.

وتحين منه التفاتة، يقترب منه تايسون ويهمس له:

– اجهز علشان هانمشي دلوقتي.

يسأله:

– على فين؟!!

وبقدر تلهفه على إجابة يظهر عدم الاكتراث، يجيبه تايسون:

– فيه ناس عاوزينك.

ثم وهو يمضي إلى هدفٍ ما:

– والله وها تترقى يابن الدايخة!!

الرغبة في معرفة من هم الذين يريدونه تشعل النار فيه، لكنه يكتمها، لا يريد أن يقدم لـ"تايسون" سببًا للنيل منه، ولا يملك إلا أن يصطنع الضحك.

* * *

الميدان الفسيح يتنفس مع الليل، الأضواء تغمره، وتحيل الجموع المحتشدة إلى رؤوس بنية محروقة، كأنها فخار خرج لتوه من قمائن هائلة،

لا يميزها إلا حركة دائبة تجعل المشهد ضاجًا بالحياة، يدخلان إلى الميدان من مدخل خاص مار بمبنى جامعة الدول العربية، يفسح لهم رجال الأمن الخاص الطريق، هذا المدخل تركه الثوار لرجال الأمن الذين يرابطون هناك، بدعوى حماية المنشآت الواقعة في هذا القطاع، لا يعرفون أن كل رجال الأمن في الشركات الخاصة هم في الحقيقة من رجال السلطة، وكلهم يأتمر بأمرها.

في حديقة مسجد عمر مكرم حيث يشرع البعض في نصب خيمات صغيرة لمبيتهم يجلسان، الأعداد تتناقص، الملايين التي تدفقت إلى الميدان انسحبت مع تقدم الليل، أنهكوا طوال اليوم، ومع الليل أصابتهم قشعريرة البرد فغادرو إلى دورهم، على وعد بالقدوم مع الصباح، ومجنزرات الجيش ترابط هنا وهناك، هدأت ثورات الابتهاج بقدوم الجيش، ونزلت الجموع التي غطت المجنزرات بأجسادها، وبقيت الأعداد التي تحرس مداخل الميدان على حالها، فالمهاجمون في الميادين والشوارع المختلفة يواصلون محاولاتهم اختراق الصفوف.

منذ ساعتين حدث تطور، المهاجمون يطلقون النار من أسلحة نارية يحملونها، ويطلقونها، وقتلوا بعض الثوار، وأصابوا العشرات، ومع دخول الليل إلى ساعاته الحاسمة يتزايد النداء على المتبرعين بالدم، ويطلب البعض في الميكرفونات الصغيرة المساعدة في طلب إسعافات طبية، وبأن يقوم كل من يعرف أحدًا من أصحاب الصيدليات المحيطة بالمساعدة في فتحها للحصول على الأدوات المطلوبة، مع التحذير من سيارات الإسعاف

التي تأتي إلى الميدان، فهي تُستخدم في جلب أسلحة وذخيرة للمعتدين، وتأخذ المصابين ليس لتذهب بهم إلى المستشفيات، ولكن لتخفيهم في أماكن مجهولة.

الوقت يمر، والأعداد تتناقص، لو أن البوليس عاد وأراد أن يستولي على الميدان الآن لفعل، فالأعداد التي كسرت إرادته على مدى الأيام الثلاثة الماضية تقلصت إلى حد كبير، والباقون في الميدان منشغلون بالمنصة التي أقاموها، وملامح الصراع بين الإخوان المسلمين الذين شاركوا اليوم بعد امتناع في اليومين السابقين وبين شباب المجموعات الشهيرة على الفيس بوك من مختلف الأحزاب والمنظمات الحقوقية المدنية تبدو واضحة، وهناك في مكان بعيد عن المنصة الرئيسة يقوم البعض بعمل منصة جديدة، وعلى المسرح الصغير المجاور يقف البعض يغني، لنفسه وللآخرين، ولليل الذي يخفي في جوفه البارد خوفًا عظيمًا.

بإمكانه أن يبحث في محيط الميدان عن صفية، ربما تنشغل الآن بشيء ما عند المسرح، أو تغني مع هؤلاء الذين يرددون أغنيات الليل الرائعة، بإمكانه أيضًا أن يبحث عن شهدي، لن يخرج عن كونه عند أحد مداخل الميدان، يدافع مع المدافعين، أو هو واحد من الذين غلبهم النوم ويستلقون على الأسفلت، أو في فرجة بين الخيمات الصغيرة المنتشرة في جزر الميدان.

يتمنى ألا يكون قد حدث لـ"شهدي" مكروه، فهو مندفع بأكثر مما يطيق شبابه، ولكنه لم يسمح للقلق بأن يسيطر عليه، فالميدان الذي يطبق بجناحيه على الآلاف القليلة المتبقية يدفع بالغيمات القريبة من

الأرض بعيدًا، لتهطل في مكانٍ آخر، حفاظًا على هؤلاء الذين يفترشون الأسفلت.

ماذا لو يستدرج تايسون ويقوما بجولة في الميدان؟، يرى صفية من بعيد، ويرى أين يكون شهدي، سحقًا للحنين، وللعواطف الخائبة، ها هو على وشك ارتكاب أخطاء أخرى قاتلة، دافعها الحنين والخوف، يأخذ القاتل إلى أخيه وزوجته، ليقتلهما عند الحاجة، إنه ما لم يضع على عواطفه ساترًا لن يمكنه عمل شيء، ولا تنفيذ بند من بنود أجندته، وعليه الآن أن يقرر، إن كان سيمضي في تنفيذ أجندته بارد الحس، متخليًا عن تراث الحنين الذي يخذله، أو يلقيها من وراء ظهره ويمضي إلى حيث يريد.

هو لم يفعل شيئًا سوى ملازمة تايسون ورفاقه، هاجم معهم المتظاهرين، وقذف عليهم الأحجار وكسر الرخام، واقتحم معهم المتحف، وحطم معهم شيئًا من فتارين الزجاج التي تحفظ المعروضات الثمينة، إنه مثلهم، لا يختلف عنهم في شيء، فإذا صور له غروره أنه مختلف فليذهب إلى الجحيم، ولتخرج من نفسه كل نوازع الخير المدعاة، فهو ليس ثائرًا كهؤلاء الذين يفترشون أسفلت الميدان وجزره المسقوفة بالخيمات الصغيرة، الجميلة والساذجة، وينظر إلى نفسه، إلى ملابسه التي تحمل روائح الأشياء والأماكن التي مر بها طوال اليوم، و لم يجد إلا أنه لم يفعل شيئًا يُذكر، سوى التأكيد على أنه واحد من أرباب السوابق الذين أطلقوهم على الثوار ليؤذوهم، وعلى البلاد لينهبوا مقدراتها ويعيثوا فسادًا في ربوعها.

يفيق على عيني عمار تنظران إليه بإمعان، يسأله:

– بتفكّر في إيه يا سيد أهلك؟!

يتصنّع الاستمرار في الاستغراق وينظر إليه بطرف عينه، ثم يجيب:

– ممكن ندبح عشرة على الأقل من العيال اللي نايمين دول، من دون ما حد يحس.

يتلفت عمار حواليه وينهره:

– يا دين أمك!!، إنت ابن مرة وسخة.

ويعاود التلفت:

– الناس في إيه وانت في إيه؟!!

ويقف كأنه يرتب ملابسه:

– كفاية اللي انقتلوا منهم طول النهار.

ويجلس من جديد، يمد رأسه ليصير وجهه في وجهه:

– انسعرت يا بن الكلب؟!!، انسعرت؟!!

ورفاعة لا يدري هل يغضب أم يطير من الفرح، دخلت اللعبة على الفتوة، ويقترب تايسون:

– شوف ياله، إحنا رايحين نقابل رتبة كبيرة أوي، أوي، أوي.

أقرب متظاهر منهما على بعد أمتار، يتكوم فوق الحشائش الهشة والبرد، يفرد غطاءه فوقه، ويواصل تايسون:

- لما تسمع اسمه هاتطب ساكت.

ويتلفت من جديد:

- ومع ذلك أنا هاقولك.

ويقترب من أذنه أكثر:

- اللوا عاصم الإمام بذات نفسه، خلاااص، دخلت التاريخ يابن الوسخة.

كل ذلك وهو يواصل التلفت، يمينًا ويسارًا، كأن الهواء الثقيل ينقل الكلمات بأحرفها المهشمة إلى الآذان.

حال جديدة، فرحة طاغية وقلق عظيم، رفاعة يكتم كل هذا في مراجله، الآن هو في حالة عاطفية نادرة، في أمس الحاجة لأن يرى صفية، ولو من بعيد، ويسمع صوت شهدي، حتى ولو اختلطت الكلمات، ويرى أمه، والعبرات تترقرق في عينيها، ووجه درية الذي يجاهد ليكتسي بلون البراءة القديم.

الآن هو في أمس الحاجة لأن يغسل أدرانه، وعواطفه التي تعذبه، يرى صفية لكي يغلق على ذكراها بابًا حديديًا، ويسمع كلمات شهدي حتى يمحوه من ذاكرته، وأمه ودرية، حتى لا يتمنى العودة إليهما من جديد.

لن يخرج من هذا الأمر سالمًا، هو على يقين، ويحملق في وجه تايسون ويخير نفسه، بين أن يبادر بقتل عاصم الإمام عندما يراه حتى ولو قتلوه، وبين أن يقابله، ثم يتحين الفرصة للنيل منه، يجتهد ليبقى سالمًا وينفذ بقية

بنود أجندته، أو على الأقل حتى ينال من صفوت بيومي، قاتله الحقيقي.

لسبب غير مفهوم يتظاهر بالضحك، ويقترح على تايسون جولة في الميدان، وتنطلق أقدامهما.

الميدان يفتح ذراعيه، لم يعد ينتفض كما كان طوال اليوم، صار كمقاتل جريح يستند إلى جذع شجرة، يلتقط أنفاسه، يغمض عينًا ويفتح الأخرى، ويحظى بقدرٍ من النوم.

مجنزرات الجيش تتمركز في أماكن بعينها، لا تتدخل لتطرد أولئك الذين يعتلون كوبري أكتوبر ويتمركزون عند ميدان عابدين وطلعت حرب وباب اللوق، ويقطعون طريق الكورنيش، ويهجمون على قوافل الإغاثة القادمة عبر شارع رمسيس، ويستولون على الأدوية والأطعمة، وزجاجات المياه وعلب العصائر التي يدأب على إرسالها المتعاطفون.

صفوت بيومي

يختلفون في تحديد البلد الذي قدم منه عبد المنعم بيومي، تاجر المخدرات الذي عاش ردحًا من الزمن في قرية بركة الحاج في منطقة المرج، عند الحدود بين محافظتي القاهرة والقليوبية، البعض يقول إنه من إحدى قرى مركز قليوب، والبعض يقول إنه من البدو، وآخرون يقولون إنه طفل لقيط، لا يُعرف له أهل أو بلد، لكنهم يجمعون على أن الرجل كان ذا شخصية جبارة، مكنته من تخويف الناس ونيل احترامهم في نفس الوقت، فبرغم عمله الخطر كان رجل إحسان وبر، يستخدم دور الأرامل مخازن لبضاعته، والأطفال ناضورجية بالأجر، والرجال الذين فقدوا أعمالهم أو تعثروا حراسًا من نوع خاص، يلتزمون الطرقات والدروب والسكك، يسدونها في وجه كل قادم.

تزوج من عددٍ يصعب حصره من النساء، وأنجب أبناء لا يعرف هو نفسه أسماء الكثيرين منهم، كل الأمور كانت تشير إلى أن صفوت سيكون مجرد واحد من القطيع الذي يسوسه الأب، لا يميزه عنهم شيء، لولا أن أمه اقتربت من أبيه ذات ليلة وسألت إن كان يمكن أن يذهب ابنها إلى المدرسة؟، ولما سأل عمن هو؟ أيقظت الطفل وعرضته عليه، فطيب الرجل خاطرها. باله كان في تلك الليلة رائقًا، قال إنه يدخر له ما هو أفضل، ولما سألت قال إنه سيعلمه في مدرسة الحياة.

وهكذا صار صفوت تحت بصر أبيه، في الصباح يأمره بملازمة الأطفال الناضورجية، يتعلم منهم أصول مهنة الناضورجي، لا يستهين بأي تغير في الأفق الذي يمعن النظر فيه، مهما بدا ضئيلاً أو هينًا، ويرسله إلى أرامله

المنبثين في أنحاء القرية ليحضر من مخازنه لديهنَّ المطلوب، ولما تخطى السابعة أجلسه إلى جواره.

عرف مبكرًا كيف يبيع أبوه، وكيف يشتري، ولمن يبيع وممن يشتري، وتعلم كيف ينكر وكيف يقر، متى يفصح ومتى يستر، ولكن أخطر شيء تعلمه هو كيف ينتقي ضحيته، كيف يسلمه إلى رجال المكافحة دون أن يعلم أنه سلمه، وحتى إذا دس له أحد لدى الضحية لا يصدقه، عبقرية حقيقية، ظل يتعلم منها حتى النهاية.

وتعلم الدرس الأهم، فحتى يكون تاجر مخدرات بحق عليه ألا يعول على الشرف، شرف الكلمة أو شرف الموقف، أو حتى الشرف بمعناه العام، فالشرف الحقيقي لتاجر المخدرات - كما علمه أبوه - هو أن يتفادى السقوط في يد الحكومة.

رحل الأب بعد أن أورث صفوت مفاتيح مهنته، مصادره التي يجلب منها المخدرات، السوبر والنصف نصف والشعبي، وبعد أن حذره من تصنيع الحشيش بنفسه؛ لأنه إذا فعل سيحتاج إلى مكان ثابت يعمل فيه، وقواعد الأمان تتعارض مع وجود مكان ثابت لمزاولة العمل فيه، والبضاعة على كثرتها لا يجب أن يكون منها أوقية واحدة في داره، أو حتى قرش، وكما كان يفعل أبوه، امتنع عن التدخين نهائيًا، حتى السيجارة لا يضعها في فمه، والتزم الصلاة في مواقيتها، وليس ثمة مكان واحد من أماكنه أو مقر من مقراته - بيته الريفي في بركة الحاج، الذي تحيط به حدائق المانجو والنخيل، فيللته الرائعة في الرحاب، شقته الجديدة في

منطقة كارفور المعادي، فيللته الأخاذة في مارينا العلمين، وقصره الشاهق في طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، الجاليري الأنيق "فاشون" في مدينة نصر - لا يوجد به مسجد صغير أو مُصلًى، وكما كان يفعل أبوه لا تفارق المسبحة يده، ولا يكف عن مد أسمطة الطعام، للفقراء من أهل بركة الحاج، أو الأصدقاء من أهل المهنة ودراويشها، أو الحكام الكبار، من رجال البوليس والأجهزة الرقابية والمحافظين وأعوانهم، وما يتيسر من الوزراء، وأخيرًا أهل الحق والحقيقة، مشايخ الطرق وأمراء الوقت وفقهاء الزمان.

تعلم أن يتوقى الأخطار بإراقة دماء الأضاحى، ولا ينتفع من الذبائح بأي شيء، حتى الجلد، وراج ذكره واشتهر كرمه في كل الأوساط، وصار أهل الحكم إذا أرادوا من يتبرع بالمال لصالحهم يقصدون أول ما يقصدون إليه، فلا يتأخر عن تلبية مطالبهم، وفي إحدى المرات ومن باب الفُكاهة سلم بضاعة مستغلاً موكبًا رئاسيًا كانوا قد ألزموه بإقامة بوابات الترحيب به، من بداية طريق صلاح سالم وحتى نفق العروبة، سلمها في حراسة الأمن العام والمخابرات العامة، ومباحث أمن الدولة وجهاز الأمن القومي، وكافة أفرع المباحث الجنائية.

لكنه ليس كأبيه في مسألة النساء، ربما تكون هذه الخصلة هي الوحيدة التي خالفه فيها. أبوه كان إذا راقت له امرأة تزوجها، وإذا كانت على ذمة رجل، يطلقها منه ويتزوجها، ويعوضه عنها، أو يعوضها إن جاء الاعتراض منها، أما هو فإنه يسرف على نفسه، لا يكف عن ملاحقة النساء، وكلما

رأى امرأة أو فتاة يسيل لعابه، ولا يهدأ، يظل يتحرك كتيس حقيقى أو كحمار مهتاج حتى ينالها، وبعدها تلحق بسابقاتها، ويزهدها، إلا تلك المرة.

مطلقة ابن أحد الوزراء، ابنة واحد من رجال الأعمال المرموقين، تزوجها ابن الوزير و لم يستطع أن يدخل عليها، جابوا به بلاد الدنيا شرقًا وغربًا، و لم يتركوا طبيبًا نصحهم به أحد، ولا ساحرًا أو كاهنًا أو عرافًا إلا وعرضوه عليه، و لم يستطع أحد منهم أن يحرك الساكن أو يشهر الغامد، فأوقع طلاقها، واحتفلا بالطلاق مع أصدقائهما، وذرفا الدموع حرًّى، ومنحته قبلة الوداع، قبلة تذيب الحجر وتحرك الساكن.

رآها على شاطئ بركة السباحة في أحد الفنادق الكبيرة، سأل عنها فحكوا قصتها، لا ينقصها المال أو الجاه فلماذا تقبل به؟!!، وتفتق ذهنه عن حيلة جهنمية، دُعي إلى حفل عزوبي خالص في الجناح الملكي في الفندق الشهير، وصلتها الدعوة مكتوبة، فيها كل الشروط، وأهم شرط هو وضع قناع على الوجه، لن يكون سافر الوجه في الحفل إلا هو، ومن باب الفضول لبت الدعوة.

من ير صفوت بيومي يعطه أقل كثيرًا من سنه، هو في الحقيقة شاب برغم سنه، يمتلىء حيوية وكياسة ولباقة وهدوءًا، وشيئًا من العفرتة، لا يدركها إلا عفريت حقيقي، أو عفريتة، وناتاشا عفريتة حقيقية، كل ما أملت فيه أن يخرجها الحفل من الملل التي ران على حياتها، وعندما وضعت قدميها عند باب الجناح أدركت أن الجو جديد.

نساء شبه عاريات، وأخريات يرتدين بذات رجالية، ويمسكن بكرابيج ملونة، متعددة الأطراف، ورجال يرتدون جلابيب حريرية قصيرة، كأنهم ذاهبون للنوم، وآخرون يرتدون ملابس نسائية، وفي أركان الجناح مباخر نحاسية ينبعث منها دخان أزرق ذو رائحة عشبية، أدركت على الفور أنها رائحة الحشيش، وبين الحين والحين، كان أحدهم يقترب من المباخر ويضع فيها بعض النقاط من سائلٍ لزج، ويعود الدخان إلى الانبعاث بكثافة.

كانت قد وصلته شحنة من زيت الحشيش، ورأى ألا يبيعه، وإنما يستخدمه لحسابه، وأراد أن يجرب تأثيره على مجموعة من الناس، وكذلك على الفتاة التي لم يعرف طعم النوم منذ اشتهاها.

الجو في الحفلِ جعلهم يتخلون عن الأقنعة، ونظروا في وجوه بعضهم البعض و لم يروا شيئًا، رأوا دواخلهم عارية، وغابت عنهم المنغصات، ومن كانت طبيعته قاتمة التزم مكانه وغرق في نكده، ورأت ناتاشا أن تستعرض وجوه الغارقين في الخدر فسقطت في بحيرة ذاتها، ورأت كم هي تعيسة، ووحيدة، ومطاردة بخيبة زواجها من الرجل الذي لم يحرث تربتها، واقترب منها صفوت، تحدث إليها في ود، قال إنه يريدها بشروطها، في الوقت الذي تريد، والمكان الذي تختار، والكيفية التي ترى.

أخرجها من خدرها لثوان، أطلت نصف واعية تطلب أن يعيد عليها عرضه، فأعاده، واستوضحته ما قال فأجابها، تقيمين في المكان الذي تختارين، لن آتي إليك إلا في الوقت الذي تقررين، ما بين زياراتي لك لا شأن لي بك، تذهبين إلى أي مكان تريدين، وتقابلين من تشائين،

وإذا لم ترغبي في أن أبيت لديك أنا موافق، مالت على عنقه وطبعت قبلة رائعة، أسكرته، وقبل أن يعود إلى رشده سألت:

– عندك كتير من البتاع الرهيييب ده؟!!

يعرف أنها تقصد زيت الحشيش، أجابها بإيماءة أن نعم، قالت:

– تسلمهولي قبل أي حاجة تانية.

بقيت مسألة شديدة الأهمية لا يمكن إنفاذ شيء إلا إذا استوفيت، أن يحصل على إذن صديقه اللواء عاصم الإمام، فهو مستشاره الأمني، يحصل الرجل على مليون جنيه في السنة، وفي المقابل يُؤمِّن له تجارته ونقاء صورته لدى الأجهزة، كل الأجهزة، ويُرهِب من يفكر في الاقتراب منه.

وافقه اللواء الإمام، وكان قد طلب مهلة لتقديم تقرير عنها، والتاجر الشيطان فهم أن اللواء يريد أن يخلق لنفسه عملاً طمعًا في الأجر، فحرر له شيكا بمائة ألف جنيه مقابل التقرير، وبعد عدة أيام جاءه التقرير، فالفتاة في الحقيقة سحاقية، تحب التقرب من النساء القويات، اللائي يظهرن بمظهر رجولي، أمامهنَّ تتفجر أنوثتها وتنفضح أسرارها، ولو أن ابن الوزير لبى رغباتها لما طلبت الانفصال عنه أبدًا، وهكذا عرف صفوت أنه عندما أبلغها بأنها حرة في السكنى حيث تشاء، وفي أن تستقبله متى تشاء، وأن تستقبل من تشاء، وأن تلازمه بالكيفية التي تشاء، إنما فعل تقريبًا كل ما يلبي رغباتها.

وهكذا مضى في مشروع الزواج من ناتاشا، ابنة رجل الأعمال المرموق من أمٍ روسية رائعة الحسن، تزوجها الأب إبان دراسته في إحدى جامعات الاتحاد السوفيتي في نهاية عصر أنور السادات، وكان وقتها منتميًا لواحد من التنظيمات الشيوعية السرية، ولم تنجب منه إلا ناتاشا بعد محاولاتٍ مُضنية.

بقي أن نعرف أن الاسم الرسمي لـ"صفوت بيومي" هو صفوان، فعندما بلغ سن الرشد أراد والده أن يخرجه إلى النور في دفاتر الدولة وسجلاتها، فاكتشف أن موظف الصحة دون الاسم خطأ على أنه "صفون" بوضع النون محل التاء، ولما خرجت البطاقة الشخصية بالاسم المعيب تفتق ذهن الرجل عن حيلة، أضاف ألفًا بين الواو والنون في الأضابير والدفاتر والسجلات، وأيضًا في البطاقة واستماراتها المودعة أرفف السجل المدني، وصار صفوت في السجلات الرسمية، صفوان.

باستثناء حالة ناتاشا التي استمتع إلى جوارها بأبعاد جديدة ورائعة للنساء لم يكن له إلا زوجة واحدة، أنجبت له أبناء أربعة، ثلاث بنات وولدًا واحدًا، أرسله للتعليم في المدرسة الألمانية، ولما حصل على شهادته الثانوية ألحقه بالجامعة الألمانية، يدرس إدارة الأعمال.

السبت 29 يناير

الميدان الذي يظن رفاعة أنه يراه بعينين ثاقبتين يكشف عن أوجه أخرى لم يكن يظن أنها قائمة، لا هو، ولا هؤلاء الذين يغازلهم النوم ويأخذهم في ركابه فيستلقون في الجنبات يلتمسون شيئًا من الراحة، أو يعيدون شحن بطارياتهم التي أخرجت كل طاقتها في يوم الغضب العظيم، الذي جرت فيه دماء غزيرة، وزهقت فيه أرواح كثيرة، إما قتلاً مباشرًا بالطلقات الحية، أو دهسًا تحت عجلات العربات المصفحة التي يقودها محترفون ينتمون لجهاز الشرطة، أو بطلقات جاءتهم من أماكن مجهولة، لتسكن الرؤوس والصدور.

الميدان كما يراه رفاعة في صحبة تايسون له وجه يختلف، يرى شيئًا منه في الثغرة التي نفذا منها من مربع مبنى جامعة الدول العربية، والآن هو على يقين من أن الميدان لم يكن في أية لحظة، ولن يكون أبدًا كما يظن الموجودون فيه.

كيف نفذ هو وتايسون من حصار الثوّار عند جامع عمر مكرم؟!!، وكيف وجدا نفسيهما عند أعتاب الفندق الذي يطل برأسه على الميدان الفسيح؟!!، كأنهما وضعا طاقية إخفاء فوق رأسيهما، لم يحظيا حتى بنظرة استطلاع من أحد؟!!، كلها أسئلة تُشقي عقل رفاعة، تجعله يشعر بشيء من الضآلة والخوف، فأن يكون للميدان معان ومسارب، ومنافذ ومداخل لا يعرفها الثوار فهذا يعني أن القبضة التي ثاروا لشلها تسيطر بقوةٍ أكبر مما يظنون، وتتحين الفرصة للقبض على الرقاب.

يأخذهما واحد من العاملين بلباسه الذي يشبه لباس واحد من أعوان

السلاطين القدامى، يصعد معهما إلى أحد الطوابق، تقودهما الخطوات عبر دهاليز كثيرة قبل أن تستقر بهما في حجرةٍ صغيرة، فالرجل الذي استدعاهما سيأتي بعد قليل.

الدهشة التي تأخذ بمجامع روحه تأبى أن تغادر، وعقله المتمرد يكاد يفقد القدرة على التفكير، كيف يتركونه مسلحًا بطبنجته الجاهزة للإطلاق؟!!، لم يتحسس جسده أحد، و لم يسأله عما إذا كان مسلحًا، إن من يتركك تقابله وأنت مسلح لا شك يملك من القوة ما يشل به حركتك، ويجعل مسألة تسليحك أقرب ما تكون إلى العبث أو النكتة، لكن ذلك لا يمنعه من تحسس الطبنجة، والاطمئنان إلى أنها هناك.

الفجر الوشيك يبعث الحياة في الأشياء الساكنة، ويُنقِّي الأحلام من حواشيها، ورفاعة عندما جال في الميدان لم يكن يهدف إلى أكثر من رؤية صفية من بعيد، يراقب حركتها التي أخذت لبه وقلبه ذات يوم، ثم لم تفلته بعدها، ويستودعها شجونه وأحلامه، لكنه لم يعثر عليها، ولا على شهدي، ووجود تايسون يمنعه من سؤال أحد عنهما، ربما يكونا قد غادرا إلى البيت لنيل قسط من الراحة، أو أنهما يرابطان في أحد المنافذ التي لا تزال حتى مع اقتراب الفجر تتعرض لمحاولات الاقتحام.

لا يسعفه الوقت لسؤالٍ جديد، فالرجل شاخص أمامه، يعرف هذا الوجه الطفولي الملتحف بالبراءة، وهذه الابتسامة التي تسيطر على الملامح كلها، رآه من قبل، عاش معه شهورًا طويلة، يدرك الآن أن كل ما رآه في أحلام نومه وحتى أحلام يقظته حقيقة لا تقبل الشك، وإلا ما تفسير

معرفته هذا الوجه؟!!، هذه القامة؟!!، هذه النظرة المستطلعة بفجاجة؟!!، هذه الملامح المسطورة فوق صفحة الوجه التي لا يعكرها الافتقار إلى اليقين؟!!

الرجل لا يكف عن استطلاع وجهه وملامحه، كأنه يسبر غوره، يبحث فيه عن شيء يتعلق بموت الرائد مجدي الحسيني، أو خطف ابنته، لكن ظلال الأحداث التي واكبت اغتيال الضابط تطغى على شكوكه كلها، هذا ما يقرؤه رفاعة فوق صفحة الوجه التي لا يهتز سطحها.

ملابس اللواء الإمام تنبئ عن أنه في قلب عملية عسكرية، بذة مُموَّهة كبذات رجال الصاعقة، كمان مرفوعان حتى منتصف العضد، برغم برودة يناير، وحذاء رياضي عسكري يحتوي طرفي البنطال المتسع عند الحجر حتى لا يعوق الحركة، وبندقية غريبة لم يرَ مثلها من قبل، يمسكها بيدٍ واحدة، مثبت على ماسورتها منظار غريب، كأنه قادم من رحلة صيد، أوْ متوجه إليها، إنه في عجلةٍ من أمره، لكن العجلة لا تغير طبيعة الوجه الذي يتعمد الابتسام:

– انتو عارفين دلوقتي تدخلوا منين، وتخرجوا منين.

يومئ تايسون موافقا فيومئ رفاعة مثله، لكن العينين المذهولتين لا تفارقان الوجه الطفولي الذي يأخذ الآن نصيبه الواجب من الصرامة:

– دلوقتي هاترجعوا لزمايلكم، ومع الضهر تنزلوا، عايز الميدان يبقي نار حمرا.

ويخص تايسون بالتأكيد:

- دي لعبتك انت وزمايلك.

ويؤكد وهو عند باب الحجرة:

- مش عايز أي واحد منكم يقع في إيدين الجيش.

وقبل أن يختفي يختص رفاعة بالقول:

- إنت المسئول أمامي عن لبسهم، عايز اللي يشوفهم ما يشكش أبدًا أنهم من المتظاهرين.

ويختفي كما ظهر، ينسحب في أقل من لمح البصر.

لا يعرف رفاعة كيف وقف ينظر إلى وجه الرجل الذي حوله ذات يوم إلى امرأة، ودفع بالفحل الذي اخترقه دون هوادة، كيف لم تختلج ملامحه؟!!، ولم تنطلق من صدره زفرات حارقة؟!!، كيف تماهى مع الظرف فأنس الرجل إليه؟!!، إنه إن كان هناك من يفوق قدرة قائد أجندته على التخفي سيكون هو هذا الشخص، فالرجل لم يجد في وجهه لمحة واحدة تثير قلقه، إذن هو سينجح، هكذا يقول لنفسه، وما يغمض عليه سيحصل على إجابته من تايسون، يعرف كيف يحصل منه على الإجابات، وهو الآن يعرف أنهم سيدفعونهم لأن يندسوا بين المتظاهرين، ويريدون منه أن يشرف على لبس الرفاق وهيئاتهم، كأنهم من الثوار، ولكن كيف سيتمكنون من التسرب إلى الميدان، إنهم لن يقدروا على الدخول بكثافة إلا مع تدفق الجموع، أمامهم وقت يمتد من الفجر وحتى إلى ما بعد الظهر.

ما يغمض على رفاعة أكثر بكثير مما يطيق عقله، يخرجان من جهة الكورنيش، ويسيران حتى يعبرا نفق كوبري قصر النيل، ثم يأخذان الكورنيش حتى كوبري أكتوبر، من هناك ينحرفان يمينًا، لا يقتربان من ميدان عبد المنعم رياض، ويقصدان عبر موقف الأتوبيسات إلى الشارع الذي يقع فيه مقرهم الغامض.

كلهم هنا، في المقهى الذي يغلق بابه رغم الهدوء الحذر الذي يخيم على المكان، ويقف رفاعة، يلقي نظرة على فندق هيلتون رمسيس، يقارن بينه وبين الفندق الذي التقى فيه رأس أجندته، فإذا كانت البندقية التي كان يحملها وهو يتحدث إليهما بندقية قناص فإن سطح هيلتون رمسيس لا يقل مناسبة لانتقاء الضحايا عن سطح الفندق الآخر، وهو مشرف على الميدان أيضًا، ويكشف منه أكثر مما يكشفه سطح الفندق الآخر، ولكن لمعة ضوء كشفت لعقله المضطرب عموض الاختيار، فهناك بالقرب من السفارتين الإنجليزية والأمريكية يحظى الفندق الآخر بخصوصية استحالة اقتحامه، ويهلل رفاعة من داخله، فها هو يفكر على نحو جديد، وها هو عقله يعمل بأقصى طاقته، وإن كان لا يعرف كيف سيقدر على التسلل إلى الفندق الآخر، وكيف سيتمكن من مفاجأة رأس أجندته ويرديه قتيلاً.

كل شيء جرى تسليمه للرفاق في غيابهما كما هو، كراتين العصائر والساندويتشات، وكراتين زجاجات الماء، وأكياس الخبز وغيرها من الأغراض، ويقترب الناعم من فتوته، يسلمه كيسًا يقول إنه من الحاج صفوت بيومي رأسًا، ويتلمظون، ويشاركهم رفاعة التلمظ، فمجرد

نُطق أحرف اسم غريمه يدفع قلبه للانعتاق من كل ما يثبته بين أضلاعه، يا أللـه!!، لأول مرة يدرك أن ثمة علاقة مباشرة ومخصوصة بين تايسون وصفوت بيومي، وبين صفوت بيومي وما يجري هنا، في الميدان، وحتى في التخوم.

كيف يفسر التقاء كل خصومه في الظرف الراهن؟!!، الرائد مجدي الحسيني، الذي هو ترس في آلة اللواء عاصم الإمام، صديق الحاج صفوت بيومي، وتلميذ الشيخ "أبو داوود الجهيني"، لا يشذ عن هذه القاعدة إلا عبد العزيز القاياتي، أتُراه واحدًا من منظومتهم أيضًا؟!!، ومتى ستتكشف كل الحقائق؟!!، كل نجوم أجندته يلتفون حول بعضهم البعض، كالديدان، لا يُعرف ذَنَبَ أحدهم من رأس الآخر.

علب السجائر المليئة باللفافات الملغومة هدية النائب صفوت بيومي تكفى لأن يتحول الميدان إلى ساحة من المساطيل، ورائحة الحشيش التي تنبعث من الكيس تنبئ عن بضاعة مميزة، ويتلمظ الجميع، وتمتد يد تايسون وتفتح إحدى العلب، يقدم لكل واحد من الموجودين خمسة سجائر، ويشرعون في التدخين، في دقيقة تخيم سحابة من الدخان الأزرق في المكان، تتعكر الأعين باحمرارٍ طال البحث عنه، وتتوقف نقاط الألم التي تنبعث من هنا ومن هناك، من جراء المجهود العضلي الذي بذلوه طوال اليوم، ومن المواضع التي أصابتها قذائف الأحجار المضادة، التي صوبها نحوهم المتظاهرون.

لا يمكنه مغادرة المكان إلا بعد أن ينفذ ما هو مطلوب منه، فأين يمكنه

العثور على ملابس لهؤلاء الذين يرتدون ملابس يبدون فيها كالقرود، يقترب من تايسون ليسأل، ويحيله تايسون إلى مجموعة من الصناديق القائمة في ركن المقهى، يأمر الناعم بفتحها، ويسارع القشاش ليساعده، لا يأبهان للضحكات الساخرة التي تنطلق في المكان، فما بين الرجلين من حبٍّ يفوق أي إمكانية للغضب.

كل شيء يبدو طبيعيًا، ملابسهم وهيئاتهم، فكيف يمكنه التعامل مع الآثار المسجلة على وجوههم وجباههم وزوايا أفواههم، وآثار الطعنات والضربات القديمة في فروات الرؤوس والشفاة وأكف الأيدى، لا مفرٍ من الأمر بأن يحلقوا لحاهم وشواربهم، لا مفر، ويأمرهم تايسون بإزالة اللِّحى والشوارب، وتلف مطواته في الهواء دورات غير محصية، تذكيرًا لمن يفكر في الاعتراض، بعد دقائق يعودون وقد تغيرت هيئاتهم، هم الآن أقرب ما يكونون إلى الثوار في الميدان الكبير، ويمكنهم إذا لم يفتحوا أفواههم بالحديث أن يذوبوا وسطهم حتى تحين لحظة الانقضاض.

إنها التاسعة صباحًا، وحتى يحين موعد الظهر أمامه ثلاث ساعات، هل يقدر على القيام بزيارة واحدة من زيارات أجندته بحيث لا يلحظ تايسون غيابه؟، القاياتي بلك يقيم في مصر الجديدة، وحتى يستطيع النفاذ إلى هناك يلزمه اختراق شارع رمسيس والتوجه إلى العباسية، أو ركوب كوبري أكتوبر إلى هناك، ولكن دونه والصعود إلى الكوبري محاذير جمة، أخطرها أن من هناك من الرفاق سيبلغون تايسون بوجهته، وبأنه يحتفظ سرًا بدراجته النارية، وأيضًا فإن أعتاب الكوبري يحتلها جنود الجيش،

فكيف يمكنه اعتلاءه؟، الأفضل أن يقصد إلى الكورنيش ويصعد إلى كوبري 15 مايو، من هناك يأخذ الوصلة المفضية إلى كوبري أكتوبر، وهو يستطيع أن ينفذ من هناك كما فعل من قبل.

في اللحظة الأخيرة يتراجع، فوجوده في الميدان يسبق في أهميته أي شيء آخر، ولو كان هذا الشيء ضربة ناجحة لبند في أجندته، فإذا كان قد اقترب من رأس الأجندة، ورآه رأي العين، وسمع فحيحه، ورأى ملمسه الناعم وبسمته النارية، أفيكون مناسبًا تركه والجري خلف خيوطٍ لم تتضح بعد؟!!

الجميع منخرطون في تدخين سجائرهم، أشداقهم تسقط لعاب الخدر، وعيونهم تفصح عن توق للغياب، يقترب من تايسون، يسأل إن كان يمكن أن يدعهم ينامون ساعة أو ساعتين، يخشى أن يسقطوا من الإعياء إن هم لحقوا بالميدان دون نوم، ويصادقه تايسون على ما يقول، ويصدر الأمر هذه المرة مترفقًا، لكنهم يفضلون العودة إلى التدخين، وفيما هم يفعلون يأخذهم النوم في دوامته، وينقلبون كل على الوضع الذي تهيأ له.

لم يعد إلا هو وتايسون، كل منهما يعاند الآخر، كأنهما في سباق مع اليقظة، ومع الخوف، لماذا إذن صحبه لمقابلة اللواء الإمام إذا كان الشك فيه لا يزال قائما؟!!، سؤال لا يجد إجابته، هل يحتاج الأمر بتوليه مسئولية ملابس الرفاق وجعلهم على هيئة الثوار إلى عقد لقاء مباشر مع الرجل؟!!، سؤال لا يجد إجابته أيضًا، إذن هو في خضم، والتخبط ترف شديد، فإما يجيد السباحة، وإما يربط نفسه بمن يجيدها، ومن يجيدها

الآن هو تايسون، الذي يحتفظ بخيوط لا يعرف عنها شيئًا، يحتاج إلى شيء من التريث حتى يستطيع أن يستنطق تايسون بما يريد.

بإمكانه أن يسأل عن البندقية التي كان يحملها اللواء الإمام، ومن خلال الحديث يستدرجه إلى ما يريد، وذلك لا يتأتى إلا إذا كان رائق الذهن ومحتشدًا، والتفكير الذي يسيطر عليه لا يجعله على النحو الذي يريد، ليته تخلص من اللواء الإمام ما إن رآه، حتى ولو قتلوه في الحال، لكنه لم يفعل، لا لشيء إلا لأنه لم يكن على يقينٍ من أي شيء، حتى من نفسه، ومن سلاحه الذي تركوه يحتفظ به وهو يقابل غريمه، ويختصر تايسون المسافة:

- شفت البندقية اللي كانت معاه؟!

وعلى طريقته يفكر في الاستفسار عمن هو الذي يقصده، لكن تايسون يسبقه:

- بيقولوا إنها أعظم بندقية في العالم، تصيب من على بعد كيلو.

ودون أن يطلب منه تفسيرًا يضيف:

- مفيش منها في مصر إلا خمس بنادق بالعدد.

ثم وهو يشعل سيجارة ويمدها إليه:

- كلهم عهدة الباشا شخصيًا، هوه بس اللِّي يقول مين يمسكها ومين يضرب بيها.

الآن يمكنه أن يقول دون أن يتطرق إلى ما يقول شك:

- يا عم بلاش نتش، وفتح سدر ع الفاضي.

وأن يسأل:

- جبت منين يا خفيف كل المعلومات دي؟!!

ويتهكم:

- تكونش وزير الداخلية وأنا مش عارف؟!!.

ويغضب تايسون، إذا مر الأمر بغير أن يفتح مطواته فإن أي تصرف آخر يكون مقبولاً، وهو في سبيل الانتقام لنفسه لن يتردد في الإفصاح عن بعض ما يريد رفاعة أن يعرفه، يقول متحديًا:

- أنا يا خيبة أهلك واحد من أهم رجالة في البلد بيواجهوا العيال دول.

ويشير في اتجاه ميدان التحرير:

- وعلشان طول لسان أهلك أحب أقولك إن البنادق الخمسة هايشتغلوا النهاردة، حفلة عُمْر أم البلد ما شافتها، الباشا بعروسته وأخواتها ها يجيبوهم على وشهم، أخيب واحد فيهم كعابه هاتخبط في طيازه وهو بيهرب.

وإذ يرى رفاعة لا يعلق يقول:

- كل ما أروقلك يالا تعكر دمي، مش عارف إيه اللي مصبرني عليك؟!!

ويتظاهر رفاعة بالضحك:

– محبة برش ونمرة، وجردل يا كبير.

* * *

كل ما قال تايسون تحقق، في آخر لحظة وهما يوقظان الرفاق يفتح صندوقًا مغلقًا، يخرج مجموعة من المطاوى قرن الغزال الجديدة، لم ترَ النور من قبل، ويسلم كل واحد منهم اثنتين، واحدة منهما احتياطية، ففي حال يفقد أحدهم واحدة يجد الأخرى، ويعطيه هو الآخر اثنتين، ويدخلون إلى الميدان من بابٍ خلفي وراء المتحف، لحظات ويجدون أنفسهم في قلب الميدان.

إشارة البدء ستكون مناورة بالطائرات الحربية فوق الميدان، هكذا قال اللواء الإمام لـ"تايسون"، أين ومتى رفاعة لا يعرف، وبينما تشرئب الأعناق وتصاب الأجساد بخدر الخوف تنطلق الصرخات، حادة ومتألمة، فالرفاق يطعنون الثوار في خواصرهم ومؤخراتهم وأفخاذهم، والدماء تسيل في كل مكان، ولم يسقط في قبضة الثوار أحدٍ، يذوبون وسط الجموع الهادرة، وتعود الطائرات لتنقض، في مشهدٍ يُذكِّر بالغارات الحربية، ويسقط من بين الجموع أناس تثقبهم طلقات مجهولة، تخترق جماجمهم وصدورهم فيخرون صرعى، دون تلبية واحدة لنداء الجسد الراغب في الانتفاض.

بإمكانه أن يفر الآن، فلا يعود إلى الرفاق أبدًا، ولكنه سيكون هدفًا لهم، سيفتشون عنه، ولن يتمكن من معرفة هوياتهم، أو المعلومات التي

يجمعونها عنه، وعن صفية وشهدي، هو ليس واثقًا مما إذا كان اتفاقه الذي أبرمه مع القشاش لا يزال ساريًا، وإذا أراد أن يختبر صلابته فقد يؤدي ذلك إلى كشف حيلته، ومن ثم يقدم لـ"تايسون" سببًا جديدًا لملاحقته، شيء ما يدفعه إلى التمرد على كل المحاذير الذي يطلقها عقله المتردد، ويعترف لنفسه بأن كل ما يضعه عقله من عقبات مردها إلى تردده، وخذلانه، ورغبته الأكيدة في النكوص على الأعقاب، والفرار من الالتزام بتنفيذ الأجندة، يتساءل: أتُراه في يومين اثنين استمرأ حياة الحرية فرغب عن الانتقام؟!!

يتساءل من جديد، أين هي تلك الحرية؟!!، إنه منذ خرج إلى سطح الأرض لم يهنأ بساعةٍ واحدة، اللهمَّ إلا تلك الساعة التي تركته فيها الحاجة نوال يحظى بشيء من النوم، باستثنائها هو لم يهدأ لحظة، و لم يشعر بشيء من السكينة أو السلام.

الفارق بين ما كان وما هو قائم خطوة واحدة، خطَّاها خارج نطاق الاتفاق، لم يعد يرى أحدًا من الرفاق، كل الرؤوس في الميدان سواء، مئات الآلاف تهدر بحناجر ملؤها الغضب، والخوف، فطلقات القناصة تخطف منهم أرواحًا في لمح البصر، ويتهالك الضحايا في مواضعهم، بإمكانه أن يدور دورة في الميدان، دورة حرة، فحتى إذا أرادوا أن يلاحقوه لن يتمكنوا من الاهتداء إليه إلا بعد ساعاتٍ طويلة، وربما لن يقدروا على ذلك، حتى ولو تريثوا إلى وقتٍ متأخرٍ، عندما تخف الجموع، ويسفر الميدان عن مجموعاتٍ تحتشد هنا وهناك، عند المداخل وحول المنصات،

وفي الطريق إلى نقاط الإسعاف المتقدمة، وحول المستشفى الميداني الذي يواصل استقبال القتلى والمصابين، والمدهوسين الذين يعانون إصابات هرسية قاتلة.

الحرب تشتد، والمهاجمون في محور ميدان عبد المنعم رياض وشارع رمسيس يواصلون قذف كرات النار وقنابل المولوتوف، ويقذفون على الثائرين الأحجار وقطع كسر الرخام، التي تمدهم بها سيارات الربع نقل النشيطة، ومحور القصر العيني الكورنيش ترابط فيه قوات الشرطة، التي يرتدي أفرادها الملابس المدنية، بقضبانهم الحديدية القاتلة، وأسلحتهم البيضاء، وبنادقهم التي تطلق زخات الرش فتفقأ العيون، والقناصة فوق الأسطح البعيدة يختارون الضحايا بدم بارد، ومن خلال عدساتهم يُحكمون التصويب إلى الرؤوس، وفي مواضع القلوب، وما أحدثه الرفاق من جروح بالطعنات الفجائية ينبئ عن مجموعات مماثلة لمجموعتهم، يقود كل منها تايسون مختلف، بإمكانه إذن أن يخوض حربه هو، ولا يجب أن يتأخر أكثر من ذلك.

لا يعرف متى هبط الليل على الميدان، ولا كيف استحال ليل الميدان نهارًا تتخبطه الفوضى، فالهجوم يواصل المجيء من كل صوب، وطلقات القناصة تزداد ضراوة، كأن اللواء الإمام الذي يقود القناصة يستمتع بعمله، أمامه سبيلان لا ثالث لهما، إما يتسلل إلى الفندق ويرى كيف سيصل إلى مبتغاه، وإما يبحث عن طريقٍ للعودة إلى الرفاق، فمسألة البحث عن صفية وشهدي لن تقود إلا إلى خسارة تدمي قلبه هو، وليس أحدًا غيره.

لا يعرف كم من الوقت مر وهو يحاول التسلل إلى الفندق، وعند تخوم الميدان يرى تايسون يغيب في باب الفندق لبعض الوقت، ويظل كامنًا ليرصد عودته، لكنه لا يعود، لا شك سيعود عبر طريق الكورنيش، فلقد سلكاه من قبل، ما الذي سيقوله للعاملين على باب الفندق ليسمحوا له بالدخول، هو على يقينٍ من أن جميع من يعملون في الفندق الآن يتبعون أمن الدولة، واللواء عاصم الإمام نفسه، فالرجل واحد من أهم قواد عملية كسر إرادة الثوار، إن لم يكن هو القائد الأهم.

عند الباب يرى حركة غير معهودة، مجموعات من أفراد يرتدون لباسًا عسكريًا يلتصقون بجدران الفندق، ويتجهون ببطء صوب الباب، لا يعرف ما الذي يجري، يختبئ بحيث لا يراه أحد، شيء ما يبث في نفسه شكًا من نوع مختلف، فهؤلاء الذين يتسللون ليلجوا من باب الفندق لا شك ذاهبون لأمرٍ يتعلق بالقناصة الذين يعتلون السطح، أمور لا يقدر أحد من الموجودين في الميدان على سبر أغوارها، فما الذي يدفعهم إلى التسلل هكذا؟!!، يرى من مخبئه وصول أول الجنود المتسللين إلى الباب الرئيسي، وانقضاض الجنود على الحراس الذين تشلهم المفاجأة.

لا يمكنه الاقتراب ولا الانصراف، يتسمَّر في مكانه، إنه إذا تحرك سيكشف نفسه، عليه إذن أن يظل مختبئًا حتى النهاية، صامدًا حتى أمام رغبته في التحرر من القيد الذي أوقع نفسه فيه.

ساعة مرت كأنها دهر، فيها صور له خياله معارك تدور في دهاليز الفندق الكبير وردهاته الغامضة، والآن يرى سيارة في شكل صندوق له

باب خلفي تقترب، وتقف أمام باب الفندق، دقائق تمر بصعوبة، ويهاجمه سعال لم يهاجمه من قبل، وينجح في مقاومته، يشحذ حواسه حتى لا يفقد تفصيلة مما يدور، فالسيارة تعدل من وضعها، وتعطي مؤخرتها للباب، كأنهم يضعون فيها أشياء، أو يجبرون أحدًا على الدخول في صندوقها، ويُهيَّأ إليه أنه يسمع صرير بابها وهو يغلق، وصلصلة أقفال هناك.

لن يعرف أحد أبدًا هوية القوة التي صعدت إلى سطح الفندق لتقبض على القناصة الذين يعتلون سطحه، هل هي من الجيش أم تابعة لجهة أخرى؟!!، وهل هي من القوات الخاصة المدربة على مثل هذا الفعل؟ وهل حومان إحدى الطائرات حول الميدان كان لرصد هؤلاء؟!!، وهل هذا يعني أن حربًا خفية تدور بين جهات غامضة وفي مستويات أعلى من مستوى إدراكه؟!!، وما أسباب هذه الحرب؟!!، كلها أمور وقفت في طريقه بغير إجابة.

لقد صدر أمر من جهة ما بمهاجمة القناصة الذين يعتلون سطح الفندق، لم يكن في الميدان من قوات الجيش سوى التشكيلات التي تضمن حماية الموجودين فيه، ثم جاءت القوة الغامضة.

بإمكانه أن ينطلق ليتبع السيارة الآخذة في التحرك من أمام باب الفندق الرئيسي، ولكن ليس بإمكانه معرفة ما جرى في الساعة التي سبقت تمركزها بصندوقها الغامض أمام الباب، ويقرر ملاحقة السيارة، حتى لو قبضوا عليه، أو اصطاده أحدهم بطلقة تُرديه قتيلاً.

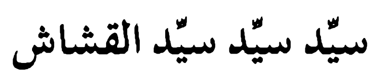
تتوغل السيارة في شوارع جاردن سيتي، فيما باقي القوات لم تخرج

من الفندق بعد، لعلهم يُجرون تفتيشًا للطوابق كلها، بحثًا عن المزيد من القناصة، وتهدئ السيارة من سيرها، ويقوم أحدهم بفتح باب الصندوق من الداخل، وفيما السيارة تتهادى يُلقى بخمس جثث في عرض الشارع، وتنطلق السيارة إلى وجهة غامضة.

قلب رفاعة يدق بعنف، وأنفاسه تتلاحق، صوت غامض يوجه إليه حديثًا آمرًا ومهيمنًا، بأحرف مسموعة وكلمات واضحة، إنه إن كان اللواء الإمام واحدًا من هؤلاء الملقين في عرض الطريق فلتغلق دفتي أجندتك، فأن يُقتل الرجل على أيدي هذه القوات الغامضة، وأن يُقتل من قبله الرائد مجدي الحسيني على أيدي أشقياء معروفين لهو دليل على أن القوة الأكبر التي تهيمن على كل الوجود تجيد عملها، ولا تحتاج إلى تنبيه أو تذكير، أو غلظة في القول، وعليه أن يفوض الأمر في باقي الأسماء لهذه القوة الجبارة، التي لا تلين قناتها، ولهؤلاء الذين يثورون في الميدان، ويبحثون عن غد أفضل.

يخشى إن هو اقترب ألا يكون اللواء الإمام من بينهم، ويخشى إن هو لم يفعل أن يظل هكذا حتى يتنبه الناس فيلقون القبض عليه، ويلمح من بين الجثث واحدة لرجل في حجم اللواء الإمام، نفس البذة المموَّهة كبذات رجال الصاعقة، وطرفا البنطال يغيبان في رقبة الحذاء الرياضى العسكري، كالهيئة التي كان عليها الرجل منذ ساعات، يتجاسر ويقطع الخطوات القليلة ليتأكد، ثمة أصوات بعيدة تطلق هتافًا غامضًا، وأصوات لغط قادم من بعيد، كأنه من قبيل الظن، وأصوات وقع أقدام غليظة، كأنها

قوات تدق الأرض امتثالاً لنداءات أكثر غموضًا، كل ذلك لا يمنعه من الإقدام، خطوات قليلة ويقف أمام الوجه الطفولي، وخيط الدم يسيل من زاوية الفم الذي كان يصدر أوامر غير قابلة للمراجعة.


سيّد سيّد القشاش

لا يعرف شيئًا عن أبويه إلا ما قاله رجل أخذه ليربيه، اسمه سيد القشاش، سيد سيد القشاش، رجل يعمل في محطة مصر، يبيع المياه الغازية على رواد المحطة، الذين يجدون أن ثمنها حال الجلوس في الكافيتريا يفوق قدرتهم. وجده الرجل فوق قضبان السكة الحديد، ثمرة علاقة بين أحدهم وواحدة من بائعات المحطة، لم يعن أبدًا بمعرفة هوية الأبوين، فكثيرًا ما تقذف القضبان أطفالاً يجدون طريقهم إلى الشوارع، والمحظوظون منهم يذهبون إلى بيوت البعض ممن يحتاجون إلى طفل.

سيد الذي أعطاه الرجل اسمه فأصبح سيد سيد سيد القشاش واحدًا من هؤلاء الأطفال، لكنه وقف عند عتبات سلم الحظ، فلا هو عرف طريقه إلى الشارع مبكرًا ليكون واحدًا من أطفاله، ولا هو نعم بدار حقيقية، ينعم فيها بنومٍ مريح ولقمة سائغة، وفرصة مواتية للعيش.

فـ"سيد سيد القشاش" كان فقيرًا، واضطر إلى بيع كليته؛ ليحصل على نقود إجراء عملية طفل أنابيب، لكن العملية باءت بالفشل، ودب اليأس في قلبه هو وزوجته تغريد العوجة، فساقت إليهما الأقدار هذا الطفل، عثر عليه ذات صباح فوق السكة الحديد، ملفوفًا بلفائف قديمة ومهترئة، وحبل الخلاص يلتف حول رقبته ويكاد يخنقه.

قالت تغريد إن السماء استجابت لدعائها، وأرسلت إليها ابنها الذي حلمت به، كأن شريط القطار لا يلفظ كل يوم طفلاً واثنين مثل طفلها، وأخفى سيد القشاش سخريته، فحتى لا ترى وقع كلماتها على ملامحه أعطاها ظهره ثم أومأ برأسه موافقًا، وهكذا شبَّ سيد الصغير وهو على

يقينٍ من أن سيد القشاش الكبير أبوه، وتغريد العوجة أمه، ولما جاء وقت دخوله المدرسة أدرك الزوجان أنهما لم يقيدا الولد في سجلات المواليد فعهدا إلى أحدهم بعمل أوراق ساقط قيد، وتم إثباته في سجلات الدولة على أنه سيد سيد القشاش، أبوه سيد سيد القشاش، وأمه تغريد توكل البشبيشي الشهيرة بـ"تغريد العوجة".

حكاية العثور عليه فوق شريط القطار لم تكن خافية على أحد، فـ"تغريد" لم تنسج حكاية محبوكة لإيهام الناس بأن سيد الصغير ابن رحمها، و لم يعن سيد القشاش الأب بالتأكيد على ذلك، تركا الحكاية تُتَدَاوَلُ بين الجيرانِ، حتى أن الطفل عاد من المدرسة ذات يوم وفمه وأنفه يقطران دمًا، فلقد عيره الأطفال بأنه ابن حرام، ونشبت معركة تكاثروا فيها عليه وأوسعوه ضربًا، و لم تطأ قدماه المدرسة بعدها.

خصلتان نشأتا مع سيد الصغير، أولاهما سبقت الثانية بأعوام، التلصص على الآخرين وإتيان الذكور، الأولى بدأت برياضة الاختباء التي كان يمارسها بحبٍّ مع أمه تغريد العوجة، يختبئ بين طيات الصفيح في حجرتهم الفقيرة، في المنطقة الفاصلة بين محطة مصر وكوبري الليمون، ثم يفاجئها وهي غافلة فتنتفض مذعورة، وتلاحقه بما تطاله يداها، وشيئًا فشيئًا صار يجد لذة كبيرة في النظر إليها خلسة، فيما هي لا تدري بأنه قابع هناك يسجل عليها كل صغيرة وكبيرة، وهكذا عرف بأنها تخون أباه، وتلتقي الرجال من وراء ظهره، في الحجرة نفسها والفراش ذاته.

ولما مرضت وأدخلها أبوه مستشفى القصر العيني اكتشف أن أباه

هو الآخر يستقدم إلى الحجرة بائعات المياه الغازية في المحطة وعلى متن القطارات، ويفعل معهنَّ مثلما يفعل مع أمه، وإذ وقف على تلك الحقيقة توازن الغضب لديه، فلقد كان غاضبًا من أمه بشدة، ثم توزع الغضب على الأبوين، وربما كان انحيازه لأمه السبب في أن قِسْم الغضب الذي اختصها به كان أقل من القسم الذي اختص به أباه.

لم تعد تغريد من المستشفى، ذات مساء جاء أبوه وأخبره أنها ماتت، وأنهم دفنوها في مقابر الصدقة، لكنه لم يعرف مكان قبرها أبدًا، لم يرَ طوال سنوات طفولته أحدًا من أقارب أمه أو أقارب أبيه، سمع فقط حكايات عن زيارات قديمة وقرية بعيدة، أو هي مدينة، لا يدري، وسمع أباه ذات مرة يحكي عن أحد أقاربه زاره ومعه قفة كبيرة بها أرز معمر وبط، وفطير مشلتت وجبن قديم، وخبز رحّالي، وكان وقع الخبر عليه غريبًا.

لا يدرى لماذا شعر براحة غريبة، وأسى، نعم، راحة كبيرة، لأنه لن يضطر إلى التلصص على أمه، ولن يراها بعد ذلك وهي تنخر بمنخاريها تحت صلب أحدهم، وتسبه بأمه وأبيه، وأسى غريب، فهي كل من كان يعرفهم في الدنيا، إذ هو لا يعرف عن أبيه إلا توتره الدائم، وسبابه الذي يمضغه مع البلغم الذي لا يكف عن إخراجه، وبعد رحيل تغريد ليس أمامه إلا أن يعيش مع الرجل الذي لم يُعلِّمه شيئًا، الرجلِ الذي يخرج في الصباح دون أن يرش وجهه بالماء، ويعود مع الليل حاملاً بعض الطعام، ويقدمه له دون كلمة واحدة.

عرف طريقه إلى المحطة الأم من طرقٍ خلفية، طرق لا يعرفها أبوه،

يلتقي هناك أطفالاً مثله، وشيئًا فشيئًا صاروا يدخنون أعقاب السجائر، ويشمون الكلة، ويغيبون عن الوعي لساعات طويلة، ويتداولون أسرار الكبار، ما رأوه بأعينهم من أمور الرجال والفتيات، في ذلك الوقت بالتحديد شعر بالرغبة في الاقتراب من صبي في مثل سنه أو أصغر قليلاً، وكانت لدى علاء نفس الرغبة، وانتحيا جانبًا واكتشف كل منهما الآخر.

في البداية كانا يتبادلان الوضع، وفي الغالب يكون سيد هو البادئ، وعندما يحين دور علاء لا يكون المتبقيِّ من الوقت كافيًا لفعل شيء، وهكذا تقلص دور علاء الإيجابي إلى أن صار معدومًا، فلقد اكتشفا أن البداية فيها ما يرضيهما معًا، وتطورت العلاقة بينهما حتى صارت معروفة، وعبر مشاجرات كادت أن تكون قاتلة كف الجميع عن التحرش بهما، وتركاهما لينعما ببعضهما، دون تطفل أو تدخل، أو حتى إعلان الرغبة في المشاركة.

لا يعرف سيد الصغير متى اكتشف أنه لا يهوى النساء، فحتى عندما عرضت إحداهنّ عليه نفسها لم يستطع أن ينحي عن خياله صورة أمه وهي تسب البشر تحت صلب رجل من أصدقاء أبيه، لا يشعر بنفسه وقدرته إلا مع علاء،و يقطر قلبه ألمًا محببًا عندما يأخذه بين يديه، ويرتجف بدنه كله.

مع الوقت اكتشف أن علاءه الحبيب يخونه، تمامًا كما كانت تفعل أمه، وكما يفعل أبوه حتى ذلك اليوم، بقدرته الفائقة على الاختباء والتلصص رآه ينطرح لواحدٍ من أصدقائهما، وتكتسي ملامحه بأمارات الحب التي

ظن أنه يختصه بها، وظل طوال أيام يفكر في الانتقام، ممن ينتقم؟!!، أمن الصديق الذي اختلس دقائق متعة مع حبيبه؟!!، أم من حبيبه الذي خانه بدم بارد، وتفل على ما ظنه مشاعر مخصوصة يكنها له؟!!، واستقر على الانتقام من الاثنين، وفي رحلة التخطيط للانتقام اكتشف أن جميع الأصدقاء يفعلون مع علاء نفس الشيء، فاستقر دون تردد على الانتقام من علاء وكفى.

المطواة التي سرقها من أبيه راح يشحذها على كل الأحجار التي يمر بها، سور المحطة، حواف الأرصفة، قطع الجرانيت الصغيرة المتبقية من أعمال تجديد المحطة، وصارت مشحوذة إلى حد أنها - كما قال لواحد من أصدقائه - كانت تطلب قلب أحدهم، و لم يكن هذا القلب إلا قلب علاء، حبيبه الخائن.

ما بينهما أكبر كثيرًا من أن يجلله الدم، لا يقدر على قتله وهما في الوضع الذي ينخلع له قلبه، وإذا بادر بالتجهم في وجهه ربما ينبهه إلى ما يتهدده، كيف إذن يستطيع أن يقتله ولا يضطر إلى النظر في عينيه؟!!

افتعل معه شجارًا، دس بعضًا من أغراضه في صرته وادّعى سرقتها، وأجرى تفتيش صرر أصدقائه صرة صرة، ثم وجد أغراضه في صرة حبيبه، سبقته المطواة المشرعة، ووقف الأصدقاء لا يدرون كيف يمنعونه، فالكلمات التي قالها لواحدٍ منهم وجدت طريقها إلى آذانهم جميعًا، المطواة تتحدث إليه، وتبلغه بحنينها إلى قلب أحدهم، أيكون ذلك هو إجابة النداء؟!!

لا يتصور علاء أن سيد القشاش، وسيد القشاش بالذات يقدر على

إيذائه، وقف حائرًا، ينقل البصر بين صرته وبين صديقه، وعقله لا يكف عن طرح الأسئلة، عن علاقته بـ"سيد"، ومَن مِن هؤلاء الذين يقفون عاجزين دس له الأشياء في صرته؟ ولما أعيته الحيلة وقف مستسلمًا، ينظر في وجه صديقه، ربما كان يستعطفه، أو يعجم عود غضبه، لكن التماعة عين سيد أشعرته بالخوف، ثمة شيء لا يمت إلى ما بينهما بصلة، أدرك أن سيد لا يغضب من أجل أشيائه، وإنما من أجل شيء أكبر، ولما لم يستطع أن يواجهه أطرق إلى الأرض.

في تلك اللحظة بالتحديد سدد سيد القشاش ضربة هائلة إلى صدره، اخترقته بحسم، وسمع الجميع صوت خروج الهواء من الجرح، وصرخة توقفت عند بداياتها، ولما سحب سيد المطواة ووقف مذهولاً تعلقت عينا علاء به، وبيده التي تحمل المطواة الآثمة، وبخيط الدم الذي يقطر منها، واعتراه شحوب رهيب، وسقط على الأرض ميتًا.

تقاذفته عربات الترحيلات وأروقة المحاكم وقاعاتها، جلسات الأخصائيين الاجتماعيين، ونظرات قضاة الأحداث البالغة القسوة، فالأصدقاء كلهم شهدوا بما كان بينه وبين علاء، وصار كل من يقرأ قضيته ينظر إليه بعين كارهة، كأنه الوحيد الآثم في الكون الفسيح، واستقر به المقام في دار للرعاية الاجتماعية عند طرف من أطراف القاهرة، يفر منها متى يشاء ويعود إليها متى يشاء، حتى اكتشفته الشرطة، وجندّته متلصصًا موهوبًا، تكافئه بالمال لقاء نجابته، وببعض من يلبون نداءً افتقده برحيل حبيبه الأول.

جمعته بـ"عمار النجدي" علاقة عابرة، التقيا ذات مرة في انتخابات مجلس الشعب في العام 2005، في إحدى دوائر القاهرة، كان الحاج صفوت بيومي ينازل مرشحًا للإخوان المسلمين، وكان مرشح الإخوان ممن تم الاتفاق سريًا بين مرشد الجماعة وقيادات أمن الدولة على نجاحه، لكن الجماعة فوجئت بترشيح صفوت بيومي أمام مرشحها، وغرقت الدائرة في بحرٍ من المال، يجري صرفه هنا وهناك، حتى صار سعر الصوت خمسمائة جنيه، يعرضها صفوت بيومي عدًا ونقدًا، ولم يكن كل ذلك كافيًا لإسقاط مرشح الجماعة، فالناس كانوا يتدفقون للتصويت لصالحه كيدًا للحكومة، وانتقامًا منها، ولم يكن مِن بُد في أن يقوم الحاج صفوت باستئجار من يعوقون عملية التصويت لصالح المرشح المنافس، وهكذا التقى سيد القشاش تايسون الشهير، الذي كان مجرد ذكر اسمه يثير في الأبدان قشعريرة، كقشعريرة الموت.

لن ينسيا أبدًا ذلك اليوم الذي يبدو الآن وكأنه كان منذ دهر، وكيف أن جسارة تايسون كانت هي الفاصلة، فشباب الجماعة الذين تربوا على القتال والمقاومة لم يستطيعوا أن يصمدوا في مواجهة الإعصار القاتل، المسمى تايسون، الذي تلاعب بمطواته وسنجته وسيوفه البتارة، وأيضًا بفريقه الرهيب، الذي كان يندفع فيشق الصفوف شقًا، ولا يخرج إلا والدماء تقطر من ذؤابات أسلحته المشرعة.

كان شباب الجماعة يصيحون: ألله أكبر، ألله أكبر، وكان هو ورفاقه أيضًا يصيحون: ألله أكبر، ألله أكبر، ولم تجد الاتصالات البينية، وكلمات

المرشد التي تذكر قادة أمن الدولة بالاتفاق المبرم بينهما، فالرد كان جاهزًا، فلقد خرقوا هم أيضًا الاتفاق المبرم، وخططوا للفوز بمقاعد أكثر من المتفق عليها، وانتهى اليوم بأجساد مُثْخنة بالجراح، وطربة حشيش كاملة في جيب كل واحد من فريقهم، وخمسة آلاف جنيه الألف منها ينطح الألف الآخر، ووليمة فاخرة أكل فيها الفتوات عجلاً كاملاً، وناموا بعدها أسبوعًا!

لم يعرف تايسون أبدًا أن القشاش يراقبه، لحساب جهات عديدة، فحتى الرائد مجدي الحسيني كان يستخدمه ليراقب تايسون، خشية أن يغير ولاءه، وكذلك رجال أمن الدولة التابعين لمكتب أعوان الأمن، والحاج صفوت بيومي نفسه الذي خشى ذات يوم أن يستأجر أحد آخر في الدائرة قوة الفتى الذهبى، وأخيرًا رفاعة سيد الأهل، الذي يخشى أن يكون تايسون مكلفًا بتصفيته، وفي الحقيقة فإن الاتفاق بينه وبين رفاعة على التلصص على تايسون كان أهون تلك الاتفاقات شأنًا.

نزوله إلى القبو كان بمثابة مكافأة على ما فعله للرائد مجدي الحسيني ذات يوم؟!!، فكل من حظى بـ"تيمور الناعم" قال إنه شيء مختلف، ونقلة في حياة المرء لا يعرفها إلا إذا نالها بالفعل، فـ"تايسون" نفسه، الذي لم يكن له في إتيان الذكور اعترف للرائد مجدي بأن نعومة الفتى استدرجته ذات مرة، وجعلته يشعر بما لم يشعر به مع نعيمة الحرة بجلالة قدرها، وكانت بائعة هوى تختص تايسون بأوقات توفرها لأجله، قال إن نعومة الفتى هي من جنس النعومة التي لا يعرفها الناس فيما يخبرون من أوجه الحياة،

وإنما من وعود ما سيلقون في الحياة الآخرة، ولقد صعق التشبيه الرائد مجدي الحسيني، ومصمص الشفاة تعجبًا، ربما لهذا كافأ عينه البصيرة سيد القشاش فدفعه إلى القبو لما استقر فيه تيمور الناعم، الذي يمثل للراغبين -كما قال تايسون- الغواية الكاملة.

الأربعاء 2 فبراير

ثلاثة أيام عاشها رفاعة كما كان يتمنى، التقى صفية في الليلة التي تأكد له فيها قتل رأس أجندته اللواء عاصم الإمام، فبعد أن قفل عائدًا من متاهة شوارع جاردن سيتى نفذ إلى الميدان كما يفعل الناس، تخلص من كل أسلحته، طبنجته والمطواتين، والموس الصغير الذي علمته ليالي السراديب الطويلة كيف يحتفظ به في فمه، تحت لسانه، حتى وهو نائم، كان أقرب إلى القول بأن قتل اللواء الإمام يجب أن يكون خاتمة المطاف.

إنه إذا أراد أن يمضى في تنفيذ باقي بنود أجندته سيترك الميدان، ويتوه في خضم القاهرة، التي تواجه قدرها مع نزلاء السجون والسراديب، الذين أطلقتهم الشرطة ودفعتهم ليؤدبوا الشعب المتمرد، الذي جحد تمتعه بنعمة الأمن، سيشعرونهم بالعجز، فيلتزمون بيوتهم وأغراضهم، ويدافعون بأيديهم العارية وسكاكين المطابخ وعصى المكانس عن أعراضهم المعرضة للسطو، كيف يتسنى أن يعرض نفسه لدوامة من تلك الدوامات التي تكنس الشوارع، وتقتل في طريقها كل شيء؟!!، كيف سيغادر الميدان وهو الذي شعر لأول مرة منذ أطلقوه بكيانه كإنسان؟

تمنى لو يبوح لـ"صفية".بما رأى، عن الوجه الطفولي الذي يسيل الدم من زاوية فمه، والأقدام التي تأخذ شكلاً لا يمت بصلة للحياة، والثقب الصغير الذي رآه في الجبهة العريضة رأي العين، لكنه أحجم، فالميدان الذي أمضى يومًا قاتلاً بحق كان يودع عشرين شهيدًا، يطوف بهم المتظاهرون حول الكعكة الحجرية، والجزيرة الوسطى كأنها كعبة جديدة، ولم يكن ليدنس نقاء اللحظة وجمال المشهد.

في حضور شهدي رضخ لطلبها، إعلان زواجهما في الميدان، سأل برفق، ما الصلة بين زفاف عروسين وزفاف عشرين شهيدًا؟ كلهم يعاينون أخلد لحظاتهم هنا، هكذا قالت، كلهم ينتمون للمكان الذي سيخلده الأبد، وهما ذرتان في هذا الكون الفسيح، وبين تلك الجموع التي بلا أول أو آخر، ويهدر في قلبه الدم الحار الذي يهدر في كل القلوب، وينطلق من داخله نداء يصب في بركان الهدير الذي يرج السماوات:

- إرحل.. إرحل.. إرحل.

إنها ليست الكراهية كما يظن الكثيرون، إنه إعلان عن بداية جديدة، لا يتبقى كي تدور عجلاتها إلا أن يرحل الرئيس.

طافا بالميدان، وتناثرت فوقهما الورود، من أين جاء الناس بهذه الورود النادرة؟!!، قال: إنها تنبت في قلوبهم، فمثل تلك الورود لا يرويها إلا الدم، كانوا يطوقونهما بالحب، وبالهتافات الهادرة، وكانت صفية ترتدي ثوبًا زاهيًا، وتضع على رأسها تاجًا، من أين جاءت بهما؟!!، أسئلة دارت في خلده وهو يمسك بيدها، ويرفعها إلى شفتيه ليطبع على الأصابع التي تضغط على يده قبلة خاشعة كأنها صلاة.

من ذا الذي اقترح عليهما الذهاب إلى البيت لقضاء ليلة العرس؟!!، ربما يكون شهدي، أو واحد من أصدقائه الذين غنوا ما شاء لهم من الغناء، وضحكوا كما لم يضحكوا من قبل، الكل على يقين من أنه يحيا حياة استثنائية، ولحظة فريدة، وساعة لن تتكرر في أعمارهم، بإمكانه إذا سمع لنصحهم أن يتسلل إلى الوكالة القريبة ويحصل على دراجته النارية، يردف صفية من خلفه وينطلق إلى البيت، لكنه خشي الملاحقة، عليه أن

يبلغ شهدي بشكوكه، وكذلك صفية، ورسم الأصدقاء خطة لانسحاب العروسين من الميدان.

شقت بهما الدراجة طريقًا خلفيًا، وكان الخوف يملؤه، فوجود صفية يجعل الخطر أقرب مما لو كان بمفرده، واعترف بغباء قراره بالتخلص من السلاح، لو أنه معه إذن لأمكنه استخدامه إذا هاجمه أحد، وهو في النهاية لا يعرف إن كانت البندقية التي غنمها من القسم مع حقيبة الذخائر لما تزل هناك في بدروم البيت أم لا، فلو أنها لا تزال هناك فسيمكنه التحصن بها إذا وصل سالما.

نظرات الطفلة التي أضاعها لم تنفذ إلى عقله فجأة كما يحاول أن يقنع نفسه، إنها تنفذ إليه طوال الوقت، حتى من قبل أن يزايله الغضب، ويسكن الهدوء روحه القلقة، فأبوها مات شر ميتة، وهي طفلة صغيرة، لا شأن لها بما فعل، كيف واتته الجرأة على أن يضرب في أضعف وأرق موضع في حياة غريمه؟!!، يحدث نفسه وصفية تلتصق به التصاقًا ينبئ عن شوق وخوف، بإمكانه أن يعرج على المكان الذي تركها فيه، ليرى إن كان يمكنه الاهتداء إليها، ودون أن يفاتحها في الأمر عرج إلى المقابر.

ما فعله لم يدهش صفية وفقط، بل أدهش أنفاس الليل الحذرة، التي كانت هي الأخرى تخشى دوامات الغدر، لم يجد أحدًا هناك، الشوارع خالية تصفر فيها الريح، تكنس أمامها أوراق وأكياس، وتثير زوابع صغيرة، خمن بالتقريب أين تركها، وتوقف، لا يعرف ما الذي يجب عليه عمله، والباب الذي وقف أمامه انشقَّ في خوف، ولمعت عينان تستطلعان ما يجري، ولما لاحظت صفية الباب المشقوق لكزته في كتفه، نادى:

– أمان يا أهل الأمان.

كان كرجل قادم من زمنٍ بعيد، حتى كلماته لم تكن تبعث على التواصل، لكن الباب على عكّس ما توقع تحرك، وازداد الشق وضوحًا، وأطل وجه خشن يسأل:

– إيه ياخويا؟!، عوف الأصيل؟!

نزل من فوق الدراجة، وكذلك فعلت صفية، قال للرجل المتهكم:

– امبارح بنتي تاهت هنا، عارف أن أهل الخير ها يحافظوا عليها لغاية ما نرجع وناخدها.

الوجه المتهكم لم يخرج وحده، خرجت معه وجوه أطفال وصبيان، وسيدة بدينة لا ترتدي برغم البرد إلا قميصًا داخليًا يحتوي بالكاد طيات جسدها، المرأة نهرته:

– أما انت راجل خُلَلْ صحيح، تقلقنا وتصحينا من أحلى نومة عشان التخاريف دي؟!!

وانطلق الوجه الخشن ينسج على المنوال:

– بنت مين؟، وتاهت فين؟، وأهل خير إيه يا فندي؟!!، تكونش هربان من العباسية؟!!

كان يمد يده للداخل ليحظى بشىء، وما إن قبض عليه حتى صار في مواجهتهما، في عرض الشارع:

– إذا ما فرجتنيش على قفاك، ووريتني لا مؤاخذة رشاقة خطوتك هاجيب بطنك بالسكينة دي.

هذا العداء السافر بغير مناسبة جعله على يقين من أن الرجل وزوجته يعرفان بأمر الطفلة، وهتف في صدره هاتف، قال مُطمئنًا الرجل وزوجته:

– اهدى يا عمنا، إحنا ناس محترمين، أنا راجل مستشار قانوني وزوجتى مترجمة، وامبارح قبل الجمعة كان فيه ناس ولاد الحرام قاطرينا، كنا في عربيتنا، ولما خفنا يلحقونا دخلنا لغاية هنا، البنت ربنا رزقنا بيها بعد تعب وشقا، مراتي خلعت دهبها وحطته في جيوبها، قلنا اللي يلاقيها وقلبه يرق ليها ياخد الدهب ويحافظ عليها، سبناها هنا.

أشار إلى نقطة أقرب إلى الباب:

– وطلعنا على الطريق تاني، لقيناهم مستنيينا، فضلوا يطاردونا لغاية لما ربنا قدرنا وفلتنا منهم.

وقبل أن يعترض الوجه الخشن، أو المرأة التي بدأت تشعر بالبرد قال وصفية تهز رأسها موافقة:

– المصاغ حلال على صحابه، إحنا سبناه مع البنت أجر اللي يحفظها، بطايقنا أهه، ومش عاوزين غير بنتنا.

ما حدث بعد ذلك سيعده هو وصفية أغرب من الخيال، فلقد نظر في وجه زوجته وأخذ البطاقتين وراح ينظرا فيهما، بدا أنه لا يعرف القراءة، لأنه بعد برهة سلمهما لـ"رفاعة" دون أن يمعن النظر، وطلب أن يمضيا بدراجتهما بعيدًا عند الناصية، وإن هي إلا دقائق حتى رأى بنتًا تحمل الطفلة، سلمتها لهما وانقلبت عائدة.

طوال الطريق كانا يتدارسان كيفية إعادة الطفلة لأمها، والطفلة الخائفة تخشى البكاء وتلتصق بصدر صفية، وصفية تضعها بينها وبين رفاعة لتقيها البرد، وتفتق الذهن عن حيلة، سيكتبان بخط متصنع اسمها وعنوان أهلها، ويضعون الورقة معها ثم يتركونها لدى أحدهم، ولكن من هو؟!!، وماذا لو استبقاها مثلما يفعل الذين يسرقون الأطفال؟!!، يبيعونهم للأجانب وراغبي التبني والمتسولين وغيرهم، وأخيرًا فإنهم إن اقتربوا من مدينة نصر ستستوقفهم اللجان الشعبية، فما العمل؟!!

فكرا في أخذها إلى البيت، لكن خبراته السراديبية سرعان ما نحَّت الفكرة جانبًا، إنهم إذا هاجموهما وعثروا على الطفلة معهما لن يُتهما بخطفها فقط، ولكن سيُقدَّمان متهمين أيضًا في قتل أبيها، ولما عرضت صفية أن يحملا الطفلة إلى أمها وأمه في مستقرهما السري الذي دبره شهدي اعترض بشدة، وظلا يدوران في الشوارع الخالية، وعندما يريان أحدًا في عمق شارع يقفلان عائدين، حتى رأيا سيارة ملاكي قادمة، وقفا في نهر الطريق فتوجس قائدها خيفة، لكنه لما رأى صفية وعلى ذراعها الطفلة اطمأن، وتوقف بناء على إشارتهما، ظن أنهما في حاجة إلى مساعدة، ومال رفاعة عليه ومد يديه بالطفلة من الزجاج المفتوح، كان الرجل بمفرده، عائدًا من مكان ما، وكانت الكوفية تغطي ملامح رفاعة، وملامح صفية تختفي خلف الإيشارب، قال رفاعة في اضطراب:

– عنوان أهلها في جيبها.

وتركها تسقط من يده برفق داخل السيارة، لم يأبه لصراخ الرجل، ومحاولته غلق الزجاج حتى لا يتمكن من وضع الطفلة على المقعد

المجاور، وفي لمح البصر غابا عن المشهد، وكانا وهما ينطلقان بدون الطفلة لا يصدقان أن ما جرى يمت للحقيقة بأدنى صلة.

في حجرته قضيا ما تبقى من الليل، لا يدريان إلى متى ظلا مستيقظين، ولا متى أخذهما النوم في ركابه، هل قالت له صفية:

- خلِّي بالك أنا ما أخدتش الحباية؟

وهل أجابها:

- بختي يجيلنا عيل ليه لون عينيكِ.

المؤكد أنهما استيقظا وكان آذان الظهر يرتفع من عشرات المساجد.

حظيا بحمام هانئ وأديا صلوات رائعة، وجلسا يستطلعان وجهيهما، وينظران في أيديهما وأصابعهما، لا يصدقان أنها هي التي كانت بالأمس، تشابكت وتعانقت، وارتجفت تحت وطء الوجود.

وكانا قد تسللا إلى البيت دون أن يشعر أحد، حتى ينعما بوقتهما، ويضللا من يريد بهما سوءًا، لكن صخب الحياة أخرجهما من التحفظ، ونعما بضجة النهار في البيت الخالي من سكانه، وقرب العصر كانا في الشارع، يستقلان الدراجة النارية وينطلقان إلى الميدان الكبير.

في مكان آخر رن جرس التليفون، أطل وجه الشيخ "أبو داوود الجهيني" على شاشة التليفون مقرونًا بدعاء أثير بصوته، صفوت البيومي الذي قضى ليلة أمس مُخدرًا في حفل صاخب أقامته ناتاشا هب من نومه، وقبض على التليفون، طالعه وجه الشيخ وسبابته المشهرة فأجابه، من الجهة الأخرى أنهى إليه الشيخ خبر مقتل اللواء الإمام.

كأن الدنيا كلها تنهار، هكذا شعر بيومي، لم يكن بالفيلا سواه، وبعض من الخدم يقومون على إزالة آثار ليلة الأمس، أجرى اتصالات عديدة، كلها تتعلق بالخبر المشئوم، واكتشف أنه آخر عضو في المنظمة الكبيرة وصله الخبر، وأن موعد الاجتماع الذي دُعوا إليه صار وشيكًا.

كان يهرول هنا وهناك، يرتدي ملابسه على عجل، وطرقات الصداع تضرب مؤخرة رأسه وصدغيه، وعندما وصل إلى باب الفيلا لم يجد السائق، قالوا إن معظم العاملين لم يتمكنوا من الحضور بسبب الأوضاع المتردية، وبدا كأنه سيبكي.

كل شيء كان يمضي في طريقه، الثائرون يواصلون التمرد، برغم أنها الدماء، والرئيس الذي ظنوه سيرحل خرج عليهم ليعين نائبًا له ويأمر بتغيير الوزارة، وقوات الجيش التي نزلت إلى الشوارع تلتزم الحياد في الحرب الدائرة بين الثائرين والبلطجية، والقناصة يعتلون أسطحًا أخرى، ويقتضون المتظاهرين.

التزم رفاعة الميدان، تمنى لو أنه عاد من رحلة اطلاعه على جثة اللواء الإمام، وتوجه إلى مجموعة الرفاق في مكانهم السري، لكن التمني لا يغير شيئًا من الأمر، فلقد انقطع كل اتصال بهم، تمامًا كما انقطع تفكيره في المضي قدمًا في تنفيذ أجندته، بل إنه وفي لحظة رؤيته للوجه الطفولي الميت أخلاها من اسم تايسون، ففي رأيه أن تايسون لا يمتلك شيئًا ليتصرف على غير ما هو عليه، ثم إنه أمده بمعلومات رائعة، وقربه من غرمائه بصورة نادرة، وصفوت بيومي لن يمكنه الوصول إليه، وسمع صوته وهو يقول لـ"صفية" إن العنف الفردي قتل للثورة.

بات الرفاق من الزمان المنقضي، ومهما هفت نفسه لن يقدر على العودة، يتمنى لو حافظ على الاتصال بهم، إذن لعرف خُطّتهم ووجهتهم، وضحك من نفسه، فنظام جبار مثل النظام الذي يرزحون تحت نيره لنيف وثلاثين عامًا لن يعدم قادة آخرين بعد اللواء الإمام.

في أكثر أحلامه بشاعة لم يكن يتوقع أن يكون تحت عيني تايسون طوال الوقت، وأن أمرًا ما يتعلق بمصيره صدر، وأنهم يسعون إليه. ربما يكون قد أخطأ عندما ترك الاتفاق بينه وبين سيد القشاش بغير نهاية، فالنهايات المفتوحة كارثية، تنبئ عن اضطراب ولا تمت للعلم بصلة، وفي حالة اتفاقه مع القشاش لم يكن المبلغ المتفق عليه هو العقبة، فالمبالغ التي حصلوا عليها طوال الأيام الماضية تكفي لأن يعيش الواحد منهم ردحًا من الزمن بغير خوف، حتى هو نفسه، حظى ببضعة آلاف لم يقف لحظة ليحصى عددها، يأخذون من عاصم بك، ومن رجال أعمال غامضين، ورجال أحزاب يأتون لزيارتهم لإظهار التأييد، فضلاً عن المنهوبات التي سيقتسمها الرفاق حتمًا، إن الخطأ الأكبر هو تركه الاتفاق لمشيئة النهايات المفتوحة، التي تجعل من التحول أمرًا قائمًا، ومن الخيانة شيئًا أخلاقيًا.

سيد القشاش كان عميلاً مزدوجًا، له ولـ"تايسون"، دون أن يعرف أي منهما، أقنع كل منهما بأنه يعمل لصالحه، هو وفقط، ودخل الأمر على تايسون، ودخل على رفاعة، لكنه كان يشعر في داخله أن القشاش يعمل لحساب أحد آخر، ربما يكون تايسون، وربما يكون واحدًا من الضباط، الضوء الذي ينطفئ كلما نظر في عمق عينيه يوحى بذلك، لكنه لم يقف عند تلك الانطفاءة كثيرًا، كان في عجلةٍ من أمره، و لم يكن

يطمع إلا في أيام قليلة، يمده فيها القشاش بما يغمض عليه، حتى لا يأخذه تايسون على غُرَّة.

يبدأ صباح الأربعاء 2 فبراير ليس كما بدأ أي يوم آخر، قضيا ليلهما في خيمة صغيرة حصلت عليها صفية من إحدى صديقاتها. وردية رفاعة الليلية كانت عند منفذ شارع قصر النيل، ظل طوال الوردية يقاتل ليمنع تقدم البلطجية نحو الميدان، ونجحوا قرب منتصف الليل من طردهم إلى ما وراء ميدان طلعت حرب، وتمترسوا هناك، ثم اكتشفوا أن اتساع الميدان يجعلهم عرضة للانقضاض عليهم من اتجاهات مختلفة، ولما وقعت بهم إصابات عديدة انسحبوا في اتجاه ميدان التحرير، ورابطوا في منتصف المسافة إلى هناك، وتمكنوا من صد الهجوم الذي لم يمنعه اقتراب الفجر من التفاقم.

وصفية كانت في ورديتها في المستشفى الميداني، رأت في تلك الليلة دماءً غزيرة، أعينًا مفقوءة، وأجسادًا مهروسة، عظمها في لحمها، وأضلعًا محطمة، وأوجهًا فقدت معالمها، ثم صعدت إلى منصة الغناء وغنت، ولكن بحزن، قال الرفاق إنها كانت تبكي، ما الذي ذكّرها بـ"أم كلثوم" وبلد المحبوب؟!!، وكيف شعرت بدموعها تجري ساخنة فوق وجنتين لوَّحهما البرد؟!!، لم تكن إلا ليلة استثنائية، طاف فيها طائف قديم فرأت نفسها في بهوٍ فسيح، وسمعت في أذنيها نحيبًا متمهلاً، وسوادًا ترتديه نساء لا تعرفهن، وجسدًا مسجيً في غرفة مقابلة، تظهر من الباب رجليه الممدودتين.

احتضنته بشدة، كانت في حاجة إلى أن تحتمي به، لأول مرة منذ غاب أبوها تجد أمانًا في حضن أحد، لم تشعر به حتى في حضن أمها، ولا في أحضان أقاربها الذين كانوا يأتون إلى القاهرة بين الحين والحين، ولا حتى حضن الأخ الذي توهمت ذات يوم أنه سيكون العوض، ثم انقطع كما انقطع الجميع، وكان هو الآخر في أمس الحاجة إليها، إلى حضنها، ودفء جسدها، الذي باح له في اليومين الماضيين بأسراره، وتمنى لو يستطيع أن يمد اللحظة إلى ما لا نهاية، وأن يتجمَّد الكون وتتوقف الحياة عند اللحظة الآمنة.

يطلع صبح الأربعاء حاملاً أمنيات، كأمنيات الورود التي لم تتفتح بعد، منطوية على قلبٍ أرق من أن يظهر للحياة على الفور، لم يتم بعد شحنه بالأسى ومستقبلات الألم، الذي يدمي بغير دماء، يفتح عينيه على صباح جديد، ويجدها في حضنه، تلتف حوله، كأنها عادت إلى وضع ما قبلَ الحياة، يبتسم من خيالاته الغريبة، كأنهما معًا نوع نادر من الخلايا الأولية، تنعم ببساطة الحياة، اللغط في الميدان يظهر ويختفي، والأجواء تسخن وتبرد، كأن الدنيا تقلبهم على كل أوجهها.

اليوم ينذر بالاكتمال، فالرجل الثمانينى القابض على الرقاب يرفض الرحيل، والعقل الجمعي للملايين في الميدان الكبير وكل ميادين مصر يرفض الرحيل هو الآخر، في هتافٍ عبقري مصري خالص:

- مش هانمشي،

هوَّ يمشي.

تهفو نفسه لرؤية أمه، ولرؤية درية، بالأمس حلم بأنه عفا عن زوجها، إكرامًا لخاطرها، وخاطر حملها الذي لم يرَ النور بعد، كل ما يهفو إليه هو وجه شهدي، يا ألله!!، يا لبراءة ذلك الرجل الغريب! الأستاذ صابر سيد الأهل، مشرف الإنتاج القديم بشركة المراجل البخارية!، أسماه رفاعة، وأسمى ابنه الثاني شهدي، وأسمى الثالثة درية، رموز تفصح عن هويته، تُرى، كيف كان ينظر إلى الحياة؟، وهل كانت أيامه مستقيمة؟، أم كانت تتعثر؟، تقع ثم تقوم، وتقع ثم تقوم؟

وينفجر الميدان، كأنما ألقيت فيه قنبلة، طوال اليوم كان القناصة يواصلون اصطياد الرؤوس، كل العيون تستطلع المباني البعيدة، الفنادق وسطح وزارة الداخلية والجامعة الأمريكية، ولا أثر، وفجأة، ينفجر الميدان.

ضجة كبيرة قادمة من اتجاه ماسبيرو، في طريقها إلى ميدان عبد المنعم رياض، المئات يمتطون ظهور الإبل والخيل، يحملون سيوفًا وسكاكين وهراواتٍ ضخمة، ويضربون في كافة الاتجاهات.

الناس يفرون، عيونهم تنبئ عن تصميم للتصدي، ولكن كيف؟!، بالأمس أعلن الرئيس أنه لا يطلب أكثر من تركه ليُدفن في تراب بلده، ولم ينطلِ القول على أحد، كلهم على يقين من أنه يبعث بالخذلان في أوصالهم، فهم أناس طيبون، يهتزون أمام المعاني الطيبة، وهذا الرجل الذي حكمهم ثلاثين عامًا يعرف نقاط ضعفهم، وكم هم عاطفيون، وقرر أن يضرب على وتر القلوب، لكنهم برغم الارتباك الذي أحدثه كلامه يعودون للصياح: إرحل إرحل.

تتوغل الإبل والجياد وسط الجموع، ويبلي الشباب بلاءً حسنًا، يقفزون على الحصان أو الجمل، فيقبضون على ملابس الراكب، ويهبطون به وبدابته، وهكذا يفعل رفاعة، ولا يشعر بآلام جسده، أصابته ذؤابات سيوف كثيرة، نفذت من ملابسه الثقيلة إلى جسده، لكنه لا يشعر بها، يطارد الجياد والإبل، يقفز في الهواء متحررًا من ربقة الجاذبية، يقبض على الرؤوس أو الأذرع ويهبط بأصحابها إلى الأرض، وتلتقط عيناه نظرة القشاش، وينزل إلى الأرض لا كما ارتفع.

هم هنا إذن!!، يتبعونه، أتُراهم يشاركون في الاعتداء فقط؟، يساعدون الراكبين على الفتك بالثائرين؟، أم تُراهم لا يقصدون إلاَّه؟، يأتي بحركة التفاف رائعة، يقبع خلف المنطقة التي التقط فيها عيني القشاش، لكن الرؤوس كلها تتشابه، المعتدون والمعتدى عليهم، كلها تتشابه، يفكر في الانحياز يمينًا أو يسارًا، لكن استمرار تدفق الخيالة وقائدي الإبل يمنعه من التركيز، ويحمله إلى مناطق لم يخطط للانزلاق إليها.

يكاد يصعق، إنهم جميعًا هنا، تايسون وتيمور واللنش والأعور والكبش، من المكان الذي حمله إليه الزحام يراهم في محيط بصره، هل يطمئنه وجودهم أم يزيد من قلقه؟!!، فأن يكونوا جميعًا هنا يعني أن تعليمات صدرت لهم بالاشتراك فيما يجري، يمكنه إذا أراد أن يدل عليهم، لكنه لا يجد الوقت الذي يمكنه من تدبير الأمر، ثم إنه في النهاية واحد منهم، من رفاق القبو اللعين، ولن يجديه شرح ما جرى في الأيام القليلة الماضية، فمن في هذا الخضم سيحسن الاستماع، كل ما يهمه هو الاستمرار في مراقبتهم، حتى يعرف وجهتهم.

هم لا يفعلون شيئًا تقريبًا، لا يشاركون المغيرين الاعتداء، ولا حتى يمنعون الناس من إلقاء القبض أو الاعتداء على من يقع منهم، فقط يواصلون الوجود في المكان، لكن القشاش ليس معهم، ويسقط قلبه في كعبيه، المتلصص الموهوب يختفي حيث يجب أن يكون ظاهرًا، يتلفت يمينًا ويسارًا، الوجوه كلها تتشابه، وحاسته الرائعة التي كانت لديه ذات يوم لا تلتقط النظرات التي يصوبها إليه، كل العيون زائغة، وحاسته القديمة تعطلها الجموع، يُدْخِل عليها الزحام تشويشًا يمنع عملها.

بإمكانه أن ينسحب ويتركهم واقفين هناك، في الخضم القريب من مسار الخيالة ومحاربي الإبل، ولكن بعد أن يعثر على ضالته، على القشاش الرهيب، الذي يجيد الاختباء، حتى تحت جلده، يشعر باضطراب، عليه أن يتبع حدسه، ويغادر إلى مكانٍ آخر، حتى ولو تبعه القشاش، إلى مكان يمكنه فيه التلفت بيسر، وتمييز الوجوه عن بعضها.

القرار له محاسنه، وله سوآته، سيبتعد عنهم، هذا صحيح، سيؤجل الخطر المحدق به إن كان حقيقيًا، وهذا صحيح أيضًا، لكنه سيفقد أثرهم، فيما هم بفضل القشاش سيقتفون أثره. هو ليس أمام خيارين كما يظن، بل هو خيار واحد، صفية في المستشفى الميداني، والقتلى والمصابون يفدون بالعشرات، وشهدي يقاتل في جبهة عبد المنعم رياض، ودرية تحارب معركة الاختباء من نفسها ومن زوجها.... وهو وحده، في الخضم.

ينحنى متخفيًا في الأجساد، وينسحب في اتجاه غير محدد، يتمنى ألا يكون موصلاً إلى حيث يوجدون، فكتلة الجموع تأخذه إلى غير هدى،

ويرفع رأسه فلا يكاد يميز شيئًا، كل الرؤوس تتلفت، وكل الأعناق تشرئب، والميدان يطلق صيحات الانتصار، فموجة الهجوم بالدواب تشرف على الانتهاء، والمئات من المعتدين يقعون في الأسر، ومدخل محطة المترو يتهيأ ليكون سجنًا ميدانيًا، يفكر، لماذا لا يهبط إلى المحطة؟

لم يكمل السؤال، شيء بارد يخترقه، يشعر به في خاصرته، في خاصرته تمامًا، يرفع وجهه فيقع على ملامح تايسون، الملامح القديمة، والنظرة المنتصرة، وفرحة الروح الظافرة بغريمها، تتوقف الآهة عند حدود الشهقة، وتخترقه طعنة ثانية، وثالثة، ورابعة، وغير بعيد تلتقط حاسته عيني القشاش، فيهما ذلك الشيء الذي ينطفئ، أو هي عيناه التي ينطفئ نورها، وينسحب على الميدان ليل ثقيل.

كل حياته هناك، في سرداب طويل، ممطوط كصوت آثم، يتلوى كثعبان خرافي، نفق عجيب في نهايته ضوء، لايقدر على النظر فيه، وينسحب الضجيج تاركًا من خلفه صرخات، وقهقهات، وزغاريد، وموسيقى تنساب كجدول ماء، لم يسمع مثلها من قبل، دموعًا ترقرق، ثم تسقط فوق وجنات ساخنة، ونداءات بعيدة يهفو لتلبيتها.

مع انتهاء اليوم يحصون الشهداء، يقول أحدهم:

– الراجل ده أنا عارفه!

يحاول تذكره، ويقرأ الفاتحة عند رأسه، وينحني أحدهم فوقه، تصيبه الدهشة وهو يقترب، يقول ذاهلاً:

– سبحان الله!

ويطلب من الجميع النظر:

- الراجل بيضحك.

يخرج من جيوبه حافظته، وعلبة مناديل ورقية، وقطعًا نقدية قليلة، ووُريقات غريبة مهترئة، عثر عليها في حافظة أبيه يوم وفاته، وأودعها من يومها حافظته، ويعثر الرجل على بطاقته، يعلن اسمه بصوتٍ مسموع:

- رفاعة صابر سيِّد الأهل.

يجتذب النداء صفية، ينغرس في قلبها كسكين، تأخذه في حضنها، ويأتي شهدي من آخر الميدان، يقوده هاتف خفي، بالكاد يلمسان بأصابعهما إطار المحفة التي يحملونه فوقها ليطوفوا به الميدان.

تمت

المنصورة

22 يوليو 2011

المؤلف في سطور

أحمد صبري أبو الفتوح

- من مواليد محافظة الدقهلية في العام 1953.
- درس القانون في جامعة القاهرة، ثم عمل وكيلاً للنائب العام، وتدرج في مناصب القضاء حتى عمل رئيسًا للنيابة العامة، ثم استقال من القضاء وعمل بالمحاماة.
- حصلت روايته "ملحمة السراسوة" (الخروج) على جائزة ساويرس لكبار الأدباء في العام 2010.

صدر له:

1 – "طائر الشوك"، رواية، دار زويل، القاهرة 2000.

2 – "وفاة المعلم حنّا"، قصص قصيرة، دار ميريت، القاهرة 2002.

3 – "جمهورية الأرضين"، رواية، دار ميريت، القاهرة 2005.

4 – "ملحمة السراسوة" (الخروج)، رواية، دار ميريت، ط1: القاهرة 2009، ط2: 2010، ط3: 2010، ط4: 2011.

5 – "ملحمة السراسوة" (التكوين)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.

6 – "ملحمة السراسوة" (أيام أخرى)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.

البريد الإلكتروني

ahmd_sbry@yahoo.com



أجندة سيِّد الأهل

السيارات تأتي مختلطة بالسراب، من بعيد تتماوج كالخديعة، هو لم يعتد الرؤية في وضح النهار، وقدمه لا تكاد تحمله، يخشى من الشارع والناس والسيارات والبيوت البعيدة، وعندما تقترب السيارات تمر به وهي تنهب الأرض نهبًا، يدرك الآن أن السيارات تفر من قدرها، فأقسام البوليس تلفظ أحشاءها في الطرقات والشوارع والساحات، والمسجلون واللصوص يقعدون للمارة في كل اتجاه، بأيديهم أسلحة جبارة، وفي عيونهم عزم أكيد على تصفية كل الحسابات، مع المجتمع الذي لفظهم وأودعهم ظلام سراديبه العطنة، ويتنبه إلى حاله فيرى البندقية الآلية المعمرة في يده، وحقيبة الرصاص معلقة إلى كتفه، وفي جيب بنطاله المهلهل تقبع الطبنجة الـ9 مللي بخزينتها المليئة بالطلقات، يا للهول!!، إنه واحد منهم، من الأجشاء التي تلفظها سراديب البوليس، ويتنبه للحيته التي تتدلى فوق صدره، وشعره الأشعث الذي تنبعث منه روائح كريهة، وجسده المغطى بطبقة سميكة من القشف تجعل تجعيدات جلده غريبة، وتقف أمامه سيارة.

هي صفية، بشحمها ولحمها، إلى جوارها شهدي، أخوه، بشحمه ولحمه، لا يعرف كيف يحتضنهما، فأسماله تبعث بروائح السراديب والأقبية، وهواء العطن والصنان والعفونة، لكنهما يرقدان على كتفيه، ويبكيان، كطفلين اهتديا إلى أمهما.

الغلاف: بسمة صلاح


6 224007 220863

